

مِرْمَعُ الْمَفْكَرِ التَّرْبُويِّ

عند الشيخ أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عمان

الجزء الأول

زايد بن سليمان بن عبدالله الجهضي

الطبعة الثانية

من معالم الفكر التربوي

عند الشيخ أحمد بن حمد الخليلي

" المفتي العام لسلطنة عمان "

الجزء الأول

نرايد بن سليمان بن عبد الله الجهضمي

الطبعة الثانية

سلطنة عمان - مسقط

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



سماحة الشيخ العلامة أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

"فهذه الصحوة الإسلامية - والحمد لله - أخذت تقصّ على الجاهلية الحديثة مضجعها، وتثير في أعماق نفسها المخوف والرعب، وسوف يأتي اليوم الذي يسود فيه هذا الدين - إن شاء الله - ويهدأ أركان هذه الجاهلية، ويبحث بنيانها، كما فعل بسالفتها الجاهلية القديمة، عندما طوى ظلامها بإشراق نوره، وسطوع هداه".

الشيخ / أحمد بن حمد الخليلي . جواهر التفسير: ٣١٨/٢ .

"أما أنا فلا أتشاءم قط - والحمد لله - أنا متفائل، ولا أربب أنني أرى يقظة المسلمين اليوم هي خيراً منها بالأمس، مهما كانت الأحوال سابقاً... فهذه الصحوة الإسلامية إنما هي تبشير صبح مقبل بمشيئة الله، وأنا لنتظر وصوله عما قريب - إن شاء الله

الشيخ / أحمد بن حمد الخليلي . الطريق إلى الأقصى: ج ١ .

"وإذا كان العالم اليوم يقف على عتبة مرحلة جديدة، يواجه فيها صحوة إسلامية مشرقة يتألق نورها في عقول شباب المسلمين، فإن الواجب يفرض على جميع أفراد المسلمين أن يضافروا جهودهم - كل بحسب ما يملك - للمحافظة على سير هذه الصحوة في مسلكها السليم، وانتشارها بنور من وحي القرآن، حتى لا يعثر بها الشذوذ والانحراف .

الشيخ / أحمد بن حمد الخليلي . جواهر التفسير: ١١/١ .

المقدمة

دافع التأليف

الحمد لله المتفرد بالكمال والجلال، محقق الآمال ومقدر الأجال، المضي على من يشاء من عباده حميد الخصال، والصلاة والسلام على أحسن البشر خلقاً، وأعظمهم خلقاً، وأزكاهم سيرة، وأصفاهم سريرة، وعلى آله وصحبه، المضطلعين بحمل رسالة الإسلام، المستهينين في سبيلها بالأعباء الجسام، وعلى الواطئين مواضع أقدامهم من التابعين والصالحين إلى يوم الدين. أما بعد:

فلقد جعل الحكيم الذي لا يسأل عما يفعل لكل شيء سبباً، وكان من السبب الباعث على هذا التحير، والدافع الملح على هذا التسطير؛ إرواء الغلة المتخلقة بمحشاي مذ كنت صيباً، والترعرة بطواياي منذ كنت فتياً، قبل نفور الحبيب بتباشير المشيب، إذ ساقني طالع السعد، وقادني لطيف القدر، إلى محاضرة بالمعهد الإسلامي بما ينيف على عقدين من السنين، حيث تصدّر سماحته على دست الجلال بهيبة ووقار، وأخذ ينثر على مستمعيه من فرائد علمه، وقلائد حكمه، وسديد توجيهاته، ولطائف إرشاداته، وانهمك في توضيح ما اندرس من معالم الأخلاق، محرّكاً في تلافيف النفوس إليها كوامن الأشواق، يهدر كالسيل المتدارك، ثم خرجنا مستحوذاً على قلوبنا الإعجاب، ومستولياً على نفوسنا الاندهاش، ولم نخرج آنذاك بغير ذلك، ثم تواترت عليّ

نعماء القدر، فكحلت بنور غرته مني البصر في دروس التفسير لكتاب الله العلي القدير، التي يكشف فيها ما خفي من دلالات القرآن، فتجلى بذلك ما كمن في نفس الشيخ من آيات الرحمن، فأشريت قلوبنا بحبه، وطمحت نفوسنا إلى التماس قربه، فوجدناه مع سمو قدره، وعلو منزلته:

دان إلى أيدي العفاة وشاسع عن كل ند في الندى وضريب.

فدلتنا بشاشته على لطفه، ولطفه على عطفه، ونبهنا سخاؤه على رجائه، فحشرت نفسي مع الداخلين، فانبهرت بما شاهدت من آيات تفرده، وقيت أشيم بارقة الهدى في سجاياه، وتستجيش تلهفي أنوار الإيمان المتلاثلة في عيائه، فاستطبت المقام في ظل دوحة خلقه الوارف، ألتقط ثمار علم مختلفة أفنانها، وأكرع من نعيم حياض فضل متنوعة طعومها وأوائها، فغرت حينها غصن المنى في تشریف نفسي بتسجيل مآثره، وتحليل ذكرى يحفظ عقد جواهره، ليتزين بها جبين التأريخ، ويلهج بها لسان الدهر، فولعت من حينها بالحرص على ملء أصداف مسامعي بشمين فرائد أخباره، واستهداء المقربين إليه لطائف آثاره، ومضت قافلة الزمن وأنا أتعلل من أخباره في الصدور والورود، بلطائف أرق من دموع الندى على خدود الورود، وكلما هزنتي الرغبة في هصر أغصان المنى، استشعرت العجز والونى، لقصور عقلي عن الفهم، وانعدام بضاعتي من العلم، وأيقنت بخيانة القلم، وخذلان التعبير، وأنا أسجل شمائل سماحته، وأفصح عن مآثره، وأعرب عن سماته، وأبين عن صفاته، وأظهر بعض محامده، ولكن جسرتني على اختراق جمي الكتابة، ما أولانيه - حفظه الله - من حيابة كنفتي، وعناية شملتني، وما تواتر علي من نعمه، وترادف

علي من مننه، وتتابع علي من آلائه، وتلاحق علي من نعمائه، فكان هذا الكتاب صغيراً في متنه، كبيراً في فحواه، عظيماً بما تناول من شخصيته المصطفاة، ليجدد الله به - في عصرنا - صرح الدين بعد اندثاره. وينتظم به عقده بعد انتشاره. وإني لأرفع أكف الضراعة لرب الأرياب، ومَنزَل الكتاب. أن يجعله خالصاً من جميع الشوائب، محفوظاً من عواصف النوائب إلى أن يقوم الناس لرب العالمين.

مراجعة المؤلف:

لقد اتضح لي نوعان من التربية لسماحته : الأول يتعلق بالتربية الفردية الخاصة بالفرد في ذاته ، والنوع الآخر التربية الجماعية وهي تربية الأمة في مجموعها بمنهجية متميزة عن تلك المنهجية في النوع الأول ، وقد تناول هذا الكتاب النوع الأول من التريتين.

يشتمل في أجزائه على مقدمة وستة فصول وخاتمة ، جعلت الفصل الأول يتحدث عن حياة الشيخ الخليلي ومؤلفاته ودوره الإصلاحية ، ولم أشأ أن أضيف إلى هذا الفصل مبحثاً عن عصر الشيخ ؛ فقد كفاني ذلك الجهد الكثير من الباحثين.

أما الفصل الثاني : فقد جعلته مدخلاً إلى الفكر التربوي ، ليكون تمهيداً لتصور بعض المعالم التربوية حال الحديث عنها في الفصول اللاحقة.

أما الفصل الثالث: فقد تناول أهم أنواع التربية وهي التربية الروحية ، وجاء الفصل الرابع متناولاً للتربية العقلية وجعلت الفصل الخامس متحدثاً عن التربية السلوكية ، التي هي الميدان الذي تتجسد فيه التريتان الروحية والعقلية ، بينما يتناول الفصل السادس تحليلاً مفصلاً عن نظرية الشيخ التربوية في ضوء أهم النظريات التربوية القديمة والمعاصرة ، وأنهيت الكتاب بخاتمة أودعتها خلاصة البحث .

لقد كان هذا الكتاب في أصله بحثاً أردت المشاركة به في ندوة تكريم الشيخ بعد مضي ثمانية عشر عاماً في تفسير سورة البقرة وحدها من القرآن الكريم ، وقد حاولت فيه جهدي - وأنا أبين بعض معالم الفكر التربوي - أن أقرن الفكر النظري لسماحته بما استطعت الوصول إليه من تجسيد في حياته العملية لهذا الفكر ، فتقترن النظرية بالتطبيق وليكون أدهى للتأثير وأعمق في التأثير ، وأيسر للفهم . وأوضح للفكرة ، وربما استطردت أحياناً في هذا المضمار ؛ لدفع السامة التي قد تخلفها ركة أسلوبية ، واضطراب تعابيري ، وأرجو أن لا تخلو تلك الاستطرادات من فائدة إن لم تخدم الهدف المقصود .

ولقد كابدت في اقتناص هذه التطبيقات المشاق ، وتجرّعت غصص الحرمان غير ما مرة ، وكم توشحت عصاي قاصداً فلاناً على أن أحظى من لدنه بأحد خفي حنين ولكن - للأسف - أعود عاصياً على أناملي ، وقارعاً سني بأظافري ، على أن هناك من كان يفوقني رغبة في إنجاز هذا البحث ، ويمد إليّ كلتا يديه - فلهم جميعاً جزيل شكري ، كما أن هناك من لم يتحفني القدر

بلقائهم البتة، ولو سعدت بالجلوس إليهم، لأغدقوا علي من فيض معارفهم التي ربما غيرت كثيراً من ملامح هذا الكتاب، وتحسن الإشارة هنا إلى أن أهل عمان جميعاً وغيرهم عرفوا الشيخ أباً وشيخاً، فمن شاء الكتابة عن حياته - حفظه الله - فإنه واجد ثروة عظيمة من المعلومات - إن لم يرضوا بها تواضعاً منهم - فسماحته يعيش بين الناس، ويلتقي به كل أحد - كما يتبين في ثنايا الكتاب - ولكنني لم أرد التوسع في الكتابة عن حياته؛ لأنَّ أصول البحث تقتضي وضع مختصر عن حياة المفكر، وقد اعتمدت أحياناً على ما شرفت به من مواقف مع سماحته، وربما أوقعني ذلك في بعض التكرار، والناظر المتأمل يجد تعليلاً مسوغاً لذلك التكرار، الذي لا تفارقه الفائدة، وأقلها التأكيد - كما يقول البلاغيون - ومع ذلك حاولت مستطاعي أن لا يكون التكرار باهتاً، مع حرصي على التقليل منه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، مدركاً تماماً أن القارئ قد لا يسعفه الحال على الاطلاع الكامل على الكتاب، بحيث يستقصى جميع جزئياته، وربما اغترف أحدهم من المنهل الذي يعلّهُ، واستمتع بالمبحث الذي يستهويه، وارتوى بالفصل الذي يتأصل غلته.

أما في الجانب النظري فقد حرصت - في زحمة متطلبات دراستي - أن أسمع الكثير من المحاضرات، فضلاً عما وقع في يدي من مؤلفات الشيخ، بيد أن ملاحظة ذلك لا يستطيعه فرد واحد؛ فحياة الشيخ جهاد مستمر لا يفتر، فهو - كما قيل - واحد كالألف، أو كما وصف أبو عبيدة التميمي بلج بن عقبة الأزدي في خطابه لطالب الحق: "بعثنا إليك اثني عشر رجلاً وألفاً" يعني بالألف بلج بن عقبة، ونتيجة لما يقوم به الشيخ من دور اجتماعي إصلاحية،

فإن الكثير من التوجيهات كانت تتكرر بسبب تعدد أماكن الإلقاء، لذا كنت أكتفي بمصدر واحد في التوثيق غالباً لتحقيق الهدف المراد منه. وحصرت البحث بتوقيت زمني لتجدد الفكر عادة. لقد طمحت أن يكون كتاباً يناغي الأرواح، ويهامس القلوب، مع الالتزام التام بقواعد البحث العلمي في التوثيق والمنهجية ومصادر المعلومات، وقد قصدت عدم التوسع في التحليل، أو عقد المقارنات، وبيان الأسس، فالكتاب قريب إلى التوصيف، إذ التحليل سيظيل البحث - في حال امتلاكه أدواته - ويخرج بنا عن الغرض من هذا الإصدار، ويؤثر سلباً على الهدف المراد، ولهذا سأترك ذلك لمن شاء أن يتم هذا العمل، ويسد خلله، ويرتق فتوقه، إذ كانت غاية همي في هذا الكتاب أن أجعله مرجعاً لي ولأمثالي من العوام، وأشبه العوام، نسترشد بما نستوحيه من مواقف الشيخ، ونستتير بما نستوعبه من توجيهاته في شؤون حياتنا، وربما كان أنيساً لنا في الوحدة، وسميراً لنا في الخلوة؛ فقد عدنا - والحق أولى أن يقال - أمثال هذه النماذج الإسلامية الحية في زمن كهذا، محبل بالشخصيات الزائفة، بل زمين تهاوت فيه النجوم، وتعكرت فيه الموارد، وأصبح الحليم فيه - كما قيل - حيراناً، فكان حفظه الله ذلك المجدد العدل الذي اصطفاه الله في القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجريين؛ لينفي زيغ المبطلين، ويرد تأويلات الجاهلين، ويدحض شبه المغرضين، ويبطل حجج المفترين، ويقشع أوهام الحاقدين، ويتألق في سماء المسلمين قدوة نقية تشع للسالكين، وترشد الضالين إلى صراط رب العالمين.

ومن المهم جدا الإشارة هنا إلى أن الشيخ - حفظه الله - حلقة مشعة في سلسلة علماء الإباضية الأوائل ، ودرّة تومض بفكرها في عقد أولئك العباهل ، جرى على مضمارهم في أصول المذهب وأسس الفكرية ، مجددا لصياغة الحلول الجذرية للمشكلات التي تفرزها الحياة العصرية ، فهو لحمه سوّية لأساس متين راسخ ، ولبنة قويّة لصرح مشيد شامخ.

هذا وكان الأولى بالكتابة في مثل هذا الموضوع من هو أقدر مني على إرساء قواعده ، على أسس راسخة من التقعيد والتنظيم ، وإعلاء صرحه في أفق التحليل السليم ، ولكن إرادة القدر نافذة لا محيص عنها ، وما لا يدرك جلّه لا يترك كلّه ، فأقحمت نفسي في لجة الترجمة له ، مع اعترافي بأنني لا أحسن العوم في تلك اللجج ، كما أعترف بركاكة تعبيري ، وضحالة فكري ، وتهايوي بناء عباراتي ، وافتقار معجمي إلى أبسط المفردات ، وأسهل التراكيب ، ولكّتي خفت أن تذهب جميع مواقف الشيخ أدراج النسيان ، وقد ذهب أكثرها ولم يبق إلا النزر اليسير منها ، فكم أولئك الذين صحبوه لا يذكرون من مواقفه شيئا كثيراً ، فقد لفتها الأيام في تيارها ، وانداحت في تلافيفها ، وبعضهم اختطفتهم يد القدر إلى الدار الآخرة ، والله المستعان .

وختاماً لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل شكري لكل من ساهم في إتمام هذا الكتاب ولو بمعلومة أو توجيه وإرشاد ، وأخصّ بالذكر الشيخ كهلان الخروصي ، وأخي العزيز الفاضل خليل بن أحمد الخليلي الذي وجدته رحب أفق الوعي ، راعياً للذمام ، يعجز قلبي عن تسجيل شكره كما هو حقيق

به، والأخ سلطان الشيباني الباحث الحثيث عن دقائق المعلومات الذي أسعفني بغرفة من بحره العذب الفرات، والصحفي المتميز عثمان بن عبدالله الزدجالي، الذي كان لتوجيهاته وعونه الأثر الكبير في إخراج الكتاب، والأخ عمير المعمرى الذي أسعفني بالكثير من صور سماحته، والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء الصراط.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

زايد بن سليمان الجهضمي

مسقط . شوال ١٤٢٤هـ / ديسمبر ٢٠٠٣م

الفصل الأول

حياة الشيخ أحمد الخليلي

حياة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي

لقد حبا الله سبحانه وتعالى بعض البقاع ببعض إكرامه، فجعل بعضها مباركاً وبعضها مقدساً، وقد خص الله تعالى عمان - كما يشهد الواقع التاريخي - بمزايا عديدة، فقد شهد زوارها بسمو خلق أهلها، وحسن معاملتهم، ودماثة طبعهم، ولما جاءهم مبعوث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما سيّبه ولا ضريبه ولا عتفوه، كما فعل غيرهم من العرب، بل آمنوا وصدقوا على بعد دارهم، ومنعة بلادهم - ولا يمتنع من الله أحد - وقد شكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعلهم، وذكر خلفاؤه من بعده صنيعهم، وحمدوا لهم اعتصامهم بعروة الإسلام الوثقى حين تززع كثير من الناس، وباركوا لهم ثباتهم على منهج الحق حين تزلزل كثير من العرب، وكانت مقولة أبي بكر الصديق فيهم مستشرفة لمستقبلهم الوضيء، حين قال: "ولست أخاف عليكم أن ترتدوا عن دينكم، بارك الله فيكم" فأجاب الله دعوته، كما أجاب دعوة خير الخلق أجمعين لهم من قبله، فبعد أن أجابوا داعي الله عن طيب أنفسهم، ثبتوا مستمسكين بجبل الله المتين، ونوره المبين، مطبقين أحكام الله، عاضين عليها بالنواجذ، يفتنون دينهم بأرواحهم ويكل غالٍ ولمين، واستمروا ثابتين على ذلك جيلاً بعد جيل، يحكمون كتاب الله فيما بينهم، لا فرق في ذلك بين قوي وضعيف، وحاكم ومحكوم. فسجل لهم التاريخ بحروفه النورانية سجلات مجد فريد، تسطع أنوار العدالة من صفحاته، وينفخ شذاً

الحياة الإسلامية الحقّة من بين سطورهِ، فحسدُهم خصومهم على هذه الهبات الربانية، والمكارم الإلهية، فكالوا لهم التهم، وهالوا عليهم الألقاب، وغمروهم بالأكاذيب والفرى، فلم يصدّم ذلك عن السير الحثيث في طريقهم الواضح، بل زادهم تضحية وفداءً، وجهاداً وبيلاءً، فاستمرت فيهم الإمامة الشرعية على منهاج النبوة زهاء ثلاثة عشر قرناً، لا تلبث حين تخفت حتى تتوهج، يتولاها علماء عاملون، ويتقلدها فطاحل مخلصون، ويمسك زمامها قادة ربانيون، مع ما يحيط بأولئك القادة من الشراة البائعين نفوسهم لذي الجلال والإكرام، جمعوا بين الزهد والتقوى والشجاعة، فهم رهبان الليل وفرسان النهار، ثبتوا على ما أبصروا من الهدى، فلما كان عهد الإمام التقي الورع الرضوي محمد بن عبد الله الخليلي الذي ولي الإمامة سنة ١٣٣٩هـ استمر يدير دفتها، إلى أن ناداه العلي الأعلى، فلبى نداءه في عام ١٣٧٣هـ، وما كان في عهد هذا الإمام أن جعل على ولاية "بهلا" الشيخ أبا زيد عبد الله بن محمد الريامي، المشهور بعلمه، وحسن إدارته، وقوة شخصيته، وكان من عساكره الشيخ محمد بن ناصر المرفجي، فرأى الأخير في منامه، كأن القمر نزل من السماء واستقر في محلة "الخضراء" من ولاية بهلا، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى ارتفع عنها، فقصّ رؤياه على الشيخ العالم أبي زيد الريامي، وكان مشهوراً بتأويل الرؤيا، فسأله عن وقت رؤيتها، فأخبره بأنه رآها عند منتصف الليل، فقال الشيخ أبو زيد: إنه سينزل بهذه المحلة عالم جليل، ولا يلبث فيها إلا قليلاً، فينتقل عنها، ولا أراني أدرك زمانه^(١) ولم تطل السنون حتى صدق هذا

(١) لقاء الشيخ خليل بن أحمد بالشيخ علي بن ناصر المرفجي.

التفسير، فقد عاد إليها سماحة الشيخ الخليلي - حفظه الله - من زنجبار عالماً جليلاً في شهر جمادى الثانية من عام ١٣٨٤ هـ. وبقي هناك عشرة أشهر، ثم انتقل عنها إلى مسقط ؛ ليؤدي واجبه العلمي، تلبية لدعوة السيد أحمد بن إبراهيم البوسعيدي، الذي كان يتولى النظر في الشؤون الداخلية في عمان في عهد السلطان سعيد بن تيمور. لقد كانت هذه الرؤيا مبشرة، بمقدم الشيخ أحمد الخليلي إلى عمان، كما هي مبشرة بفضل عميم من الله تعالى لأهل عمان، ومن هذه الرؤيا أنطلق في الحديث عن حياته، بدءاً بنسبه وأسرته.

نسبه وأسمائه:

هو الشيخ العلامة المجتهد أبو سليمان، بدر الدين أحمد بن حمد بن سليمان بن ناصر بن سالمين بن حميد الخليلي الخروصي، كان والده رجلاً فاضلاً من سكان محلة "الخضراء" بولاية بهلا، رحل إلى زنجبار في العاشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٤١ هـ وتزوج هناك وأنجب، وعاش فيها عيشة كفاح، كان رجلاً مفوهاً، طليق اللسان، حلو الكلام مؤثراً، وكان له أثر فاعل في الجمعية العربية بزنجبار، إذ كانوا يعتمدون على رأيه في تسيير أمورهم^(١) عاد إلى عمان بعد أحداث الانقلاب العسكري - كما سيأتي - بمشيئة الله. أما أم الشيخ أحمد - حفظها الله - فهي من قبيلة "البهلاني" ابنة حمود بن سالم البهلاني، من ولاية إزكي، امرأة صالحة نبهية، برز دورها في تربية أبنائها التربية الصالحة، وجاهدت مع زوجها صروف الدهر القاسية، وكان لها دور

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

كبير أيام الانقلاب حين أودع زوجها السجن ، واشتد القلق على حياته ، فقد كان الأفارقة آنذاك يقتلون العرب دون مبالاة ، فلم الله بها شمل الكثير من الأولاد من أبناء الأسر الأخرى من أقاربها ، حتى تجمّع في بيتها من الأطفال حوالي أربعين فرداً من مختلف الأعمار^(١) كانت تشملهم برعايتها ، يساعدها في ذلك ولدها الشيخ أحمد .

أما جدّه سليمان بن ناصر فقد كان قاضياً ورعاً شديداً في ذات الله تعالى ، يقارع أهل الظلم والفساد ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، وكانوا يجردون منه بأساً عظيماً ، وقد كبتهم الله عنه ، ويبدو أنهم كانوا - مع شدته عليهم وعدم مهادته لهم - يحترمونه ويجلّونه ، وقد قر في نفوسهم إكباره وتعظيمه ، فعندما وقع الطاعون ببهلا وقد بدأ بابنه وأخذ يحصد الناس ، جاءوا يهرعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيئات ، يترجونه أن يخرج بهم للصلاة ، عسى الله أن يرفع عنهم البلاء ، ويكشف الضراء ، فأجابهم - متعجباً - برباطة جأش وثبات جنان : كيف أخرج بكم لدفع البلاء وأنتم مصدر البلاء كله ؟ فظلمكم وجوركم هو سبب البلاء ، قالوا : إنا تائبون ، راجعون إلى الله ، فأجابهم : كيف تتوبون ؟ وهذه ضرائبكم أرهقت الناس وأثقلت كواهلهم ؟ وقد كان أولئك يأخذون من أصحاب الأموال "خمسين قرشاً" يسمونها "المودي" وقد صاح الناس منها ، فقالوا : نتوقف عنها ونعفي الناس منها ؛ فتوبهم وخرج إلى

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

المصلى وصلى بالناس ، ودعا وتضرع ؛ فرفع الله البلاء ، وكان الشيخ رحمه الله آخر من حصد الطاعون.^(١)

لقد كان الشيخ سليمان بن ناصر مرجعاً لأهل بهلا يحكمونه فيما شجر بينهم ، ويسلمون له ويرضون بحكمه ، ومما يذكر أن تخاصمت لديه قبيلتان ، فأوجب على إحداها اليمين ، وطلب منهم خمسين رجلاً ليقسموا ، فأقسموا ، وقد أصيب أولئك الخمسون جميعاً بعد قسمهم ، فمنهم من مات ، ومنهم من سقط عن راحلته ، والبقية أصيبوا إصابات مختلفة .

وفي ليل الظلم الذي عاشه - رحمه الله - فقد كان متفائلاً كثير التفاؤل ، يبشر الناس بانقشاع ليل الظلم ، وانبلاج الصبح عما قريب ، فكان ما كان من تولية الإمام سالم بن راشد الخروصي بعد وفاته بثلاث سنوات تقريباً.

ويذكر أنه كانت له مكتبة ضخمة ، تحوي كتباً متنوعة ، ذهبت جميعها . وينقل الشيخ الخليلي عن الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري وأخيه أحمد ، أن الشيخ سليمان ذهب يزور الشيخ ماجد بن خميس العبري في بلدة "الحمراء" فجاءه ، وكانت تربطه به علاقة حميمة ، وتوفي بعد تلك الزيارة بثلاثة أيام ، قال الشيخ ماجد : " كأنما جاء ليرني نفسه " وكان أول من لقي الشيخ سليمان في زيارته تلك أحمد بن سعيد العبري ، وكان بالمجلس ، فسأله هل تتعلم يا ولد ؟ قال نعم ، قال : أعرب هذا البيت^(٢) (وهو لابن الفارض) :

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن حمد الخليلي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن حمد الخليلي

كمثل هلال الشك لولا أنه أن عيني عنه لم تتأى

أما جده الأعلى الذي ينتسب إليه أبناء الخليل فهو الإمام الخليل بن شاذان الخروصي، بوع بالإمامة سنة ٤٤٥هـ إلى أن توفي سنة ٤٧٥هـ، قال عنه الإمام السالمي في تحفة الأعيان: "فسار بهم - أي أهل عمان - سيرة جميلة، ودفع عنهم الجباية، وأمنت بعدله البلاد واستراحت في ظله العباد، ودانت له الممالك، ووفدت إليه الوفود، لظهور العدل وانتشار الفضل"^(١) ولا عجب في ذلك فالإمام الخليل رحمه الله، من سلالة الإمام الصلت بن مالك الخروصي، الذي بوع بالإمامة في شهر ربيع الآخر سنة ٢٣٧هـ إلى ذي الحجة سنة ٢٧٢هـ، وهو الذي حرر جزيرة سقطرى^(٢) من النصارى بعد أن نكثوا عهدهم، وكتب لقائديه محمد بن عشيرة وسعيد بن شمالال ذلك العهد الرائع الذي يعد وثيقة إسلامية تمثل نقاء السيرة، ونزاهة الإسلام وسمو قدره ومثاليته في التعامل مع الأعداء.. وهكذا اصطفى الله تعالى شيخنا من نبعة طابت مغارسها، وانتقاء من معدن كرمت علاقته، واختاره من محتد راعت محامده، وهكذا شأن من تصنعهم يد القدر للتغيير والتجديد، والنهوض بأعباء الأمة.

تقدم الشيخ وهو بزنجبار لخطبة زوجته الأولى أم سليمان ابنة صالح بن محسن بن سليمان بن مؤمن بن ناصر بن خميس بن سليمان الحارثي، من أفراد أسرة اشتهرت باعتنائها بالعلم، وأصلهم من سمد الشأن، ولم يتيسر له العقد هناك بسبب أحداث الانقلاب العسكري وما جرّه من آثار سيئة، قرر على إثرها

(١) تحفة الأعيان، الشيخ السالمي ٢٩٥/١

(٢) جزيرة تقع في بحر العرب قبالة الساحل اليمني، تبعد عن الساحل حوالي ٤٢٥ كم

هو وأهله الرحيل إلى عمان - كما سيأتي بيانه لاحقاً - وهكذا شأن الأحرار لا يحتملون الضيم ، ومن توفيق الله أن جاءت أسرة من تقدم إليهم بالخطبة ، في السفينة نفسها ، ويعد أيام قليلة من وصولهم أعادت أسرة الشيخ الخطبة ، فتم العقد بعون الله وتوفيقه في شهر رجب من عام ١٣٨٤ هـ ، وقد دفع لها قروشاً يسيرة ، فأقلهن مهراً أكثرهن بركة ، وبنى على أهله بتيسير الله في شهر شعبان من السنة نفسها ، ورزقه الله منها ابنين وبنتين ، توفي الابن الأكبر (خليل) وهو طفل صغير ، وأمد الله في عمر سليمان وأختيه ، وقد انتقلت الأم إلى جوار ربها في شهر رمضان سنة ١٣٩٢ هـ وقد رآها الشيخ بعد ذلك في منامه تلبس ثوباً أخضر سابغاً ، وتحمل طفلاً صغيراً في حضنها ، رحمها الله رحمة واسعة ، وكان سماحته في سنة ١٩٩٠ هـ - أي قبل وفاة زوجته الأولى بستين على وجه التقريب - قد بنى على زوجته الحالية وهي ابنة الشيخ الأديب المشهور عبد الله ابن علي بن عبدالله بن العلامة المحقق سعيد بن خلفان الخليلي وقد دفع لها مهراً يسيراً لم يستطع - حفظه الله - يومذاك دفعه مرة واحدة ، وقد رزقه الله منها بنين وبنات ، أما البنون فهم خليل وأفلح وعبد الرحمن ومحمد وعبدالله وعمر ، ويصبح مجموع أبنائه الأحياء من الذكور سبعة ومن الإناث ست ، وكلهم بفضل الله ذوي صلاح ونباهة ، ومن يشابهه أبه فما ظلم ، وكما يقول زهير بن أبي سلمى :

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل .

للشيخ حفظه الله أخ يصغره سنناً بخمسة عشر عاماً ، وهو حمود بن حمد ، وهو معروف بشجاعته وجراته . ولم يدرك الشيخ أحداً من أعمامه سوى

عم واحد، وهو أخ لوالده من أمه، واسمه ناصر بن سالم العدوي، وقد كان رجلاً فاضلاً، أدركه الشيخ قبل وفاته بقليل، وأدرك من أخواله سعيد بن خلفان البهلاني، وهو أخ لوالدته من جهة أمها، كما أدرك من أخواله الأشقاء لوالدته محمداً وعلياً وسيفاً وسليماناً وناصرأ.

مولده :

بعد أن ترسّخ الوجود العماني في زنجبار، وتوالت الرحلات العمانية إليها، رحل والد الشيخ إلى زنجبار مع العديد من العمانيين، في العاشر من شهر ربيع الأول عام ١٣٤١هـ، واستقر به المقام هناك مع أسرته، وفيها وهبه الله تعالى المولود الأول الذي سمّاه أحمد، في الساعة الثامنة من صباح يوم الثاني عشر من شهر رجب عام ١٣٦١هـ الموافق له السابع والعشرون من شهر يوليو من عام ١٩٤٢م، سمّاه أبوه بهذا الاسم وهو في بطن أمه، قال: لئن رزقني الله ولداً فأسميه أحمد، فلما ولد الطفل قال جده من أمه حمود بن سالم البهلاني: نسميه سعود بن حمد فقال والده: لقد سمّيته وهو في بطن أمه بأحمد، ولو لم أسمّه من قبل لأسميته سعوداً، واتفق الحال على تسميته بأحمد^(١) فجمع الله له السعادة والحمد في الدنيا، والله نسأل أن يضيفها عليه وعلينا في الآخرة.

(١) لقاء مع والدة الشيخ أحمد الخليلي

حياته :

يمكن تقسيم الحديث عن حياة الشيخ إلى مرحلتين :

المرحلة الأولى : الحياة الإفريقية.

المرحلة الثانية : الحياة العمانية.

الحياة الإفريقية :

بقيت متردداً مدة من الزمن في اختيار منهجية كتابة النشأة في مراحلها المتطورة ، بين أن أتبع الحوادث على مدار السنين ، أو أنني أقسم النشأة إلى مرحلتين : أفريقية وعمانية ، مع الفارق الزمني في كليهما ، وقد رجّحت الآخر ، ثم رأيت مع ذلك أن أقسم النشأة الأفريقية قسمين : إلى ما قبل الخامسة عشرة ، وما بعدها ، ومن غريب القدر أن يفتح الشيخ عينيه على الوجود مع مستهل الحرب العالمية الثانية ، ثم يبلغ سن الخامسة عشرة مع العدوان الثلاثي على مصر ، ويرحل عن مسقط رأسه في سن الثالثة والعشرين بفعل الانقلاب العسكري في زنجبار . تلك الصعاب والشدائد التي اكتفت مراحل حياته صنعت منه رجلاً وأي رجل ، وما لا يفوتني التنبية عليه ، أن هذا التقسيم يحاول قدر الإمكان السعي إلى تحقيق قدر كبير من الضبط للحوادث في مراحل الحياة في أطوارها المتعددة ، وما لا يفوت الدارس أن كثيراً من المهام التي يقوم بها الشيخ كانت مستمرة في المرحلتين ، فذكرها في المرحلة الأولى يعني بدايتها ، ولا يعني حصرها في تلك المرحلة بأي حال .

وقد اخترت سن الخامسة عشرة بسبب انتقال الشيخ فيها إلى طور البروز في الإصلاح الاجتماعي ، والإفصاح عن مكنون فكره ، ومسار توجهه ، متخذاً من حادثة إلقاء الخطبة أمام رئيس الجمعية العربية فاصلاً بين المرحلتين.

حياة الطفولة حتى سن الخامسة عشرة

أود قبل الحديث عن نشأة الشيخ الخاصة أن أعرِّج على الوسط الذي ترعرع فيه سماحته ، وأعني بذلك المحيط الاجتماعي المتمثل في جزيرة زنجبار خاصة ، والوسط الأسري الذي كان يكتنف سماحته ، ويقضي فيه أكثر وقته ، أما زنجبار فهي جزيرة واقعة في المحيط الهندي تابعة لتنزانيا ، تقع بين جزيرة بمبة ودار السلام ، يقول المغيري عنها إنها تبعد عن الساحل بمقدار خمسة وعشرين ميلاً ، وهي جزيرة غنّاء كثيرة المياه من الأنهار والعيون ، ونترك للمغيري الحديث في وصفها ، قال : " إن البقاع الخصبة بزنجبار معمورة ذات أشجار مشمرة ، وأزهار باسمة يزاحم بعضها بعضاً في اقتسامها منافع النور والهواء ، غنية بالفواكه ، مملوءة بالخيرات . وبها أشجار القرنفل والنارجيل والبرتقال^(١) ثم قال : " والحقيقة ، جديرة أن تسمى زنجبار "بستان أفريقيا الشرقية" ، لجمال منظر أريافها ، التي هي محاطة بشجر القرنفل والنارجيل والبرتقال ، تمتد بساحة أرضها الطرق الواسعة المضروبة بالأحجار والقار ،

(١) جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار ، سعيد بن علي المغيري ، وزارة التراث القومي بسلطنة

فيرى المتجول في أريافها كأنه يتنزه في بستان جميل المنظر، تتدفق المياه العذبة في جميع أرجائه" (١)

تلك طبيعة زنجبار في إطارها العام أما من حيث الحياة الداخلية فإن " أهل زنجبار كانوا جميعاً مسلمين وهم أهلها الأصليون ، وفئة قليلة وفدت إليها من غير المسلمين من أماكن أخرى من أفريقيا ، ثم أقاموا في زنجبار ، أما أهل زنجبار الذين هم من أصول زنجبارية فهم مسلمون كلهم" (٢) ويوجد بين الأهالي طبقة ثرية وطبقة كادحة ، تعمل باجتهاد في كسب لقمة العيش وحفظ الكرامة . أما الأعمال الشخصية (غير الرسمية) بزنجبار فهي مهياة للجميع ، فلإنسان الفرصة بأن يزرع شتى الأنواع الزراعية ويحصد ، وبإمكانه الانتفاع بالأشجار الباسقة كوجوز الهند والقرنفل ويتجر بذلك ، وهناك فئة للصوص وهم الكسالى الذين لا يحبون العمل ، وكثيراً ما يكون استنزاف دخل هؤلاء في شرب الخمر ، بسبب ذلك كانوا يلجأون إلى السرقة والاحتيال (٣) وما يحمد عليه أهل زنجبار ويشكرون عليه ما يتمثل في أوساطهم من مبدأ التكافل الاجتماعي ، الذي يتجلى في صور عديدة ، من ذلك أن صاحب الأرض - وزنجبار ذات أراض واسعة وضياع كثيرة - لا ينتفع من أرضه إلا بالأشجار الباسقة كالنارجيل والقرنفل وشجر البن وأمثال هذه الأشجار ، ويبيح لعامة الناس استغلال أرضه في زراعة الخضار والمواد الغذائية التي يعتمد عليها الناس ، يزرعونها تحت تلك الأشجار دون مقابل ، ولا يمانعهم من ذلك

(١) جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، ص ٧٦

(٢) لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد الخليلي

(٣) السابق

مطلقاً، ومن صور ذلك أن يبني الإنسان بيتاً في أرض غيره، وقد يسمح صاحب الأرض بقطع بعض الأشجار - دون مقابل - لأجل بناء ذلك البيت ، ومما يحمدون عليه اشتراكهم إذا مات ميت من أي طبقة كانت ، فالكل يشترك في تشييع جثمانه وفي حضور عزائه ، من غير أن يكون التفات إلى لون أو إلى أي شيء ، وقد تكون هناك إعانة من بعض الناس لهم ، وهذا التعاون الأسري ، وإطعام اليتامى يكون بينهم كل بحسب استطاعته ^(١) .

تعتمد جزيرة زنجبار كثيراً على ما يأتيها من بلاد الهند ، ومن بلاد أخرى ، وكانت بطبيعة الحال يومئذ لا تمخر عباب البحر إلا بمحذر شديد ؛ بسبب ترئص الطوائف المتحاربة ، فكل طائفة منها تتربص بالطائفة الأخرى ، وهذا الذي جعل الناس في ذلك الوقت يعيشون في شيء من ضنك العيش ، إلا أنهم كانوا يعتمدون على الزراعة ، فالبلاد بلاد خصبة ولكن المزارعين ما كانوا موجّهين ، لذلك كانت جهودهم جهوداً فردية ، فكانت هذه الجهود مبعثرة لا تنظم في نظام معين ، ومن أجل ذلك ما كان الإنتاج حسب المستوى المطلوب

في ريف زنجبار ومحلة " مفينيسي " بالتحديد والعرب يسمونها " الفنسا " ولد الشيخ - حفظه الله - ونشأ في كنف أبوين مسلمين ، كانا يرعياه بحنانهما رغم الصعوبة والشدة التي كانا يعانيناها في ذلك الوقت ، فقد كان والد الشيخ يعتنى بالتجارة حيث خصص لها قسماً من بيته ، وكانت البضاعة تأتي من العاصمة ، كما كانت لديهم بعض الماشية التي يعنون

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد الخليلي



صورة للمكان الذي ولد فيه الشيخ الخليلي بزنجبار مع أسرته وقد بحيث آثاره الآن بتربيتها أيضا ، ويقوم والد الشيخ ببعض المعاملات التجارية ، بشراء لمر القرنفل على شجره ، ثم يقوم بحصاده وبيعه بحثاً عن الربح ، ولربما هبت رياح أمله بغير ما يشتهي ؛ فينقلب الربح إلى خسارة فادحة ؛ لتقلب سعر القرنفل ، كما كان لديهم بعض المزروعات التي يعتمدون عليها في تغذيتهم وهي بحاجة إلى عناية ورعاية ، وفي هذا الوسط نشأ الشيخ وبقي وحيد أبويه إلى سن الخامسة عشرة .

لقد تربي الشيخ تحفه عناية الله تعالى في كل طور من أطوار حياته ، التي يبدو أنها منذ بدايتها لم تكن كحياة سائر الأطفال ، لقد كانت سمات تميزها منطبعة في سائر الحوادث التي كان يمر بها الشيخ في جميع المراحل ، فمنذ صغره لم يكن ميالاً إلى اللعب وتضييع الأوقات في مالا يجدي ، ولا يعود عليه أو على أسرته بفائدة ، لم يكن يلعب خارج البيت مطلقاً ، أو مع غير محارمه ،

وكان أبوه يوجهه إلى ذلك حرصاً عليه من التأثير بأخلاقيات غير حميدة من أبناء الأسر التي لم تتقيد بأوامر الشريعة في حياتها ، لذا كان يلعب مع أخته من الرضاعة ، أو بعض أقاربه من أترابه ، يقول سماحة الشيخ واصفاً تلك المرحلة : " هؤلاء الأتراب منهم من كان يكبرني شيئاً قليلاً وهو أحد أخوالي ، ومنهم من كان أصغر مني بعام واحد وهو خال لي ، وكانت لي خالة أصغر مني بعام واحد ، وكانت تربطني بهم علاقة الطفولة ، وفي أيام الطفولة كنت غالباً لا أبرح البيت إلى مكان آخر ، اللهم إلا عندما يأتي بعض الأتراب عندي يلعبون هناك ، وذلك لأجل محافظة والدي عليّ ؛ ثلثا أختلط بالصبيان الذين تعودوا على أمور منكرة هناك ؛ لأن المجتمع من حولنا كان يضم عدداً من الناس الذين لا يخشون الله ولا يتقونه ، وكان الكثير منهم يشربون الخمر علانية ، وكثير منهم لصوص لا يبالون بالسرقة علانية ؛ فثلاثا أختلط بأولاد هؤلاء كان والدي يصونني في البيت ، إلا إذا جاء الخواص من الآخرين ، وهناك تلعب في البيت " (١)

مع هذه التربية ورعاية الله له نشأ بعقل أكبر من سنه الذي هو فيه ، ومن ذلك ما تحكيه والدته عنه في يوم وفاة جده لأمه ، حين كان الشيخ ابن ثلاث سنوات وستة أشهر أخذ يناديها : أمي تعالي ، إنني أريدك ، فأجابته : تعال إلي ، فقال : لا أستطيع ؛ فهناك نساء ، كيف أدخل بينهن؟
في سن الرابعة تقريباً اصططحته أمه معها مرة لحضور احتفال بمناسبة المولد النبوي الشريف ، وما أن وصلا إلى المكان المخصص للاحتفال تحت

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد الخليلي

الأشجار ، بحيث يكون الرجال في ناحية والنساء في ناحية ، حتى خطرت لطفلها الموهوب مسألة مهمة ، ترى هل استأذنت والدته زوجها للخروج إلى هذا الاحتفال ؟ ولذا بادرها بالسؤال عن ذلك ، فأجابته : بأن والده في مكان بعيد ، ولم يتهياً لها إخباره ، وهو بلا شك لا يمانعها لو كان موجوداً ، فما كان منه إلا أن انخرط في بكاء مر ، لم تستطع معه أمه البقاء فعادت به إلى البيت ، وهناك هدأت نفسه ، وارتاح ضميره ، وعادت إليه بشاشته.^(١)

ومنذ نعومة أظفاره كان يحمل هم مساعدة والديه مهما لقي في ذلك من الشدة والمتاعب ، تقول أمه : " في سن الرابعة من عمره صنع له أبوه على هيئة سيارة ، يجمع فيها قشور لمر جوز الهند الملقى ، ويحمله إلى البيت ؛ لتستخدمه والدته وقوداً في الطبخ ، وبعيد ذلك كان الوالدان يأمرانه بأداء الكثير من المهمات الصعبة على من كان في عمره ، وكان يؤديها بإتقان ، ويبادر إليها من تلقاء نفسه مهما كلفه الأمر ، وتحكي والدته أيضاً أنه في سن الرابعة تقريباً ذهب ليقطف زيتوناً ، فاتكأ على شي من سعف جوز الهند ، فخانته الشجرة ، فسقط على الأرض فانكسرت يده ؛ فجاء محمد بن سعيد ليجبر ذلك الكسر ، فعافاه الله منه ، ومرة ذهب في بعض المهام وكان يركب دابة قوية ، فما كان من تلك الدابة إلا الدخول به في وسط الأشجار المتتفة ، فأذته غصونها وربما سقط عنها^(٢) ، ولكن هذا الطفل ما كانت همته لتخور ، وما كان لعزيمته أن تخمد ، وما كان ليستسلم لهذه الشدائد ، بل كان يصارعها ويعاركها بهمة الكبار .

(١) لقاء مع والدته الشيخ أحمد الخليلي

(٢) لقاء مع والدته الشيخ أحمد الخليلي

بعيد هذا العمر أخذ يتعلم الحساب والقراءة ، ثم قراءة القرآن على يدي والديه ، يقول سماحته : " واذكر عندما بدأت أتعلم القرآن الكريم كنت عند أمي أحسب الأرقام من واحد إلى مائة ، فقالت لي : استعد لأن تتعلم ، وبدأت تعلمني الحروف الهجائية وكيفية دخول الأشكال عليها ، ثم انتقلت إلى سورة الفاتحة " (١)

وفي سن السادسة كان الشيخ يتقن قراءة القرآن وغيره ، وبدأ يطلع على بعض الكتب الموجودة في البيت ، وشرع عندها في حفظ القرآن الكريم ، بأخبرني الشيخ سليمان بن سيف الخليلي قال : كان الشيخ أحمد في هذا العمر يقرأ كتباً كثيرة ويخرج لنا أوراقاً مسوَّدة ينقل فيها من الكتب ، فيغضب عليه أبوه ؛ فيقول له : هذه الأوراق بها كلام الله ، ماذا نصنع بها الآن؟ ويحكى عنه خاله سيف بن حمود البهلاني قال كنت أزورهم في بيتهم يوم كان صغيراً ، فلا أذكر أنني دخلت البيت إلا وجدت الشيخ يقرأ ، وعندما يكون في الدكان (المحل التجاري) ليحل محلّ والده كان لا يفارق الكتاب يده إلا في حالة البيع فقط (٢) وكان في هذا العمر يتقن اللغتين العربية والسواحلية (٣) وفي هذا العمر كان يحضر دروس الشيخ أبي إسحاق أطفيش العامة بزنجبار إبان زيارته لها ، ولكن الشيخ لا يذكر الآن مواضيعها بالتحديد ، وكان - حفظه الله - شغوفاً بطلب العلم لا يجد فرصة مهما كان قصرها إلا يستغلها في القراءة ، وفي سن السابعة كان يؤذن للصلاة في المسجد ، ويصلي أبوه بالناس إماماً .

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ الخليلي

(٢) لقاء المؤلف مع الشيخ سليمان بن سيف الخليلي الذي كان يعيش مع الشيخ أحمد في صغره.

(٣) لقاء المؤلف مع الوالد سيف بن حمود البهلاني.

وفي سن التاسعة من عمره كان قد أنهى حفظ كتاب الله تعالى عن ظهر قلب^(١) وانفلت بجانب مشاغل الحياة الأخرى إلى مطالعة كتب العلم، والتردد على مشايخ زنجبار من العلماء يشرحون له ما أشكل عليه من المسائل، وتعشق الطلب حتى خالط لحمه ودمه، فكان يخرج بعد صلاة الفجر يدرس ساعتين ثم يعود إلى المنزل لمساعدة والده في أعماله، وإذا جاء الليل ونام الخليون هجر الشيخ فراشه وانكب على مطالعة الكتب، يقول الشيخ سليمان بن سيف الخليلي الذي صحب الشيخ في هذه المرحلة: كان الشيخ يسهر في القراءة سهراً طويلاً وهو صغير السن، حتى يشفق عليه والداه؛ فينصحانه بتقليل مدة السهر، وأخذ قسط من الراحة، فيأبى عليهما ذلك، فيغضبان عليه لكثرة سهره، خصوصاً والده الذي كان يتعهد في الليل فيجده - أحياناً - منكباً على وجهه في الكتاب وهو نائم من شدة الإرهاق والتعب وطول السهر،^(٢) وسيأتي وصف شيء من ذلك في باب تعلمه - إن شاء الله -

ونتيجة لطموحه المتوقع كان يأمل الرحيل إلى عمان لأجل تلقي العلم على يدي الإمام محمد بن عبدالله الخليلي، والاعتراف من بحر علمه، وتذكر والدته أنه من شدة تعلقه بالعلم بكى الشيخ بكاء حاراً عندما توفي الإمام الخليلي - رحمه الله - وعندما سأله والده عن بكائه أجاب: لقد توفي الإمام الخليلي - رحمه الله - فمن سيعلمني بعده؟^(٣)

(١) لقاء مع والدة الشيخ أحمد الخليلي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

(٣) لقاء مع والدة الشيخ أحمد الخليلي

في عام ١٣٧١ هـ - وكان عمر الشيخ آنذاك عشر سنوات - تم إنشاء المعهد الإسلامي بزنجبار ، وحيء له بشيخ أزهرى ، هو الشيخ محمد محمد الدهان ، وقد تاقَت نفس الشيخ إلى دخول هذا المعهد ، ولكن الظروف الاقتصادية لوالده حالت بينه وبين شدِّ الرِّحال إليه ؛ فالشيخ من سكَان الرِّيف ، والمعهد في المدينة ، وبسبب ذلك عوّل الشيخ على نفسه في طلب العلم ، ولترك للشيخ فسحة من القول يحدِّثنا عن معاناته الشديدة التي حالت بينه وبين التفرغ لطلب العلم في تلك المرحلة الذهبية من عمره ، يقول : " كانت هناك معاناة ، فأنا كنت أمارس التجارة وأمارس الرعي ، وبجانب ذلك مارست الزراعة أيضاً ، وأنا في مرحلة مبكرة ، فكنت أزرع حول البيت بعض الأشياء التي تساعدنا على الغذاء ، من بينها



البئر التي كانت في بيت الشيخ الخليلي بزنجبار وقد ساهم في ترميمها بعد انهيارها في إحدى زيارته

الموز والجزر وبعض الخضار ، نزرعها حول البيت ونعتني بها ، وفي هذه الفترة كنا في البيت أنا والدي وأمي فقط ، وكان ابن عمي عندما يأتي من عمان يقيم عندنا فترة ، بينما كنت وحدي غالباً ، فالجوما كان يشجع الإنسان على الدراسة ^(١) ويتحدث سماحته عن الظروف الحائلة بينه وذيين دخول المعهد الإسلامي قائلًا: " وقد حُرمتُ من دخول هذا المعهد ؛ لأنني كنت في الريف ، وعندما نشأت في الريف كانت الظروف الاقتصادية في ذلك صعبة للغاية بالنسبة إلى والدي ، لأنه في الأيام الأخيرة توالى عليه محن متعددة ، فقد حاول أن يعمل في القرنفل ، والقرنفل كما كان يُسمّى بزنجبار " شجرة الذهب " وكان والدي أحياناً يشتري غلة ضيعة من الضياع ويحصدتها ويبيعها ، بارتفاع سعره وانخفاض سعره ؛ فإما أن يغني القرنفل صاحبه وإما أن يفقره ، فاشترى والدي غلة بعض الضياع ، وكان سعر مئة الرطل عندما اشترى هذه الغلة حوالي ٨٤٠ شلنج - العملة المتداولة في زنجبار - وفي أثناء الحصاد أخذ السعر ينحدر شيئاً فشيئاً إلى أن وصل السعر ١٤٠ شلنج ، وكان ذلك سبباً لخسارته ، ثم تابعت ظروف صعبة بالنسبة إليه ^(٢) فلذلك لم أتمكن من الدراسة في المعهد الإسلامي ، وإنما بقيت أعاني هذه الظروف الصعبة ، واشتغلت بالتجارة لمدة عشر سنوات ، كنت أبقى في الدكان نيابة عن والدي الذي كان يذهب في

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد الخليلي

(٢) أخبرني الشيخ سليمان بن سيف الخليلي بأن منزل الشيخ أحمد في "مقاديبي" بزنجبار أحرقة الأفارقة بالكامل وبدأ والد الشيخ حياته من جديد .

أعماله ، ولدنا أغنام في البيت كنت أشرف عليها ، وأذهب بها إلى المرعى وأردها" (١)

هكذا قضى الشيخ تلك المرحلة من عمره ، وبسبب ما كان يتفاعل في نفسه من حب العلم وكبح الظروف القاهرة في سبيله ، كان منه ذلك الموقف النبيل وهو في سن الخامسة عشرة من عمره أمام رئيس الجمعية العربية بزنجبار ، فقد طالبه بإنشاء المعاهد الشرعية خصوصاً في الأرياف ، وسأجعل هذه الحادثة بداية لمرحلة جديدة في حياة الشيخ الخليلي . حفظه الله تعالى .

ب. من الخامسة عشرة حتى الثالثة والعشرين

لقد حددت هذه المرحلة من عمر الشيخ هذا التحديد لتجانسها ، وهذه المرحلة قضاها الشيخ بزنجبار قبل رحيله النهائي عنها إلى وطنه الأصلي ووطن آبائه ، عُمان ، وكان ذلك في عام ١٣٨٤ هـ والشيخ آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره .

يتصدر هذه المرحلة موقف مهم أشرت إليه سابقاً ، وهو وقوف الشيخ في مستهل هذه المرحلة خطياً في جمع غفير من الناس ، وكان الدافع إلى ذلك ما يعتلج في نفس الشيخ من الطموح الكبير المتزايد في طلب العلم ، الذي يبصره منابعه جافة أمام ناظره ، ولا من منهل يشفي غلته ويروي ظمأه ، فحفزه ذلك إلى أن يهتبل الفرصة السالحة التي عرضت له في هذا السن ؛ فاقتنصها ، ففي اليوم السابع من ربيع الثاني عام ١٣٧٦ هـ أقيمت حفلة عرس عند أحد

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد الخليلي

العرب الكرماء حضرها عدد كبير من الناس ينيف على خمسمائة رجل ، ومن بينهم الشيخ الوقور عبدالله بن سليمان الحارثي رئيس الجمعية العربية والجالية العربية بزنجبار ، فلما سمع الشيخ بذلك حدثه نفسه المشرّبة إلى الرقي بواقعها إلى أن يعدّ كلمة يتحدث فيها عن مزية العلم والعلماء ، وأن حياة الأمة الإسلامية لا تقوم إلا على التفقه في دين الله تعالى ، كما يتحدث فيها عن ضرورة نشر العلم وأهمية إنشاء المدارس العربية والمعاهد الشرعية ، التي تُعنى بتدريس الناس أمور دينهم ، ويطلبه فيها بإنشاء مثل هذه المدارس في الريف أيضا ؛ لأن أبناء الريف قد لا تواتيهم ظروفهم للرحيل إلى المدينة ، ويطلبه بأن يتيح لطلبة العلم فرصة الطلب على أيدي بعض المشايخ الموجودين في زنجبار ؛ للاستفادة من علومهم ، وأن يعقدوا الدروس للمستفيدين من أبناء البلدة^(١) .

أعدّ الشيخ هذه الكلمة وكانت كلمة طويلة ، لكنّه حفظها عن ظهر قلب ، ولما كان الحفل واجتمع ذلك الحشد ، قام الشيخ فيهم خطيباً ، برباطة جأش وسكون نفس ، وفصاحة من القول ، فأعجب به الشيخ عبدالله الحارثي ، وسرّ سروراً بالغاً ، وبعد انتهاء الحفل وإلقاء الشيخ كلمته كان بصحبته الشيخ عبدالله بن حمد الحارثي ، فمرا على رجل يدعى سالم بن حميد الرحبي ، فلما سلّم سماحته عليه قال للشيخ الخليلي : " من أباك ... " فأكمل الشيخ عبدالله بن حمد الحارثي الجملة على الفور بقوله : " أن أباك

(١) من لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد بن حمد الخليلي

ذئب" ^(١) فذكرنا الشيخ بأبائه الأماجد الذين سار على منهجهم ، وأعطى صورة رائعة عن مكانتهم ، على الرغم من حداثة سنّه ^(٢) ومن مظاهر سرور الشيخ عبدالله بن سليمان وتفاعله مع هذه المقترحات المطروحة أنه حاول تنفيذ بعض منها ، ولكن تصارع الأحزاب السياسية آنذاك حال بينه وبين تنفيذ ما يريد .

هذا الموقف يعكس ما انطوت عليه نفس الشيخ من طموح ، وما حوته من تعشق لطلب العلم ، وما تضمنه من إحساس بالأمم الأمة ونظر في مصالحها وآمالها ، وسعي إلى الرقي بها في مدارج المجد والكمال ، فضلاً عما تفصح عنه من ملكات ، وتكشف عنه من مواهب .

إن مما يميز هذه المرحلة من حياة الشيخ شغفه الكبير بطلب العلم ولم يكن ليطلبه إلا ليعمل به وببلغه ، ويصح بنوره المفاهيم ، وذلك واضح مما تحكيه عنه والدته ، فقد كان ورعاً شديد الورع في هذه المرحلة وقبلها ، فهناك من المواقف ما يشهد على ذلك دون أن يكون هناك تحديد دقيق لزمن حدوثها ، فمن ذلك ما حدثت به أمه قالت : " كان لنا ثور ، وحدث مرة أن أكل ذلك الثور ربما شيئاً من المهوجو أو الفندال (نوعان من الأشجار التي تثمر تحت الأرض) وأخذ الشيخ يحوقل ويسترجع لما صنع الثور حين كان يتعهده ، فما

(١) لهذا المثل " من أنباك أن أباك ذئب " مناسبة تروى ، يقال أن أعرابياً راعياً وجد في الصحراء ذئباً وليداً تركته أمه ، فحمله ليربى مع خرافه ، فتربى مع حَمَلٍ صغير كانت ولدته أمه حديثاً ، حتى إذا ترعرع الاثنان افترس الذئب أخاه الحمل ، فعاد بذلك إلى طباع آبائه الذئب ، وإن لم يكن قد تربى في أحضانها ، ولا تعلم شيئاً من طباعها . فلما جاء الراعي ورأى الذئب قد افترس الحمل ، قال له متعجباً مستغرباً : " من أنباك أن أباك ذئب ؟ ! "

(٢) من لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن أحمد الخليلي

كان منه بعد ذلك إلا أن جمع مبلغاً من النقود وذهب ليدفعه إلى صاحب ذلك المال، ولكنه أعفاه ولم يقبل منه. ^(١) وكان يعفّ عن مشاركة أحد في قطف ثمر من أي شجر كان، كتلك التي تكون غير مملوكة لأحد، كأشجار الزيتون التي تنبت من تلقاء نفسها في زنجبار، وذلك منه تنزهاً وورعاً ^(٢) وكان يعترض على والده في بعض المعلومات التي يطرحها، كالحوادث التاريخية مثلاً ونحوها، فربما يفضب والده عليه، ولكن الشيخ أحمد ما يزال يتلطف بوالده ويناقشه ويعتذر إليه. إن بدت له ملامح غضبه - حتى يقنعه تماماً بوجهة نظره ^(٣)

من الحوادث المهمة في حياة الشيخ بزنجبار التقاؤه بالشيخ أبي إسحاق أطفيس، وتلقيه العلم عنه، كما سيأتي بيانه لاحقاً. وحيداً هنا أن أتحدث عن التكوين العلمي لسماحته لتتضح بعض ملامح مكانته العلمية التي بناها بعصاميته، وشيدها، وأعلى صرحها.

لقد سبق الحديث أن الشيخ بدأ يتعلم القراءة والحساب وتلاوة القرآن على يد والديه، ثم بدأ يعتمد على نفسه في القراءة، ويتردد على شيوخ زنجبار فيما أشكل عليه، فهو عصامي في تلقيه العلم، حتى برع فيه وترسّخ، ويمكن تكملة المسيرة العلمية لسماحته من خلال لقاءات عدة في النسق التالي:

بعد تعلمه القراءة والكتابة على يد والديه كان يقرأ في الكتب المتوافرة لديه في البيت، وكان يبحث عن يروي ظمأه، ويشفي غلته من التعطش

(١) لقاء مع والدة الشيخ أحمد الخليلي

(٢) لقاء المؤلف مع الشيخ سليمان بن سيف الخليلي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

لطلب العلم، ولا يجد إلا التواضع من أهل العلم، والرغبة عن الجلوس للتعلم، ومن شواهد ذلك ما يحكيه الشيخ الخليلي عن الشيخ أحمد بن حمدون الذي كان مفتياً للإباضية بزنجبار، وكان الشيخ يتردد عليه يطلب فتح هذا الباب وهو مصّر على إغلاقه، يقول الشيخ الخليلي: وقد كان يقنعنا أحياناً بالموافقة؛ ولكن مع الأسف الشديد لما جبل عليه مشايخنا من الجمود كان سرعان ما يفلق الباب الذي يكاد يفتح، واعتذر أكثر من مرة إليّ عما كنت أسعى إليه، وأطلبه منه، ولا أزال أذكر قصيدة وجهها إليّ معتذراً فيها عن طلبي، وكانت بدايتها:

سلام رق وانتظما لأحمد صفوة الكرما

ثم قال بعد ذلك بعد أبيات عدة :

لقد البستي صفة	أخاف بجيها النقما
قد استسمنت ذا ورم	وخلت الآل ملتطما
فما أنا عالم أبداً	ولا من في العلوم سما
لعمرك إنني رجل	طفيلي على العلما
وإن شئت العلوم كما	تقول فصدّق الكلما
فيّمّ مسرعاً عجلا	إلى أولئك العظما
فخذ من بحرهم درراً	وكن أوفى الورى ذمما
وهب لي منك معذرة	ودعني جانباً كلما

إلى آخر القصيدة^(١)

(١) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ الخليلي

بجانب ذلك كان الشيخ يذهب إلى محلة أخرى قريبة من المحلة التي يسكنها بزنجبار للتعليم على يد الشيخ عيسى بن سعيد الإسماعيلي، فبدأ عنده بقرأة "تلقين الصبيان للشيخ السالمي" يقول سماحة الشيخ: وكان يحفظني إياه عن ظهر قلب، ثم بقيت أدرس عند هذا الشيخ مدة، فدرست العديد من الكتب على يديه، وكان عمري آنذاك أناهز العشر سنوات، فدرست النحو الواضح، وكان يحفظني هذا الكتاب بكل ما فيه من مسائل وأمثلة، ثم انتقلت إلى دراسة كتابين عنده، كتاب في الفقه هو "جامع أركان الإسلام" وكتاب في النحو "ملحة الإعراب" وكنت أحفظ في ذلك الوقت متن الملحة. ثم درست عنده أيضا كتاب "متن البناء" مع بعض الشروح عليه، ثم درست عليه كتاب "لامية الأفعال" لابن مالك مع شرح بحرق عليها، ثم درست متن "قطر الندى" مع شرح ابن هشام، ثم متن "شذور الذهب" مع شرحه لابن هشام، وكانت دراستي بعد صلاة الفجر وأبقى عنده ساعتين تقريبا، ثم أعود إلى المنزل وأساعد والدي في أعماله التجارية، وتتم عملية مذاكرة الدروس أحيانا وأنا في طريقي إلى بيت الشيخ المدرس، أقرأ الدرس في طريقي وأستظهره عن ظهر قلب، واستمرت في التردد عليه مدة، وكنت فيما بعد أحضر حلقة العلم تقديرا مني له^(١) ثم بعد ذلك التحق الشيخ الخليلي بالدراسة على يد الشيخ خلفان بن مسلم الحراصي، فدرس على يديه جوهر النظام للإمام السالمي، ولكن الظروف الصعبة حالت دون بقائه في تلك المنطقة حيث رحل الشيخ إلى منطقة أخرى، وهناك بدأ يقرأ في علم الحديث، فأخذ يقرأ مسند الإمام الربيع مع حفظ الأحاديث على يد الشيخ حمود بن سعيد الخروصي، يقول الشيخ: " وكنت أذهب إليه في

(١) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ الخليلي

الأسبوع مرة واحدة؛ لأن مكانه بعيد جداً بما يقارب ثمانية أميال (أكثر من ١٢ كيلومتر) وكنت أركب سيارة أحياناً، وأحياناً أسير ماشياً على الأقدام^(١) ثم بعد ذلك قرأ على الشيخ أحمد بن زهران الريامي كتاب "جوهر النظام" مرة أخرى، وواصل في قراءته قدرًا أكبر من القدر الذي قرأه على يد الشيخ خلفان بن مسلم الحرصي.

ثم تعلم المواريث على يد الشيخ سعيد بن محمد الكندي ثم بعد ذلك جاء الشيخ أبو إسحاق أطفيش إلى زنجبار للمرة الثانية، بتنسيق أو طلب من الجمعية العربية، وربما كان ذلك من نتائج خطبة الشيخ أمام رئيس الجمعية التي طلب فيها الاهتمام بنشر العلم، وضرورة المسارعة إلى ذلك، فاستغل الشيخ الخليلي وجود الشيخ أبي إسحاق، فطلب منه أن يدرس على يديه، فما كان من أبي إسحاق إلا أن خصص له دروساً قرأ فيها الشيخ على يديه "بهجة الأنوار" و"مشارك الأنوار" للشيخ السالمي، وكان حريصاً كل الحرص على حضور دروسه العامة في مسجد السيد حمود، وكان يسجل ما يسمعه من فرائد آراء شيخه في ذاكرته، وانعقدت أواصر المودة بين الشيخ وتلميذه، وكان الشيخ أبو إسحاق حريصاً على البقاء بجانب الشيخ الخليلي ليساعده في النهل من ينابيع العلم، لما رأى فيه من النباهة والحرص النادرين، ولكن القدر حال دون ذلك؛ إذ لم يبق أبو إسحاق بزنجبار سوى شهرين ورحل على أمل العودة إليها، وترك المجال لسماحة الشيخ محدثنا عن زيارة الشيخ أبي إسحاق إلى زنجبار لغرض نشر العلم والوعي، يقول: "جاء أبو إسحاق لأجل التمهيد لهذا الغرض بادئ الأمر لمدة شهرين، فكانت هذه الزيارة بدايتها في اليوم السابع من

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ الخليلي

شهر صفر من عام ١٣٨٠ للهجرة وسافر من زنجبار راجعاً أدراجه إلى القاهرة في اليوم الثاني من شهر ربيع الثاني من عام ١٣٨٠ للهجرة ، على أن يرجع إلى زنجبار مرة أخرى ، إلا أن الظروف هناك حالت بينه وبين تحقيق هذه الأمنية. وأذكر أنني كتبت إليه رسالة أبدت فيها أسفي على عدم تحقيق هذه الأمنية التي نصبو إليها ، وكتب إليّ رسالة جوابية بها كثير من الحض والحث على طلب العلم ، وقد أبدى فيها أيضاً مشاعره الطيبة تجاه شخصي الضعيف ، وعواطفه النبيلة ، كما أبدى أسفه على عدم تحقق تلك الأمنية. من ضمن ما جاء في رسالته هذه "وكم كنت أود أن استمر هنالك لأكون بجانبك كي أساعدك على نيل ما تصبو إليه من المعالي ، حتى تنال قبساً من العلم النافع لتفيد وتستفيد ، وتستتير وتثير ، ولكن القدر الذي له الحكم النفاذ ، هو غاية لا بد من حصولها ، وقد كان ذلك هو انتقالي عنكم لأمر أراد الله سبحانه وتعالى .. ثم عندما جئت إلى عُمان كان الشيخ العبري في مقدمة العلماء الذين لقيتهم واستفدت منهم"^(١)

ومما هو معروف أن الشيخ الخليلي كان عصامياً في طلب العلم كما قدّمت ، كثير الاطلاع عاشقاً للقراءة ، وبذلك فاق أقرانه بل وشيوخه ، وقد سمعت نقلاً عن والدته أن ذلك كان ديدنه منذ صغره ، وبداية طريقه في طلب العلم ، فقد كان والداه يناديانه ليأكل وجبة الغداء معهما ، وهو منكبٌ على كتابه ينهل منه ، ويحييها ابدءاً ، وسألحق بكما ، ويتتهيان من طعامهما ، وهو ما يزال يطارد مسائله العلمية التي ملكت عليه لَبّه ، وفصلته عن الوجود من حوله ، فقد قال واصفاً بعض مطالعاته الخاصة في تلك المرحلة عدا ما يتلقاه

(١) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ الخليلي

على أيدي شيوخه : " ثم واصلت المطالعة في الكتب النحوية الأخرى ككتاب " ألفية ابن مالك " مع بعض الشروح وفي مقدمتها " شرح ابن عقيل " مع حاشية الخضري و " شرح الأشموني " مع " حاشية الصبان " وطالعت بعض المطالعات في " شرح ابن الناظم " وكذلك كتاب " مغني اللبيب " كانت لي به عناية .. وبالنسبة إلى علم الصرف فقد طالعت بنفسى^(١) بعض الكتب من بينها " مقاليد التصريف " التي هي ألفية في علم الصرف للمحقق الخليلي مع شرحه عليها ، وهكذا تدرجت بعد ذلك في مطالعة الكتب الفقهية وكتب أصول الفقه بقدر المستطاع ، واعتنيت بكتب الحديث من بينها صحيح البخاري مع شرح الحافظ ابن حجر عليه إلى غير ذلك ... " ^(٢)

لقد استمرت حياة الشيخ فيما يبدو بين مشاغل الحياة ومساعدة والده ، وبين محاولة إشباع نهمه في طلب العلم ، متردداً على شيوخ زنجبار ، حتى تبدلت الأحوال في زنجبار بنشوء الأحزاب السياسية وتصارعها ، الذي أفرز فيما بعد الانقلاب العسكري الأحمر ، وقد ذاق العرب العمانيون الويلات في هذا الانقلاب العسكري ، حتى أن حرّ الضمير لا يرضى بالبقاء هناك مع تلك الأحوال ، ويرى الشيخ في تحليله لتلك الأحداث أن ذلك أسباباً منها : إهمال التربية والتوعية للناس ، كما أهملت الدعوة إلى الله ، وتهاون الناس في التمسك بأمور الدين ^(٣).

(١) أي بعد الذي درسه على شيوخه

(٢) لقاء مع سماحة الشيخ في برنامج " واحة المستمعين " بالإذاعة العمانية

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ أحمد الخليلي

لم تسلم أسرة الشيخ من لفحات هذا الانقلاب ؛ فقد أودع والده السجن ، وحدث بعد مدة من الزمن أن قُتِلَ رجل اسمه حمد ، فظن الشيخ أنه والده ، وأخذ أخوه حمود يبكي بكاءً شديداً ، فذهب أحد الأفارقة إلى السجن ، للتأكد من أن والد الشيخ على قيد الحياة ، لكن حموداً لم يتوقف عن البكاء ، مما اضطرهم إلى الذهاب جميعاً لرؤية والدهم ، وهناك اطمأنوا على حياته^(١).

رأى الشيخ بعد ذلك أنه لا يمكن البقاء على هذه الأحوال مع أن قادة الانقلاب كانوا لا يؤذون الشيخ بشيء ، تقول والدته : كانوا يهينون العرب ويتركونهم يعملون الأعمال الشاقة ، فذهب الشيخ معهم مرة ، فناداه كبيرهم ويسمى - ثابت كو - وقال له : هذا ليس شغلك ، اذهب إلى بيتك ، فعاد أدراجه إلى المنزل ونجّاه الله تعالى . وكانت الشرارة التي أصر معها الشيخ على الرحيل ، أن كان مرة يحمل طعاماً لوالده في السجن فرأى بعض العمانيين ممن يعرفهم يهانون إهانة عظيمة ، فتألم لذلك ، وتأثر بما رأى أيما تأثر ، ورفض الذهاب مرة أخرى ، كي لا يشاهد مثل ذلك المنظر^(٢). هنا أخذ الشيخ ينظّم مسألة الرحيل إلى عمان ، فتقدم إلى الصليب الأحمر بطلب إخراج والده من السجن ، فلم يتيسر له ذلك ، وقد أضربهم العَوَزُ وقلة ذات اليد ، فساعدهم الصليب الأحمر على ترتيب شؤون سفرهم ، ويسّر الله لهم أثناء ذلك خروج

(١) لقاء مع والدة الشيخ أحمد الخليلي

(٢) السابق

الوالد من السجن ، وهناك عزموا على الرحيل إلى عمان ، فكان خروجهم من زنجبار في أواخر جمادى الأولى من عام ١٣٨٤م .

يذكر سماحته في تقرير أعدّه في نهاية رحلته الأولى إلى إفريقيا الشرقية في شهر محرم عام ١٤٠٧هـ الموافق له سبتمبر ١٩٨٦م ما دفعهم إلى الرحيل قائلاً: " شاء الله تعالى - والله يفعل ما يشاء - أن أطلّ على هذا الوجود وأن أخرج إلى الحياة في مدينة زنجبار في الشرق الأفريقي ، وأن تكتحل عيناى بالنور في بقعة منها هي (المكاديني) وهكذا قدر لي أن أقضي أيام الصبا وجزءاً من أيام الشباب في ربوع زنجبار وتحث ظلالها الوارفة الجميلة ، ولكن الأيام لا تستمر على حال ، وسبحانه مغير الأحوال ، و شاء القدر أن يحدث ما حدث في عام ١٣٨٢هـ / ١٩٦٤م ودار الفلك دورته ، فانقلب المجرن على ظهره ، وحلّ النقص محل التمام ، فتحولت اللجنة الخضراء إلى جسيم حمراء ، والمدينة الحاملة الوداعة إلى مكان مضطرب مزعج ، حتى أصبح النسيم العليل كأنه صفارات إنذار ، فخرجنا من هناك ميممين عمان ، تحت العروبة وحمى الإسلام ، أرض الآباء والأجداد ، فكان البديل ..ولله الحمد والشكر خيراً ، والخير فيما اختاره الله (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم) ...^(١)

ومحدثنا سماحته عن مراحل هذه الرحلة إلى موطن الآباء والأجداد في موضع آخر ، يقول : " جئنا في باخرة باكستانية ضخمة ، كانت تسمى (سفينة الحجاج) ، تحمل لثمانية آلاف حاج ، وهي أكبر باخرة شاهدناها وهكذا يحكى عنها (لعلها احترقت أخيراً قبل خمس سنوات تقريباً أي في حوالي سنة

(١) من تقرير محفوظ بإرشاف مكتب الإفتاء بوزارة الأوقاف العمانية

١٤١٨ هـ في ميناء دبي) وتتكون هذه الباخرة من أربعة عشر دوراً ، وكان بها مسجد للصلاة^(١) رحلنا من زنجبار في أواخر جمادى الأولى إلى ممباسا ، وقد بتنا ليلة واحدة في الطريق ، وبقينا في ممباسا ثلاثة أيام ؛ لتنزل الباخرة شحنتها من الأرز (أربعين ألف جونية من الأرز) التي حملتها من كينيا لتنزيلها في ممباسا ، ثم من ممباسا إلى عدن ، والأصل أن تتجه من عدن إلى مسقط لكن بسبب وجود ركاب يقصدون الهند غيرت الباخرة مسارها إلى الهند ، وحاول العمانيون الاعتراض لكن دون جدوى ، لقد بقينا في عدن يوماً واحداً ، ثم وصلنا بومباي ، وبقينا يومين ، ثم خور بندر وبقينا يوماً واحداً ، ثم سرنا إلى كراتشي وبقينا فيها ثلاثة أيام ؛ لتنزيل الحمولة ، ثم سرنا إلى مسقط ، ونزلنا صباح يوم التاسع عشر من جمادى الثاني ١٣٨٤ هـ وبتنا في مسقط ، وحملتنا السيارات مساء اليوم الثاني بين الظهر والعصر إلى إزكي ، ثم بتنا في إزكي حيث وصلنا إليها بعد منتصف الليل ، ثم غادرنا صباحاً إلى نزوى وبقينا قليلاً في نزوى ثم رحلنا إلى بهلا ، ووصلنا قبيل الظهر إلى بهلا ، يوم الحادي والعشرين من جمادى الثانية ١٣٨٤ هـ^(٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ - حفظه الله - استغل زمن رحلته تلك بشاغله الأول ، وهو طلب العلم ، فراجع - خلال الرحلة - بعض محفوظاته ، مثل " شمس الأصول " للشيخ السالمي ، وقرأ شرحها " طلعة الشمس " للشيخ السالمي للمرة الثانية.

(١) كان الشيخ الخليلي يصلي بالناس إماماً في مسجد السفينة ، كما أخبرت بذلك والدته

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

الحياة العمانية

أبدأ الحديث عن حياة الشيخ في عمان منذ وصوله إلى بلده الأصلي (بهلا) . وكان ذلك قبيل ظهر يوم الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام ١٣٨٤ هـ ويرفقه أبواه وأخوه حمود بن حمد الخليلي ، وقد نزل الشيخ أول نزوله بـ (بستان سحيم) القريبة من سوق بهلا ، يقول خلف بن زاهر الشرياني وكان من المستقبلين لأسرة الشيخ : بعد ذلك ذهبنا إلى محلة (الخضراء) مشياً على الأقدام ، تغمر أهل البلاد الفرحة والبهجة والسرور بوصول هذا الشيخ بصفة عامة ، وأهل محلة الخضراء بصفة خاصة ^(١) واتجه الجميع صوب البيت القديم الذي تركه آباء الشيخ مقفراً مستوحشاً لفراق أولئك العباهل من نسل سليمان بن ناصر الخليلي ، ودخل الشيخ وأسرته ، وليس في البيت شيء يسد المسغبة أو يرطب الحلق ، ويشفي من الظمأ ، وقد جرد الانقلاب الشيوعي الأحمر هذه الأسرة المتواضعة من أملاكها ، كما جرد غيرها من الأسر ، وحسبها أن سلمت من برائن الموت ، ورضيت من الغنيمة بالإياب ، نعم لقد وصل الشيخ فقيراً فقراً مدقماً من حطام هذه الحياة الزائل ، ثرياً ثراء واسعاً بالعلم والصلاح والفضل وحسن التوكل على خالق الوجود ، ومصرف كل موجود ، ورازق كل مولود ، ويفضل الله تعالى أصبح بعد ذلك في أحسن حال .

(١) لقاء الشيخ خليل بن أحمد بالشيخ خلف بن زاهر الشرياني

ما كاد الشيخ يلقي عصا ترحاله بمحلة الخضراء ، ويقضي سحابة نهاره الأول بها ، يستنشق شذا أخبار الحركة العلمية في هذه البلدة الوادعة ، حتى شتف أذنيه خبر إقامة حلقة علمية بمسجد (الرفيع) بمحلة الخضراء بأول ليلة للشيخ في عُمان يرأسها الشيخ القاضي علي بن ناصر المفرجي ، ومحضرها عدد من أهل المحلة وأهالي المحلات المجاورة لها ، فانطلق الشيخ إليها مسرعاً ، لا تقترب من حماه نوازع الإرهاق من السفر ، أو تثبط عزائمه وساوس الشيطان بالتعب والنصب ، إنها أول ليلة ، وقد وصلت لتوك من سفر مرهق طويل ، وفي الوقت متسع ، وإن لجسمك عليك حقاً ، ما كان لشيء من ذلك أن يناوش أحاسيسه ، أو يداني حمى إرادته القوية ، يحكي الشيخ القاضي علي بن ناصر أحد المواقف قائلاً : " جاءنا عبدالله بن سعيد العدوي ونحن مجتمعون بمسجد الرفيع وأخبرنا خبره ، وقال بأنكم تبحثون عن معلم للقرآن ، وهو مناسب ومتعلم ، فطلبنا مجيئه ؛ فجاء بعد ذلك إلى المسجد ، وقلنا له : نحن نريدك معلماً للقرآن لأبنائنا ، ونريد من يقرأهم تلقين الصبيان ، فهل أنت متعلم ما يكفيك لذلك ، فقال : قليلاً ، فسألناه ، هل تعرف في النحو ؟ فقال : (شوي) يعني قليلاً ، وحينها أردت اختباره فسألته عن المروحة ، هل هي اسم أو فعل أو حرف ؟ فقال : هي اسم ، فقلت : هل هي معرفة أو نكرة ؟ فقال : هي معرفة . واتفقنا على جعله معلماً للأولاد ، وقلنا له : إن الراتب قليل ، فلك في الشهر عشرة قروش ، قال : لا بأس ، وكان سيف بن سالم الهميمي هو الذي يعلم الصبيان ، وقبله كان الشيخان ناصر بن راشد المحروقي وحمود بن عبدالله الراشدي ، وأخوه مبارك كان يومها صغيراً معه ، وبعد ما طرحتُ عليه ذنك

السؤالين ابترني هو بسؤال حيرني ، فلم أحر جواباً ، فقلت له : أنا أستعفيك لأنني غير متعلم^(١) ، ولكن تجهز لنذهب بعد غد إلى الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري ،^(٢) وأخذ الشيخ القاضي علي بن ناصر بيد خلف بن زاهر الشرياني إلى خارج المسجد قائلاً له : إن هذا الشيخ لديه علم غزير ، ولم نعرف عنه شيئاً من قبل ، فالحمد لله الذي أخرجه من زنجبار إلينا ؛ لنستفيد منه نحن وأولادنا ، وما هو إلا توفيق من الله لنا^(٣) وقد وافق في صباح اليوم التالي أن كان القاضي والوالي علي بن حمد المعولي وبعض أعيان المحلة على موعد لزيارة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري (المفتي السابق لعمان) في بلدة (الحمراء) فاقترح الشيخ القاضي على الشيخ أحمد مصاحبتهم للتعرف على الشيخ العبري ، فقال الشيخ : إنني أحب ذلك وأرغب فيه ، ولكن الأمر يرجع إلى والدي في الموافقة أو عدمها ، فأرسلوا خلف بن زاهر إلى الوالد حمد بن سليمان ، فأخبره الخبر ورغبة المشايخ في اصطحابهم لزيارة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري ، فأجاب دعوتهم قائلاً : إنها فرصة لنا في اصطحابهم أولاً والتعرف على الشيخ إبراهيم ثانياً ، فسار الجميع تحفهم عناية الله وتكلوهم

(١) يقول الشيخ سليمان بن سيف أن القاضي جلس يستمع إلى كلام الشيخ المسهب في القضية منكسراً رأسه حتى ناداه المؤذن قائلاً : الشيخ علي الصلاة ، فرفع رأسه وهو يقول : ها الصلاة نعم الصلاة . ويقول الشيخ صالح الرنجي : أن الشيخ أحمد أجاب بإسهاب وتفصيل حتى أن القاضي نهض وقبض على رقبة الشيخ يطلب منه العذر والعتو ؛ لأنه لم يكن يعلم مدى سعة علمه .

(٢) لقاء الشيخ خليل بن أحمد بالشيخ علي بن ناصر المفرجي

(٣) لقاء الشيخ خليل بن أحمد الخليلي بالشيخ علي بن ناصر المفرجي

رعايته ، وكان في استقبالهم ببلدة الحمراء الشيخ إبراهيم وجماعته العبريون ،
يعلوهم البشر والسرور ، مرحبين بضيوفهم الكرام ، ولما استقر بالجميع المجلس
كان الشيخ القاضي يجلس بجانب الشيخ إبراهيم العبري وكان الشيخ أحمد
الخليلي بعيداً عنهما ، فأشار الشيخ القاضي على الشيخ إبراهيم بأن يدني
الشيخ أحمد منه ، ويجلسه بجانبه يسأله في فنون العلم^(١) وترك له مهمة
اكتشاف خزائن مكنونات علمه ، فلبى الشيخ إبراهيم رغبة الشيخ القاضي
ونادى الشيخ أحمد لينهض من مكانه ، فأجلسه بينه وبين القاضي ، وأخذ
يناقشه في العديد من القضايا ، وأعجب الشيخ إبراهيم به إعجاباً شديداً وقال
معقبا : ما كنا نسمع عن هذا الشيخ شيئاً قبل اليوم ، وأرى أن علمنا أمام
علمه لا يكاد يذكر ، وأسأل الله أن يبارك فيه ، ويكثر من أمثاله ، ويقيا
متلازمين طوال مدة الزيارة ، يتحاوران ويتساءلان ، وقد أفصح الشيخ الخليلي
عن تطلعه إلى نشر التعليم في كافة أنحاء عمان ، مبينا أهمية العلم وضرورة
إتاحة الفرصة للناس كي تتعلم . فطلب منه الشيخ العبري النزول عند رغبة
أهل بهلا ليكون مدرساً لأولادهم ، فقال الشيخ أنا لا علم عندي ، ولكني لن
أجزل بما لدي من العلم ،^(٢) وكانت رغبة الشيخ أحمد أن يرحل إلى سمائل
للانضمام إلى حلقات الشيخ خلفان بن جميل السيابي ولكن الشيخ إبراهيم بن

(١) يروي الشيخ صالح الربيعي أن الشيخ العبري طرح مسألة في المجلس وكان الشيخ أحمد
يجلس في طرف المجلس ، وشارك الحاضرون فيها ، ثم طرح الشيخ أحمد قضية مهمة جدا
تبين من خلالها علو قدره فنهض الشيخ العبري من مكانه وأخذ بيد الشيخ أحمد وأجلسه
بجانبه

(٢) لقاء الشيخ خليل بالشيخ خلف بن زاهر الشرياني

سعيد كان يرى بقاءه للتدريس في بهلا^(١) ولذلك كتب رسالة إلى السيد أحمد بن إبراهيم بهذا الخصوص جاء في هذه الرسالة (ولئن أطال الله عمر هذا الفتى فسيكون مرجع أهل عمان) وكان الشيخ القاضي علي بن ناصر المفرجي هو حامل الرسالة إلى السيد أحمد ؛ لذا نترك له مجال الحديث عن رحلته هذه يقول: وبعدها أخذت الرسالة وجئت بها إلى مسقط مروراً بالشيخ عبدالله بن علي الخليلي في سمائل وأخبرته عنه ، ولما قرأ رسالة الشيخ العبري قال : هذا سيأخذونه عنكم ، وكثر الكلام في أنه سيؤخذ من بهلا ، ولما وصلت إلى مسقط سلّمت إلى السيد أحمد البوسعيدي الرسالة ، وأخذ يسألني عنه فأجبت ، ثم دخلت على القضاة ، وأخبرتهم عنه ، فقال الشيخ هاشم بن عيسى : كم عمره ، فقلت : نحو العشرين ، فقال كيف سيكون هذا عندما يبلغ الأربعين ؟! . وذهبت بعدها إلى السيد أحمد لأخذ الجواب منه ، فقال لي : بأننا قد وصّينا عليه بأن يأتينا هنا ، فقلت له : نحن أخبرناكم خبره لا لتأخذه عنا ، وإنما لتبثوه عندنا ؛ إذ لا عالم في بلادنا ، فنريده معلماً لنا ولأولادنا ، فقال : أنتم عندكم الشيخ إبراهيم ، ترجعون إليه في الدقيق والجليل ، وهذا نريده هنا في المركز ، حيث التجمع الكبير^(٢) وحينها طلب الشيخ العبري أن يوجّل نقله فترة من الزمن حتى يشرع في التعليم في جامع بهلا ، فوافق السيد أحمد ، فأخذ يدرّس في الجامع ببهلا وقت الصباح ، وفي وقت المساء يفرّغ نفسه للقراءة والاطلاع في مسجد (الميثاء) ، يقول الشيخ القاضي علي بن

(١) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

(٢) لقاء الشيخ خليل بالشيخ علي بن ناصر المفرجي

ناصر : " قال لي الوالي ذات يوم : تعال بنا نذهب لنرى هذا المدرس وتلاميذه ، ولما دخلنا عليهم الجامع قام الشيخ وألقى كلمة ترحيبية ارتجلها ارتجالاً فحيرنا ؛ فقال الوالي : هذا رجل كبير ^(١) وشاع خبر الشيخ وسعة علمه في أنحاء عمان ، فأخذت تضيفه القرى واحدة تلو الأخرى ، فبعد زيارته الأولى للشيخ إبراهيم بن سعيد العبري ، وخلالها تقدم إليه بطلب زيارة أخرى تكون خاصة به وبوالده ، فلبى الشيخ الخليلي دعوته ، وكانت أفرغ من الزيارة الأولى للتباحث والمناقشات ، ثم دعاه الشيخ عبدالله بن زاهر الهنائي لزيارة بلدة الغافات ، فرحل إليها مع والده والشيخ خلف الشرياني ، وكانت مدتها ثلاثة أيام ، وكانا خلالها يستعرضان سير الأئمة ، والأولياء الصالحين ، واستعرضا سيرة الإمام الرضي محمد بن عبدالله الخليلي . وعرجا على محبته للعلم ونشره ، ووجه لطلبة العلم وتقديم المساعدات لهم ، والإحسان إليهم ، ثم تلتها زيارة إلى "بسياء" ، بدعوة من أشياخها ، ثم بلدة العارض ، ثم رحل إلى عبري بدعوة من أشياخ بني خليل هناك ، وكان الشيخ في جميع زيارته متفقداً أحوال الأهالي والبلاد ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، يقول الشرياني : " في زيارته لبسياء رأى رجلاً يلبس خنجراً مزينة بالذهب ، وآخر يلبس خاتماً من الذهب فنهاهما عن ذلك وساق لهما الحديث الشريف المحرم لبس الذهب للرجال ، وقال : إن شرف الرجل وعزته في تقواه وصلاحه ، لا في لبس الذهب ، وفي زيارته بلدة العارض زار قبر العلامة الزاهد أبي سعيد الكلمي - رحمه الله - ورأى ما رأى حول القبر من

(١) لقاء الشيخ خليل بالشيخ علي بن ناصر المفرجي

النور ، وقرب القبر شجرة عليها الكثير من الثياب البالية ، وعندما سألهم عن ذلك أخبروه ، أن المرأة إذا وُلِدَ لها مولود معافى ، وقد نجت من مخاطر الولادة تذبح شاة على القبر ، فنهاهم عن ذلك وبين لهم حرمة ، وأمرهم بقطع الشجرة وإزالة جميع الأذى من القاذورات وبقايا الطعام من على ظهر القبر ، وقال : احترموا هذا العالم الجليل في قبره ، كما كان يحترمه معاصروه أيام حياته ، وفي زيارته لعبري لحظ الإسراف الكبير في الكرم ، فلم يعجبه صنيعهم ، ولم يرضه لهم ، فنهى جملة من الناس عن ذلك قائلاً : إن هذا الإسراف منهى عنه نهياً شديداً ، فلا تعد إليه مرة أخرى. وهكذا كان شأنه لا يرى ما يخالف أمر الله إلا ساءه ؛ فأنكره ونهى عنه ^(١) وفي هذه الأثناء كان الشيخ يستغل وقته الاستغلال الأمثل بين طلب العلم وإرشاد الناس ، يقول الشيخ صالح الربيعي : كان الشيخ في هذه المرحلة يستعير المخطوطات من الناس في محلته ويخرج مبكراً في الصباح إلى الصحراء ويبقى هناك إلى آخر النهار ، وفي طريق عودته يجلس مع الشباب الذين يجلسون في الأودية ، أو يلعبون الألعاب الشعبية ، حرصاً منه أن يعلمهم شيئاً ينفعهم ، بأسلوب مرح بشوش ، وكانوا يحترمونه ، فيجلسون إليه ويستفيدون منه ، كان - حفظه الله - على هذا المنهج يرجع الكتاب إلى صاحبه في يومين أو ثلاثة ^(٢)

أرسل السيد أحمد بن إبراهيم الناظر في الشؤون الداخلية لعمان ، يدعو الشيخ إلى زيارته في مسقط ، وكان الشيخ القاضي المغربي والشرياني مرافقين

(١) لقاء الشيخ خليل بالشيخ خلف بن زاهر الشرياني

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ صالح الربيعي

للشيخ في زيارته هذه ، يقول الشرياني : " فلما وصل الشيخ عند السيد أحمد تلقاه بالبشر والسرور ، وقال : دعوناك وأزعجناك ، ولكن دعوناك لنقلدك أمر القضاء بولاية ضنك ؛ لأن الأهالي هناك قدّموا شكوى ضد قاضيهم الحالي ، وهم غاضبون ، يريدون قاضياً آخر مكانه ، وقد رشّحناك لهذا المنصب ، فأجاب قائلاً : " أرجو المعذرة ، فأنا لا أصلح لوظيفة القضاء ؛ ذلك لأنني لا معرفة لدي بأحكام القضاء ، وقد تربيت في زنجبار ، ولم أتعلم العلم الذي يؤهلني لهذه المهمة ، وليس عيباً أن يعترف المرء بعدم معرفته بالشيء الذي لا يعلمه ، وليس عيباً علي أن قلت لا أعرف أحكام القضاء ، وإنما العيب يلحق من تفشّم وأدخل نفسه في القضاء دون دراية بأحكامه ، فهذا عذري واضح جلبي ، فقال السيد أراك لا تريد القضاء يا شيخ ، فكلامك هذا يدل على غزارة علمك ، وسعة فقهك ، ولكن لا بأس ، ارجع إلى بلدك ، وواصل عملك الذي أنت فيه ؛ ومتى أردناك دعوناك لتأتينا ، بارك الله فيك وفي أمثالك ، والتقى في زيارته تلك بالقضاة في مسقط ، ودارت بينهم محاورات علمية ^(١) . والذي يبدو أن السيد أحمد كان ينوي تعيين الشيخ أحمد قاضياً على " ضنك " على الرغم من اعتذاره غير أن الشيخ إبراهيم العبري أرسل برسالة إلى السيد أحمد يطلب فيها إبقاء الشيخ الخليلي في بهلا ، في مهمة التدريس ، ويعتذر له عن تعيينه في منصب القضاء ، مطالباً بإعفائه من هذه المهمة ، معتذراً إليه بأن القضاء يتطلب ارتحالاً وتنقلاً ، وصحة الشيخ لا تسعفه على ذلك ، فهو يجد صعوبة في الترددات وغيرها ، وربما اعتذر إليه أن عمان تتميز

(١) لقاء خليل بن أحمد بالشيخين المبرجني والشرياني

بوجود الأفلاج ولها أحكام كثيرة ربما يجهلها الشيخ أحمد ، لأن زنجبار لا أفلاج بها ولا سواقي ، وإنما اختص العمانيون بذلك^(١)

فكانت هذه الرسالة شفيهاً قوياً ، ومعزاً لحجة الشيخ واعتذاره الشخصي للسيد أحمد ، ويقول الشرياني : أن السيد طلب الشيخ الخليلي بعد زيارته الأولى بمدة من الزمن لزيارته مرة أخرى فرحل إليه ، وهناك أبلغه بأنه سينقله إلى مسقط عما قريب^(٢) يقول الشيخ الخليلي : قال لي عند الذهاب : لن نترك دائماً في بهلا ، ولكن الآن اذهب ، وسنطلبك فيما بعد ، وكانوا قد طلبوا الشيخ خلفان بن جميل السيابي أن يأتي إلى مسقط ، ليقيم في مسجد الخور مدرساً وقد شق ذلك على الشيخ خلفان بسبب شيخوخته .

بعد ستة أشهر جاء الطلب بالرحيل إلى مسقط في برقية إلى والي بهلا ، فيها "أبلغ مدرس الخور أن يأتينا"^(٣) فما كان من الشيخ إلا الاستعداد للرحيل بمفرده بعد عشرة أشهر قضاها في بهلا ، ثم التحقت به أسرته المباركة بعد ذلك .

سكن الشيخ مع أسرته في وادي العور من مسقط ، في اليوم السادس من جمادى الثانية ١٣٨٥ هـ ، وانضم إلى أسرة التدريس بالمركز العلمي ، بمسجد الخور ، وكان بمعيته الشيخ الربيع بن المر ، وحمد بن خلفان الرواحي ، وكان الشيخ يتولى تدريس المستوى الأعلى ، وهو المستوى الثالث ، يقول سماحته

(١) من لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

(٢) لقاء خليل بن أحمد بالشرياني

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

في سؤال عن تدريسه بمسجد الخور : " كنت أقوم بتدريس أصول الفقه والعقيدة والفقه ، وكنا نعتني بطلعة الشمس في أصول الفقه ^(١) وفي سؤال وجهته إلى الشيخ أحمد بن سعود السيابي عن نظام الدراسة بمسجد الخور قال : كانت الدراسة على ثلاثة مستويات :

الأول : يدرسه حمد بن خلفان الرواحي ، يدرّس الآجرومية في النحو، وتلقين الصبيان في الفقه والعقيدة .

الثاني : يدرسه الشيخ الربيع بن المر ، يدرّس ملحة الإعراب ، ومدارج الكمال ، وشيثاً من جوهر النظام .

الثالث : يدرسه الشيخ أحمد الخليلي ، يدرّس شرح ألفية ابن مالك ، وجوهر النظام في الفقه ، وطلعة الشمس في أصول الفقه ، ومشارك الأنوار في العقيدة ، وحلقة عامة بعد المغرب في تفسير الكشاف للزمخشري .

يقول سماحة الشيخ بدأنا دراسة التفسير من عام ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ م ، كنا نقرأ الكشاف ونحاول تحليله قدر المستطاع فيما بين العشاءين. ^(٢) وما تتميز به دروس الشيخ الربط بين الأصالة والمعاصرة ، وذلك بما وهبه الله تعالى من تفتح ذهني ، واستنارة عقلية ، ووعي رحب بمجريات الأحداث في عصره ، يقول مرشد الخصيبي - وهو أحد الطلبة الدارسين بمسجد الخور - في كتابه " عمان أيام زمان " : " كنت أتذكر وهو يحدّثنا بين الفينة والفينة

(١) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

(٢) السابق

عن بعض الأحداث التي تدور في حينها بما يثير الدهشة ويبعث على الاستغراب، كما يدعو إلى الإعجاب أن يعرف شيخ دين مثله كل ذلك، فما له ولهذه الأحداث، والشيخ حين يتحدث عن ذلك لا لأجل الإخبار بها فقط، وإنما يربط هذه الأحداث بأمور يتوقع حدوثها ويتجه بها اتجاهها دينياً، وقد كان بالفعل صائباً في تفسيره ذلك، وقد سمعت أول ما سمعت عن زعماء الاتحاد السوفيتي من لسانه، إذ كان يذكرهم واحداً واحداً في وقت لا يعرف فيه بعض زملائه الآخرين من شيوخ العلم من قضاة وغيرهم الفرق بين الشيوعية والشيعة^(١) كما تتميز دروسه بكثرة التحليل وسعة البسط والشرح، يقول مرشد الخصبي أيضاً: "أتذكر أننا بقينا ما يزيد على الستين في دراسة كتيب تلقين الصبيان... وربما لا يأخذ هذا الكتيب أكثر من فصل دراسي عند غير هذا الشيخ"^(٢)

ويقول مرشد الخصبي أيضاً: "كان التعليم مكثفاً على فترات ثلاث: الفترة الصباحية: وتبدأ في حوالي الساعة الثامنة صباحاً وحتى صلاة الظهر جماعة في المسجد.

الفترة الثانية: وتبدأ بأداء صلاة العصر جماعة، وحتى نهاية صلاة المغرب.

(١) عمان أيام زمان، مرشد الخصبي، ص ٦٤

(٢) السابق، ص ٦٧

الفترة الثالثة : وهي الفترة التي بين صلاتي المغرب والعشاء^(١)

لقد بدأت الدراسة في هذا المسجد من عهد السيد ثويني بن سعيد وكان متولي شؤون الدراسة في المسجد السيد هلال بن أحمد البوسعيدي ، صاحب الأوقاف والخيرات وأول من قام بالتدريس فيه آنذاك أحمد بن محمد الكندي ، ثم ابن عمه الشيخ سعيد بن ناصر الكندي ، ثم توالى المشايخ بعد ذلك ، ودرّس فيه حمد بن عبيد السليمي.^(٢)

أنار الشيخ بعلمه سماء عُمان ، وانتشر خبره لدى الخاص والعام ، والصغير والكبير ، وجاء بعض المشايخ لينظروا كيف هو ؟ وما سعة علمه ؟ وكان الشيخ كلما زاره أحد من المشايخ في مقرّ التدريس يلقي بعض الكلمات ترحيباً بهم ، ويقول له أحمد بن سعود السيابي : إنه كان يحدّث طلابه أيضاً على الإلقاء ، وممن زاره من المشايخ آنذاك ، الشيخ محمد بن شامس البطاشي ، والشيخ سالم بن حمود السيابي ، والشيخ إبراهيم بن سيف ، والشيخ هاشم بن عيسى الطائي ، والشيخ إبراهيم بن سعيد العبري ، والشيخ سعود بن عامر المالكي^(٣) الذي عقّب بعد زيارته بقوله : هذا الرجل من رجال دولة الإمام محمد الخليلي ولكنه قد تأخر زمانه ، وقد سألت الشيخ عن زيارة هؤلاء المشايخ الأجلاء ، هل كانوا يلقون كلمات تحثّ الطلبة على طلب العلم وما شابه ذلك أثناء زيارتهم ؟ فأجابني

(١) عمان أيام زمان ، مرشد الخصبي ، ص ٦٥

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن سعود السيابي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

بقوله: هذا الأمر لم يكن معهوداً. وقد تبين بذلك مدى النقلة التي أحدثها الشيخ الخليلي في مجال الإلقاء والخطابة في عمان، هذه الميزة التي يعدّها الشيخ أحمد بن سعود السيابي إحدى الخصائص المميّزة لمدرسة الشيخ الخليلي.

في يوم الاثنين ٧ / ربيع الثاني / ١٣٨٩ هـ الموافق له شهر يونيو ١٩٦٩ م توفي والد الشيخ الخليلي - نسال الله له الرحمة - وبقي الشيخ يعمل مدرساً ليل نهار ، ففي الصباح لديه حلقة في المسجد ، وفي المساء حلقة التفسير ، وبعد ذلك يجتمع لديه الكثير من الطلبة في بيته ، وربما خرجوا في وقت متأخر وأصبح ذلك ديدنه ، ومع ذلك كان يرحل إلى خارج مسقط ناشراً للعلم ، أمراً بالصلاح والتقوى ، ناهياً عن البدع والمنكرات ، كما سيأتي في باب جهاده - بمشيئة الله - . وفي عام ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م بعد تولي جلالة السلطان قابوس مقاليد الحكم بعشرة أيام ، استدعي الشيخ الخليلي إلى القصر لمقابلة جلالته ، وكان ذلك هو لقاءه الأول بجلالته ، وفي سؤال وجهه إلى سماحته ولید عوض الصحفي بمجلة الأفكار جاء فيه : هل جرى حوار بين السلطان وبينك ؟ أجاب سماحته : كان للعلماء والمشايخ جلسات متعددة مع جلالة السلطان ، وكانت المواضيع من صلب الدين ، والسلطان حاكم البلاد ، وأبو الجميع ، وأبناء البلد هم أبناؤه ، وسأله : لا بد أنه تنبّه إليك أثناء الحديث ، فأجاب سماحته ، ذلك كرم منه وتلطف^(١).

(١) لقاء الصحفي ولید عوض بالشيخ الخليلي . مجلة أفكار

وفي هذا العام انتقلت أسرة الشيخ من وادي العور إلى ميايبن في مسقط ،
ويعد سنتين تقريباً - أي في عام ١٣٩٢ هـ توفيت زوجته الحارثية ، وبنى على
زوجه الخليلية ، كما سبق الحديث عن ذلك .

وفي يوم الثالث عشر من صفر عام ١٣٩٢ هـ الذي يوافق شهر مارس
من عام ١٩٧٢ م كانت أول رحلة للشيخ إلى خارج عمان ، وقد استمرت
هذه الرحلة شهرين وسبعة عشر يوماً تقريباً ، ولكونها أول رحلة لسماحته
كان من الطريف والمهم على السواء أن نستمع إلى بعض تفصيلاتها من
لسان الشيخ نفسه ، يقول : " خرجت من مسقط إلى قطر والتقيت بالشيخ
القرضاوي والتقيت بالشيخ عبد المعز عبد الستار ، وأكرمنا وتحمل نفقات
إقامتنا في قطر ، وبقينا يومين ، ثم رحلنا من قطر إلى جدة وبتنا ليلة
واحدة ، ثم سرنا إلى المدينة ، وبقينا خمسة أيام ، ثم ذهبنا إلى العمرة لأول
مرة ، وبقينا خمسة أيام في مكة ، وزرنا كلية الشريعة ومن فيها ، وسرنا إلى
جدة وبقينا ثلاثة أيام في جدة ، ثم خرجنا إلى مصر ، والتقينا بشيخ الأزهر
الدكتور محمد الفحام ، والتقينا بوزير الأوقاف آنذاك الشيخ عبد الحلیم
محمود الذي أصبح شيخ الأزهر فيما بعد ، والتقيت بمجموعة من علماء
مصر ، وبقينا عشرين يوماً في مصر ، ثم سافرنا إلى الجزائر ، والتقينا
بالشيخ بيّوض في العاصمة ، وتوجهنا إلى ميزاب ، واستقبلنا الشيخ
عبدالرحمن بكلي ، وزرنا القرى الست ، وهي بريان وغرداية والعطف ثم
مليكة وبنيسجن ثم بنورة ثم ذهبنا إلى القرارة وبقينا فيها أياماً ، ثم اتجهنا
إلى العاصمة ، ثم إلى تونس ، وزرنا جزيرة جربة ، ثم من جربة اتجهنا إلى

ليبيا ، وزرنا جبل نفوسة ، وزرنا زوارة وزرنا في نفوسة (جادو وكباو
وطمزين وتندميرة ، ثم رجعنا إلى مصر ثم إلى دبي ثم إلى مسقط .^(١)

ولنقتطف من هذه الرحلة ما جرى لسماحته من بعض المواقف في
المملكة العربية السعودية ، يقول سماحته : " وصلنا إلى المدينة المنورة حيث
بقينا هنالك خمسة أيام ، تشرفنا بها بزيارة المسجد الشريف للنبي (صلى
الله عليه وسلم) والصلاة فيه ، وزيارة قبره عليه أفضل الصلاة والسلام ،
والتقيت بمجموعة من العلماء منهم الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز ،
حيث أخذنا ضيوفاً على الجامعة . وكان آنذاك رئيساً للجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة ، والتقيت هناك كذلك بالشيخ عبد المحسن عباس الذي كان
أمينا عاما للجامعة الإسلامية ، والشيخ عمر الفرجاني الذي كان آنذاك
نائبا للأمين العام للجامعة ، ثم التقيت بمجموعة من العلماء وزرت كليتي
الشريعة وأصول الدين ، وكانت هاتان الكليتان بالجامعة الإسلامية بالمدينة
المنورة ، وثار نقاش بيني وبين أحد المدرسين في كلية أصول الدين ، فعندما
دخلت وجدته يدرّس حديث الرؤية الذي في صحيح مسلم ، وكان
يتحامل على الذين ينفون الرؤية ، وقد كنت قبل ذلك دخلتُ فصلا في
تدريس العقيدة ودخلت مكان الدراسة ، وكان في موضوع وحدة الوجود ،
والرد على الذين يقولون بوحدة الوجود ، والبحث في موضوع فكرة
الحلاج ودعوته ، وقول أبي زيد العيصطاوي ما في هذه الجبة غير الله ، أي

(١) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ الخليلي

بمعنى هو الله - تعالى الله عن ذلك - إن كان ذلك ثابتا عنه ، وكذلك قول ابن عربي :

الرب عبد والعبد رب
فليت شعري أين المكلف
لو كنت عبدا فذاك رب
أو قلت رب فأنى يكلف

وكان الذي يدرس هذه المادة الدكتور تقي الدين وهو رجل مغربي وكان قد عمّر عمراً طويلاً في ذلك الوقت ، كان عمره يتجاوز التسعين ، كان ضريراً وعاش فترة طويلة في بلاد المشرق وفي أوروبا ، وأخذ الدكتوراه - كما أخبرت - من ألمانيا ، وكان من الذين ينتمون إلى مايسمى بالدعوة السلفية ، وقد عهد هذه الدعوة من الشيخ العالم الهندي صاحب " تحفة الأحوذى " الذي درس ودرّس في الهند فترة ، وكان رجلاً أديباً وعاش في العراق فترة طويلة ، وعاش في المملكة العربية السعودية أيضا فترة طويلة ، وكان إماماً - فيما أحسب - في المسجد الشريف فترة طويلة ^(١) وكان يتحدث في موضوع وحدة الوجود عن الذين كانوا دعاة هذه الفكرة الساعين إلى بثها ، وذكر عن كاتب فرنسي - في درسه هذا - أنه قال بأن محاكمة الحلاج كانت أعدل محاكمة ؛ فإنه حوكم لمدة أربعين سنة إلى أن أدين ، وحكم عليه بالإعدام ، وسأله طالب عن هذا الكتاب للمؤلف الفرنسي ، فأجاب بأن الكتاب باللغة الفرنسية ، وليس باللغة العربية ، وقد قرأه وهو بتلك البلاد ، ولكنني وجدت بعض الكتب - ولا أذكر

(١) ذكرتُ هذه التفاصيل لبيان قوة ذاكرة الشيخ الذي يتذكر المعلومات من سنوات طويلة لرجال لقيهم في سفره

المصدر الذي وجدت فيه هذا الرأي . أن محاكمة الحلّاج كانت لمدة تسع سنوات . بعد هذا الحديث عندما قمت للخروج من الصف الدراسي بالجامعة ألقيت كلمة شكرتُ فيها المحاضر ، وشكرت عناية المملكة العربية السعودية ، بطلب العلم ونشره ، واحتواء الجامعة الإسلامية للعدد الكبير من طلبة العلم من جنسيات متعددة ، وخرجت ، وكان هناك رجل يسمّى الشيخ سالم بن مطر البلوشي ، مشرفاً على الطلاب بالجامعة ، ولا يزال مقيماً إلى الآن لأي وقت اللقاء بالمدينة المنورة ، وقد بلغ من الكبر عتياً ، وقد أقعده المرض ؛ فأودى بصحته ، وكان هو الذي يحضني على أن أتحدث بعد الاستماع إلى الدرس ، فتحدثت بكلمات وجيزة ، وخرجت ثم دخلت صفاً آخر كان التدريس فيه في الفقه ، وكان الكتاب الذي يدرّس " بداية المجتهد ونهاية المقتصد " لابن رشد ، وتحدثت بعد الإصغاء إلى حديث المحاضر بكلمات ، وخرجت ثم دخلت الصف الثالث ، وكان التدريس في صحيح مسلم في أحاديث الرؤية ، كان في حديث أبي سعيد وأبي هريرة ، وعندما أردت الخروج أشار إليّ الشيخ سالم بن مطر بأن أتحدث كالمعتاد ، فقلت : بأنني أشكر الجامعة على عنايتها بنشر العلم وترغيب الناس في تلقيه ، أما من حيث الدرس بالذات فإنني أبدي تحفظاً عليه ، فأنا لا أؤمن به ، ولا أعتقد ما يقوله المحاضر ، بل أعتقد خلاف ذلك ، هذا الذي أردت قوله إن كنتم تكثفون بذلك فذاك ، فإنني ما جئت لأناقش وأعارض وأعرض الناس في عقائدهم ، وإن كنتم أردتم معرفة الحجة التي عندي فأنا مستعد ، فأبدي الدكتور الذي يتولى التدريس استعداداً للمناقشة ، وكان عميد الكلية أيضاً بصحبتنا ، فأبدي أيضاً استعداداً للمناقشة ، فذكرت

لهم أولاً الآية الكريمة " لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " فأسرع الدكتور المحاضر - وهو مصري - إلى القول : بأن الإدراك شي والرؤية شي آخر ، فعندما يقول الإنسان أدركت هذا الشيء ، يعني أحاط به من جميع جوانبه ، والرؤية لا تستلزم الإحاطة ، ونظراً إلى أنه مصري ، قلت له : هل فضيلتكم أدركتم حياة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت ؟ قال : نعم ، قلت له : هل أحطت بجميع حياته منذ ولادته إلى وفاته ؟ يلزمك على هذا أن تكون محيطاً بحياته من أولها إلى آخرها ، ثم بعد ذلك كلما أمسكته الحجة من حيث الاستدلال بالقرآن أراد أن يفر إلى الحديث ، يقول : ماذا تصنع بالحديث الصريح ؟ ماذا تصنع بالحديث الصريح ؟ قلت له : طيب ، وهذا الحديث هل أنت تعتقد ما فيه على ظاهره كما هو ؟ قال : نعم ، قلت له : هل رأيت ربك ؟ قال : لا ؟ قلت له : أليس الحديث في أول موقف من مواقف يوم القيامة ؟ قال : نعم ، قلت له : الحديث هذا هو ؟ وأمسكت الكتاب وقرأت عليه الحديث ، قلت له : الحديث يقول إنكم سترونه كذلك ، يُبعث الناس يوم القيامة في صعيد واحد ، ثم يقال لهم : لتبّع كل أمة ما كانت تعبد ، فمنهم من يتبّع الشمس ، ومنهم من يتبّع القمر ، ومنهم من يتبّع الطواغيت ، فتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم ربهم في غير الصورة التي يعرفونه بها ، فيقول لهم : أنا ربكم ، فيقولون له : نعوذ بالله منك ، لا نبرح مكاننا حتى يأتينا ربنا ، قلت له : إن كان هذا في أول موقف من مواقف القيامة ، وأنت لا تعتقد أن الدنيا محل لرؤية الله ، متى رأوه حتى عرفوا صورته وارتسمت في عقولهم ؟ فإذا رأوه بخلافها ، قالوا : نعوذ بالله منك ، لا نبرح

مكاننا حتى يأتينا رينا ، فأجاب : بأنهم عرفوه مما جاء من وصفه لنفسه ووصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) له ، فقلت له : طيب ، أنت قرأت كلام الله وقرأت سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فهلّم إلى وصفه على حسب ما ارتسمت صورته في ذهنك ، حسبما عرفته مما قرأته بنفسك من الكتاب والسنة ؛ فأجابني أحدهم قائلا: هذا السؤال لا يليق بك ، فلا ينبغي لعاقل أن يطرح هذا السؤال ، فيسأل أحدا عن الله تعالى كيف هو ؟ قلت : أنا أعرف أن الله تعالى ليس كمثل شيء ، ولكن يلزمكم ما دتم تعتقدون هكذا ، يلزمكم أن تجيبوا على هذا السؤال . واستمر النقاش طويلا ، ثم قيل : الأولى أن نخرج من الصف حتى لا نشوش فكر الطلبة ، فخرجنا إلى قاعة أخرى ، وجاء الطلبة وراءنا^(١).

تلك لحظة سريعة من رحلته الأولى إلى الخارج ، ونعود لمتابعة مراحل حياته ، ففي عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م انتهت الدراسة بمسجد الخور وعين الشيخ الخليلي مديراً للشؤون الإسلامية ، وانتقل على أثرها من مسقط إلى روي في شقة بإحدى العمارات هناك ، وكان ذلك في عام ١٣٩٤هـ ، ١٩٧٤م وفي هذه السنة كانت أول رحلة للشيخ إلى أوروبا وبالذات إلى إيطاليا .

وبعد وفاة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري في حادث سير ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م عين جلاله السلطان قابوس الشيخ الخليلي مفتياً عاماً للسلطنة ، وفي سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م انتقل مسكن الشيخ إلى مدينة السلطان قابوس ليعود

(١) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ أحمد الخليلي

بعد سنة واحدة إلى روي مرة أخرى ، حيث كان مسكنه بقرب مكتبة الاستقامة حالياً بل في البناء نفسه ، وفي هذه السنة أي ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م كانت أول رحلة للشيخ إلى بريطانيا بمناسبة تدشين ، سفينة للبحرية العمانية حيث



سماحة الشيخ الخليلي يلقي كلمة في بريطانيا بمناسبة تدشين سفينة للبحرية العمانية

ألقي سماحته كلمة هناك بهذه المناسبة . ثم بعد تلك الرحلة كانت أول رحلة له إلى خارج البلاد العربية ، حيث توجه - حفظه الله - إلى باكستان ثم إلى الهند - وقد ذهب إليها مرات عديدة - ثم سافر إلى الصين والفلبين وسنغافورة وهونج كونج ، ثم سافر إلى فرنسا وتكررت الرحلات لسماحته بما تصعب

متابعته^(١). وللشيخ مشاهدات ومواقف أبان عن بعضها في بعض محاضراته. سأوردها في مواضعها من البحث طلباً للاختصار. وما دام الحديث يدور في فلك الترحال والتنقلات تجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ انتقل من بيته المجاور لمكتبة الاستقامة إلى بيت آخر بمنطقة الممتاز في حوالي عام ١٤٠٩ هـ تقريباً ، وكل هذه المساكن كانت مستأجرة إلى أن انتقل سماحته إلى مسكنه الحالي الجديد ؛ ليضع بذلك حداً للتنقلات الأسرية . ويصوّر (وليد عوض) الصحفي بمجلة الأفكار حياة الشيخ في لقائه معه جاء فيه : نلاحظ يا شيخ أحمد أنك تعيش حياة تقشف إلى أبعد حد ، فأنت تقيم في منزل متواضع دلونا عليه بالأمس ، وتحتة مخازن ، ولا تسكن في قصر ولا في فيلا ، كما يفعل أكثر رجال ديننا في وطننا العربي ، وليست لك مراسم ولا سكرتير يستقبل الزوار قبل أن يدخل به عليك ، أهى نشأة تقشفية خاصة بك ؟ أم أن تركيبة البلاد هكذا هنا ؟ فأجاب : إنني أتعامل مع الحياة بمنظار المقتنع بأنه منظار صحيح ولا شائبة فيه ، فالحياة يعيشها الإنسان لفترة محدودة على ظهر هذه الأرض ، ثم لا يلبث أن ينتقل إلى باطنها ، ويجب أن ينظر إليها بأنها حياة لا تستحق العناية الكبيرة ، وأنا أرى أن ما أنا فيه هو الآن فوق ما استحق ، والشاعر الواعظ يقول :

كثير على حيّ يموت فيقبر

وخيمة خوص أو ظليلة راكة

(١) من لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

ومن كان مشواه باطن الأرض ، وجسمه غذاء للديد ، ينبغي أن يتعظ في حياته ، ومع ذلك علينا أن نتأمل قول الله سبحانه وتعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(١) وتجدر الإشارة هنا إلى أن سماحته رفض بشدة الانتقال إلى بيته الحالي ، فما كان يعلم بذلك البيت حال تشييده ، فقد تولى شؤونه أخوه حمود ، يقول محمد الرشيد سائق سيارة الشيخ : " مررنا مرة بجانب البيت وهو قيد الإنشاء ومعني سماحته ، فسألني قائلاً : أرى تعميراً هنا ، فما هذا الإنشاء؟! فأجبته : هذا منزلكم ، فتعجب ، كيف لا يعلم بذلك؟! وبعد الانتهاء منه رفض الانتقال إليه ، وأصرّ على ذلك ، وقال لأبنائه : اجعلوا لي عريشاً من سعف النخيل يكفيني لأقضي تحته ما تبقى من عمري ، ورأى أن يبقى في بيته المتواضع المستأجر ، وأخذ يدفع إيجاره الشهري - حوالي ألف ريال شهرياً - فتراكمت عليه بسبب ذلك ديون كثيرة ، لم يجد سيلاً لسدادها ، وحين رأى أولاده تراكم الديون ، وعجز سماحته عن سدادها دخلوا معه في مفاوضات كثيرة أقنعوه خلالها بأن هذا المنزل الجديد محوي بالإضافة إلى عائلة الشيخ عائلات الأبناء أيضاً ، وسيبقى ضيقاً صغيراً ، فهناك عائلة خليل ، وعائلة أفلح ، وعائلة عبد الرحمن ، وعائلة محمد ، عدا الضيوف الكثر المرتادين بيت سماحته دون انقطاع ، ولعل في طوايا الأيام أسباباً أخرى لم تبين عنها لنا دفعت سماحته إلى العدول عن رأيه والانتقال إلى المسكن الجديد.

(١) لقاء الصحفي وليد عوض بالشيخ الخليلي

وفي عام ١٩٨٦م عيّن الشيخ وكيلاً لوزارة العدل والأوقاف والشؤون الإسلامية بجانب منصب الإفتاء ، وحزن لذلك حزناً شديداً ، وحاول مراراً الاعتذار عن الأعمال الإدارية نظراً لاهتماماته العلمية وطبيعته الإصلاحية ، وقدّر الله أن ابتلاه ببعض الأمراض الشديدة التي لزم معها الفراش ، واضطر للسفر إلى أمريكا طلباً للعلاج ، وقد زوّده الطيب هناك بتقرير طبي يصف حالته المرضية التي تتطلب عدم الإرهاق ، فرجع الشيخ التقرير إلى المقام السامي ملتتمساً إعفاءً من هذا المنصب ، فجاءت الموافقة على ذلك ، ثم بعد ذلك رُقّي إلى درجة وزير ، فما أحدث ذلك أيّ تغيير مطلقاً على أسلوب حياته.

كيف يقضي سماحته سحابة يومه ؟

ذلك مرهون بتقلب الظروف والأحوال ، وخلاصة القول : إن يومه جهاد مستمر لا يفتر ، وعمل جاد لا يهدأ ، والشيخ حال كتابتي هذه السطور يطوي عامه الثاني والستين ، ولا شك أن الظروف المحيطة به في هذه المرحلة من العمر ليست تلك التي كان يعيشها في العقد الثالث من عمره المبارك ، غير أن الشيخ يُلخّص ذلك في جواب على سؤال من صحفي كويتي ، جاء فيه : كيف تقضي يومك ؟ فأجاب قائلاً : ليس هناك برنامج معين ، لأن أوقاتي كثيراً ما تكون فيها ما يتجاذبها ، فأنا أستيقظ قبل أذان الفجر بساعة ، وأستعد للصلاة ، وبعد صلاة الفجر أتلو ما تيسر ، وأحياناً أعود إلى النوم ، ثم بعد ذلك أفطر ، ثم أبدأ مشوار العمل والحياة ، وهنا تتجاذبني عدة عوامل ، فأحياناً أخرج من

البيت ولا أتمكن من العودة إليه إلا في وقت متأخر من الليل .^(١) والأيام تختلف لدى سماحته ، فصباح الثلاثاء من كل أسبوع يتفرغ لدرس التفسير الذي يلقيه بعد صلاة المغرب ، أما بقية الأيام العادية فإنه في طريق خروجه إلى الوزارة يمر بالمجلس حيث ينتظره ذوو الحاجات ؛ فيقضي حوائجهم ، وبعدها يتجه صوب الوزارة أو لجنة التظلمات ، أو أحيانا يبدأ بكتابة صفحات في التفسير ، وأحيانا تحول دون ذلك أعمال اضطرارية ، وإذا عاد ليلاً بعد العشاء ورأى مجلسه مضاءً ، فإنه يأبى إلا الدخول مهما كان الإرهاق قد حطم قواه الجسدية ، فيكرم ضيوفه ، ويقضي حاجة كل ذي حاجة ، وربما دخل إلى أهله في وقت متأخر من الليل . إنه يرى نفسه قد تحملت عبئاً ثقيلاً فللناس عليه حقوق ، فلم يخلق الله لذاته ، وإنما لنفسه وللآخرين المتعطشين إلى المنقذين والموجهين من أمثاله ، وما أجمل كلمات سطرها قلم وليد عوض ، يشهد فيها بحال الشيخ في زيارتين متباعدتين ، وهو يصف ما شاهده مساء الثلاثاء في درس التفسير لسماحته ، يقول : مساء في جامع السلطان قابوس مهرجان صوفي ، مئات المصلين يتدافعون إلى داخل المسجد ، بعدما يخلع كل منهم نعليه عند العتبة ، وفيما يكتفي فريق منهم بتأدية صلاة المغرب ليعود إلى أشغاله ، وسوق العمل في مسقط مفتوح حتى العاشرة مساء ، يلازم الآخرون سجاجيد المسجد ؛ ليقرؤوا القرآن الكريم ، أو يتوجهوا بالأدعية إلى الله عز وجل ، أو يتحلّقوا حول رجل نحيف القامة ، يرتدي أبيض بأبيض ، وروح تقشّف عزّ نظيرها ، يضعون بين يديه ما عندهم من هواجس ومشاكل وهموم ، فيفتي بينهم

(١) لقاء الصحفي الكويتي بالشيخ الخليلي شريط مسجل.

ويريح صاحب الكرب ، ويشفي غليل الحيران . ذلكم هو الشيخ أحمد الخليلي مفتي سلطنة عمان ، ومحدث يوم الجمعة على شاشة التلفزيون العماني ، وصاحب الكلمة الفصل في كل ما يحتاج إلى فتاوى . أنا أعرف الشيخ أحمد الخليلي منذ عام ١٩٧٤م ، يومئذ لم يكن قد ولي سدة الإفتاء بعد ، وكان أبرز وجه في المحكمة الشرعية ، حتى اختاره السلطان قابوس بن سعيد من بين عشرات العلماء ورجال الدين الضالعين في الشريعة والفقهاء ليكون مفتي السلطنة . والشيخ أحمد ابن الأربعين لم يتغير عليّ هذه المرة ، إلا في جسده ، فقد أصبح أقلّ نحافة ، ولكن لم يتغير لا في فروسيته ولا في جرأته ، إنَّ الرأي عند الشيخ أحمد استراتيجية وليس تكتيكاً ، وكما عرفته زاهداً متقشفاً متواضعاً كذلك ألقيته هذه المرة . لم يكن الإفتاء عنده مكتباً فخماً ، ولا ديواناً مترامياً ، بل حسبه وهو يقابلك أن يتجمع فوق كرسي عادي ، ويثوب أبيض عادي ، ويعمامته العمانية على رأسه ، فإذا ناديته بصاحب السماحة ، قال : استغفر الله ، أنا عبد من عبيد الله الضعفاء المساكين ، المحتاجين إلى مغفرة الله عز وجل ورضوانه^(١) .

أما يوم الجمعة فالشيخ - كالعادة - لا يخلو مجلسه من الزوّار وذوي الحاجات ، فيقضي حاجاتهم قبل النهوض للاستعداد لصلاة الجمعة ، ثم يستقبل ضيوفه بعد الصلاة على وجبة الغداء التي ربما كثر عليها العدد بما لا يتصوره المرء ، إذ يأتي بعض الناس دون أن يحيطوا الشيخ علماً ، وقد رأيت بعيني رأسي مرة ما يمكن أن أسميه باحتفال الجمعة ، فقد حدثني نفسي أن

(١) لقاء الصحفي وليد عوض بالشيخ الخليلي

أزور الشيخ بعد صلاة الجمعة وأتناول معه وجبة الغداء ، وقلت في نفسي إنني شخص واحد ، لا أوتر شيئاً ، حضرت أو غبت ، وما إن استقرُّ بنا المجلس حتى بدأت الأفواج تتدفق ، زرافات ووحدانا ، حتى ضاق المجلس الدائري بالحاضرين ، فأمرهم الشيخ أن يكونوا صفوفًا كصفوف الصلاة ، ثم بعدها اضطر الشيخ إلى الخروج بنفسه للإشراف على الانتقال إلى المجلس الكبير ، وأمرنا بعد ذلك بالانتقال إلى المجلس الداخلي ، وهكذا يمر وقت الشيخ من أجل الآخرين على حساب راحته . أما بعد صلاة العصر فالشيخ يتفرغ للتلاوة والذكر والدعاء في المسجد حتى أذان المغرب ، التماساً للساعة المباركة من يوم الجمعة ، ثم يبقى إلى صلاة العشاء هناك ، ويحبسه الناس بعد الصلاة إلى وقت متأخر من الليل أحياناً ، يستفتونه ويستشيرونه ، وربما عاد إلى البيت ووجد بعض الأفراد ينتظرونه في المجلس ، ليعود إلى أهله متأخراً ، إنها حياة جهاد لا يفتر ، وعمل دؤوب لا يهدأ ، بإرادة قوية لا تخور ، حفظه الله وعافاه .

سماؤه وأخلاقه

حفظه وزيارته :

لقد رزق الله الشيخ حافظة قوية ، وذكاء حاداً ، ونباهة وقادة ، فهو سريع الحفظ ، دقيق الملاحظة ، كثير القراءة ، واسع الاطلاع ، رحب أفق الوعي ، تعلق بذاكرته الكثير من الشوارد ، وقد أورثه ذلك فهماً للواقع لا يبارى ، ووعياً بما حوله لدرجة لا تجارى ، يحفظ الكثير من الحوادث في سن مبكرة من

طفولته ، ففي سؤال قدمه إلى الشيخ الخليلي الشيخ عبدالله ابن عامر العيسري ، عن أقدم ذكرياته ، أجاب فيه : " في حوالي العام أو دونه علقنت بذهني أول ذكري تذكرتها وأنا في مرحلة الطفولة ، عندما كنت في حضن والدتي ، حفظها الله ، وكانت تطعمني القشاء (القرع) وكنت أرفض أن أطعمها بسبب أنني في ذلك الوقت لا أحب ذلك ، وعندما سألتها عن عمري في ذلك الوقت ، قدرته بنحو العام أو أقل قليلاً من العام.

الذكري الثانية عندما فُطِمتُ ، وأذكر تلك الجلسات التي جلستها عند جدي^(١) وذكري أخرى ما تزال عالقة بذهني ، ولعل علوقها بسبب ما فيها من الإيلام ، وقد كان ذلك عندما فطمت من الرضاع ، وذلك في منزل جدي لأمي ، وهذه الصور باقية في ذهني إلى الآن^(٢) ومن الذكريات التي أذكرها ، ذكري وفاة جدي حمود بن سالم البهلاني وهو أبو والدتي ، وقد توفي في شهر صفر عام ١٣٦٥ هـ ، وأذكر أن نعيه وصل إلينا وقت صلاة المغرب ، وكان والدي يستعد لأداء صلاة المغرب ، وذهبت بصحبة والدتي وأحد إخوتها إلى المنزل الذي وقعت فيه مصيبة جدي ، وأذكر بكاء النساء في ذلك الوقت ، ولا أزال أذكر إلى الآن قصة كانت تتحدث بها إحدى النساء هناك ، وهي أن امرأة كبيرة في السن - وقد أدركتها - خرجت في طريق قد ناوشتها الكلاب فيه فجرحتها ، وأثرت عليها ، والحديث لا يزال مرثما بمخيلتي إلى وقتنا هذا ، وقد كان عمري يوم وفاة جدي بحسب الأشهر القمرية ثلاث سنوات وستة

(١) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ الخليلي

(٢) لقاء الشيخ العيسري ولقاء المنفلوطي بالشيخ الخليلي

أشهر ، ومن الذكريات القديمة لقائي بالشيخ أبي إسحاق أطفيش في حال زيارته الأولى لزنجبار عام ١٣٦٧هـ ، وأذكر أنه حضر في منطقة تسمى بالمحلية مفينسيني ، وأهل عمان يسمونها الفنسا ، وقد ألقى درساً ، لكن لا أحفظ ما قاله في ذلك الدرس^(١) ولكن الشيخ يذكر تماماً ما قاله الشيخ أطفيش في دروسه التي ألقاها في زيارته الثانية لزنجبار ، فقد أورد في جواهر التفسير في تفسير فواتح السور : "ومن جرى في هذا المضمار شيخنا العلامة أبو إسحاق إبراهيم أطفيش - رحمه الله - فقد سمعته في دروسه التفسيرية التي كان يلقيها بجزيرة زنجبار أيام زيارته لها عام ١٣٨٠هـ ما رأيته من بعد منقولا عنه في كتاب إعجاز القرآن بين النظرية والتطبيق للدكتور محمد حفني شرف ..."^(٢) يتحدث الشيخ بنعمة الله عليه هنا فيقول : "عندما كنت أحضر دروس الشيخ أبي إسحاق كان زملائي يكتبون ما يلقي علينا الشيخ في أوراقهم ، وبعض ميسوري الحال يسجلون الدروس في أشرطة سمعية ، وأنا ما كنت أملك شيئاً من ذلك ، وإنما كنت معتمداً على ذاكرتي ، فلما حدث الانقلاب ضاعت أوراقهم ، وتلفت أكثر أشرطتهم ، وبقي عندي من فرائد الشيخ أبي إسحاق ما حفظته الذاكرة"^(٣)

ومن عجائب حفظه ما يحدثنا به معاصروه ، فمن ذلك ما أخبرني به ولده سليمان نقلا عن عمه ، وأخبرني بذلك الشيخ بدر اليمودي وقد حضر

(١) لقاء المنفلوطي بالشيخ الخليلي

(٢) جواهر التفسير ٨٨/٢

(٣) نقل إليّ هذا الحديث أكثر من واحد ممن سمع الشيخ منهم الشيخ سالم بن خلفان

مجلس الشيخ فحدثهم بذلك ، قالوا : جلس الشيخ تحت شجرة قرنفل يحفظ من جوهر النظام ، فحفظ منه ثمانمائة بيت في جلسته تلك ^(١) ومن هذه العجائب أنه وهو بزنجبار عَقِدَ مجلس تأبين لموت الإمام الخليلي ، ألقى فيه خطبتان ، الأولى ألقاها الشيخ عبدالله بن سليمان الحارثي ، كما ألقى فيه الشيخ عبدالله بن حمدون الخطبة الأخرى ، فحفظ الشيخ الخليلي كلتا الخطبتين ، وكانت إحداهما تقارب ثلث الساعة ^(٢) ومن ذلك ما حدثني به الشيخ أبو الحسن شحاته قال : زار الشيخ الخليلي طلبة القسم الداخلي بمعهد القضاء الشرعي بروي ، فألقى للطلبة محاضرة قال فيها بما معناه : قرأت في مجلة البعث عن أثر العقيدة في النفس ، قصة هرقل في حربه مع الفرس ، وأخذ يسرد القصة كما وردت بالمجلة ، وكان لدي العدد نفسه الذي أشار إليه الشيخ ، فلما رجعت إلى البيت وكان معي الشريط المسجل لتلك المحاضرة ، فأخذت أتبع النص من المجلة ، فوجدته كأنما يقرأ من المجلة ؛ حتى أنه لا يغيّر حروف العطف ، ولو لم أسمعه بنفسي لما صدقت ذلك ، كما كنت أتبع نقله في محاضرة التفسير عن الإمام محمد عبده ، والسيد رشيد رضا من تفسير المنار ، فلم أجده يجيد حرفاً عما قالاه ^(٣) وقد سألت الشيخ سعيد بن حمد الحارثي عن موقف يدل على مدى حفظ الشيخ فقال : "أما الحفظ فحدّث ولا حرج ، فقد كنت ذكرت له في سنة ١٣٩١هـ رؤيا منامية رأيتها ، ثم في سنة ١٤٠٨هـ أي بعد سبعة عشر عاماً ذكرت له رؤيا أخرى ، فقال لي على الفور: هذه الرؤيا تشبه الرؤيا التي

(١) لقاء المؤلف بالشيخين سليمان الخليلي وبدر اليعمدي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن أحمد الخليلي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن شحاته

رأيتها عام ١٣٩١ هـ ، يقول الشيخ سعيد : لقد نسيتها أنا وذكرني هو بها^(١) وحدثني الشيخ بدر اليمودي بما يشبه هذه الحادثة إلى حد بعيد ، قال : رأيت مرة رؤيا فقصتها على الشيخ ، ومرت السنون فنسيت الرؤيا ، فلما زارنا الشيخ في بلدنا حدثني بالرؤيا ، وسألني أتذكرها؟ قلت : لا ، فقد حفظها هو ونسيتها أنا^(٢) وحدثني الشيخ زياد ابن طالب المعولي ، قال : لما كنت أدرس بالأردن قرأت كتاباً قديماً نادراً بمكتبة الجامعة يتحدث عن تأريخ اليمن ، فحفظت منه عدة آيات تتعلق بشرب القات منها :

مداعتي^(٣) أنيستي جليستي في وحدتي

تقول في كررها بالله خذني بالتي

وفي عام ١٩٩٦م عقدت ندوة مازن بن غضوبة ، وقد ذهبنا إلى سمائل ، فعرض الحديث لموضوع القات ، فذكر الشيخ الأبيات كاملة ، فتمجبت كيف عثر الشيخ على الكتاب ، وكيف يحفظ تلك الأبيات ، لولا كثرة اطلاعه ، وقوة حفظه ، ربما لما يشاء حفظه وما لا يشاء^(٤) . والمواقف الدالة على ذلك كثيرة ، أما النباهة والذكاء فإني أترك للمواقف التالية المجال لتفصح عن ذلك :

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سعيد بن حمد الحارثي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ بدر اليمودي

(٣) المداعة هي الشيثة

(٤) لقاء المؤلف بالشيخ زياد بن طالب المعولي

يقول الشيخ زياد المعولي زارنا الشيخ الخليلي في المعهد أيام الامتحانات النهائية ، وكان ذلك قبيل إخراج نتائج الامتحانات ، فأعطيت الشيخ الكشف المفصل لدرجات الطلاب ، وكان هذا الكشف يحوي درجات امتحان منتصف الفصل والتقارير والمشاركة ودرجة الامتحان النهائي، ثم المجموع والنسبة المثوية، فأخذ الشيخ يقلّب صفحات الكشف، ويسرعة قال لي : هنا خطأ في النسبة المثوية، والصحيح كذا ، فحسبنا النسبة بالآلة الحاسبة ، فوجدناها كما قال سماحته . فتعجبت كيف كشف الشيخ الخطأ بتلك السرعة ، ونحن بحاجة إلى استخدام الآلة الحاسبة.^(١)

ومن نماذج الفطنة الحاضرة أن الشيخ - حفظه الله - عندما يلقي محاضراته ويستحضر أثناء إلقائه حادثة مرّت عليه ، أو قصيدة قرأها في المصدر الفلاني ، سرعان ما يقوم الشيخ بعملية حسابية مذهلة ، دون توقف عن الحديث ، فيقول مثلاً: في زيارتي للصين منذ كذا سنة ، أو قرأت في المجلة الفلانية عام كذا ، أي منذ كذا وكذا من السنين ، فهو يقوم بتذكر السنة أولاً ، ثم يقوم بطرح العام الذي قرأ فيه من العام الذي يتحدث فيه بسرعة فائقة ؛ فيعطيك مقدار السنين التي مرت عليه من تلك الحادثة إلى وقته ذلك . وقد لمسنا فيه ما أكرمه الله به من حضور البديهة باستمرار ، ولو كان في وقت متأخر من الليل ، بله في أوقات الصباح مثلاً ، ومن أجوبته المفجعة ما كان من ردّه على الشيخ ابن باز ، عندما دعاه الشيخ الخليلي إلى المناظرة فأبى ، يقول سماحة الشيخ : فقلت له : رأيت أن لو جاءك يهودي أو نصراني أو صاحب مبدأ آخر ، وجادلك في الإسلام أما

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد بن طالب المعولي

كنت توافقه على النقاش العلني؟ قال: نعم، لأن في ذلك دعوة إلى الإسلام. قلت له: وفي هذا أيضاً دعوة إلى الإسلام التنظيف الخالي من البدع والشبهات. فقال: إن أصحاب البدع لا ينفكون عن بدعهم مهما كان الأمر. فقلت له: لقد تبين ذلك من موقفكم الآن الذي وقفتموه، وأخيراً بعد أخذ ورد، أصرّ الشيخ إصراراً على موقفه الرافض لما دعوته إليه، فقلت له: إن هذا الإصرار لا يمكن أن يفسر إلا أنه إفلاس من الحجة، وعجز عن إقامة البينة، فإن صاحب الحق لا يكون هيأباً ولا جباناً، بل صاحب الحق يجرؤ على إظهار الحق الذي يعتقدُه. (١)

ومن ذلك أنه يلحظ الأمور بمنتهى الدقة لكل معارفه، حتى إذا رأى أحدهم جاوز الحد، أتاه بلطف وبشاشة ليسرد له تاريخ حياته، وجميع المواقف المتضاربة التي مر بها ليصل به في النهاية إلى صحة ما توصل إليه من ملاحظة يطلب منه أن يصحح مساره بعدها، ويعود إلى جادة الصواب، ويثوب إلى الرشد، ويتخلص من تلك المعاييب. ولذا لا يستطيع أحد كائناً من كان أن يصطلي بناره، أو يحوم حول حماه، لأنه سيلقى ما لم يكن في حسابه، وكل من سوّلت له نفسه مناوشته. فيما يتعلق بمصلحة الإسلام. لقتّه درسه البليغ، ولا حاجة لذكر الأسماء هنا، ولأجل الأجيال القادمة أذكر أنني كنت ذات مرة أتحدث مع الشيخ؛ فجرّنا الحديث إلى مسألة فقهية، واستطرد الحديث إلى ذكر شخصية كبت في ذلك الموضوع، وقد عابت الرأي الذي يذهب إليه الشيخ الخليلي. حفظه الله. بأسلوب لا ينبغي أن يكون، وكان رأي الشيخ هو الأسلم

(١) الرد على فنوى الشيخ ابن باز، محاضرة بجامعة السلطان قابوس، بثها التلفزيون العماني

، وهي محاضرة متشرة مشهورة متداولة.

في الدين والدنيا، وهو رأي كثير من العلماء، في كثير من المذاهب الإسلامية، قال الشيخ: فأرسلت إليه، لئن لم تنته ستلقى المصير نفسه الذي لقيه فلان، فانتهى والحمد لله.

مكاتبه العلمية

لا شك أن الاجتهاد والحرص على طلب العلم قد صيّرنا من الشيخ عالماً كبيراً، راسخاً في العلم، متضلّعاً لا يشق له غبار، وتتبدى ظواهر ذلك في الكثير من المواقف في القديم والحديث التي أشير إلى بعض منها:

يقول الشيخ سعيد بن حمد الحارثي فيما قبل ١٩٧٣ بقليل جئنا لزيارة والدي في مسقط، في خلال زيارتنا تلك جاء الشيخ أحمد الخليلي يزور والدي، وفي المجلس بدأ الشيخ يتحدث ويفيض علينا من بحار علمه، وكان هناك أخي سالم بن حمد، فقال والدي لسالم: تعال سالم، تعال شوف العلم .. على هيئة المباهي بالشيخ، يدعوا سالماً لينظر كيف العلم؟^(١)

ومن ذلك ما أخبرني به الشيخ أبو الحسن شحاته، قال: "كُلفتُ بتحقيق كتاب الشيخ أبي سعيد الكدومي " الاستقامة " وكان الشيخ في مكتبة الجامع مشغولاً بالقراءة، فطلبت منه مقدمة عن حياة المؤلف، فأخذ الشيخ الدفتر مني وتناول القلم، وبدأ يكتب من ذاكرته .. فلماً أنهى صفحاتين قلت: الحمد لله

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سعيد بن حمد الحارثي

تكفي صفحتان ، ثم الحمد لله هما ثلاث .. فكتب لي أربع عشرة صفحة ، ثم عاد إلى عمله ، ولم يأمرني بالعودة تعال في غد ، أو بعد غد أو كذا.^(١)

ومن مروياته أيضاً ما حدثني به قال :

وردت إلي ثلاث أسئلة من علماء (مصر) عن :

- شهادات الاستثمار الفئة (ج).

- حكم كلمة "يحیی الهلال مع الصليب"

- الدين لله والوطن للجميع - لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.

لأن علماء مصر يبحثون عن عالم مخلص لا يخاف في الله لومة لائم ، فجلست مع الشيخ في غرفة منعزلة ، وأجاب عليها في أشرطة سمعية لمدة ثلاث ساعات متواصلة.

وقال: كنت أدرّس التفسير لطلبة المعهد، وعند الإشكاليات نرجع إلى سماحته ، فلاحظت أنه يجيب من الذاكرة وبالتفصيل ، فلما أخذنا قوله تعالى: {ما نسخ من آية ... } رأينا أبا مسلم الخراساني ينكر النسخ ، فقال أحد الطلبة: نسأل الشيخ عن الرأي الصحيح ، فبعد صلاة المغرب ، بعد المصافحة للشيخ كان معنا الشيخ زهران البراشدي وهو طالب يومئذ ، وسألنا الشيخ الخليلي قائلين: إن بعض العلماء ينكرون النسخ ، فرد الشيخ مباشرة: لقد ردّ عليهم أبو زهرة في كتابه الفقه على المذاهب الإسلامية الجزء كذا ، صفحة كذا ، فُهِتُ من شدة حفظه. ومرة كنت أشرح قول الله تعالى: { وآتوا حقه يوم حصاده } فمعظم علماء المذهب يرون أنه في الأصناف الستة ، في حين أن بعض الباحثين يرون أن يصرف النصّ لصالح الفقير ، فسألنا الشيخ ، فقال الشيخ: إن علماء

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن شحانة

المنهّب تكلموا في هذا الموضوع، فقال بعضهم كذا، وبعضهم كذا، واستمر بما يزيد على نصف الساعة يجيب على هذا السؤال ارتجالاً.^(١)

ومما يدور في هذا الفلك ما قرأته لسماحته في كتابه "جواهر التفسير" وكتابه "الحق الدامغ" وكتابه "وسقط القناع" فضلاً عما تحوي من علم رصين، ومناقشات واحتجاجات تعكس مكانته العلمية، لا يخلو الكتابان من إيجاعات جاءت عفوَ الخاطر تدل بوضوح على المكانة العلمية السامية التي يحتلها سماحته، فمن ذلك قوله في كتابه "وسقط القناع": "وأتحدى بما أورده هنا من النص الذي قلته في الحق الدامغ الحشوية أن ينقضوا هذا الكلام جملة جملة إن كانوا صادقين بأنهم على حق، وأن الذي قلته باطل"^(٢) وقد نقلت هذا التحدي وسائل الإعلام العُمانية، واطَّلِع العالم عليه، ولم يحرك أحد ساكنًا، ومن النصوص التي أشرت إليها سابقاً ما جاء في جواهر التفسير بعدما أورد الشيخ ما قيل في هاروت وماروت من أقوال المفسرين وأطال فيها ثم قال: "هذه خلاصة ما قيل في قصة هاروت وماروت وما أشارت إليه الآية في شأنها، والذي يتجه لي من المراد بها وشأنها خلاف كل ما قيل .."^(٣) ويأخذ في تفسير الكثير من المشكلات المتراكمة على الأفهام عبر العصور فيجلِّي غوامضها، ويقشع تراكماتها، وحسبنا من الدلالة على مكانته كونه مفسراً لكتاب الله تعالى، وما اشترطه العلماء في المفسر من الشروط الكثيرة، وليس هذا المستوى من التمكن العلمي خاصاً بعلوم الشريعة، فالشيخ متضلّع إلى حد التشبع في علوم اللغة

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن

(٢) وسقط القناع، الشيخ الخليلي، ص ١٧

(٣) جواهر التفسير ١/ ٥١

والأدب، والثقافة العامّة، والبلاغة والبيان، أخبرني الشيخ زياد المعولي قال: حكى لي صالح محمود نهيّة، وهو متخصص في النحو، قال لي: ما كنت أعتقد أنني سأجد خطيباً في عُمان بهذا المستوى، فقد كنت أبحث عن سقطات محوية لدى الخطباء والمحاضرين، وكنت حريصاً على التقاط سقطه لدى الشيخ الخليلي؛ فما وجدت إلى ذلك سبيلاً، ولذلك كنت أحرص على حضور دروس التفسير، وأتي إليها من مسافة بعيدة، لأنني لا أجد لغة سليمة عند بقية المتحدثين. وكنت في عام ١٩٩١م في الكويت، وقد عقد مؤتمر اللجنة العليا لاستكمال تطبيق الشريعة الإسلامية في دولة الكويت، كانت هناك جلسة للاقتصاد الإسلامي من ضمن أعمال المؤتمر، واجتمعت بعدد كبير من العلماء، وتعجبت فالكل يسألني عن سماحة الشيخ، ويشيدون بعلمه وخلقه^(١) وليس في ذلك عجب، فالشيخ قد تكونت له شخصية علمية عالمية، قلت له: ذلك أكثر من أن يحصى، ويكفي ما أشار إليه الشيخ في رده على الطحان من الرسائل الكثيرة التي وصلت إليه، مليئة بالثناء، ولو نشرها لكانت كتاباً مستقلاً،

وأخبرني الشيخ زياد المعولي مرة عن اطلاع الشيخ الأدبي قال: كنا في رمضان فدعانا الشيخ للإفطار، وكان معنا أحد الضيوف من دولة قطر هو الشيخ المحمود، وكان معنا الشيخ فرحات الجعبيري، وذكر بيت شعر ذكره الشيخ المحمود القطري، وهو:

إن الثمانين وبلغتها
قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد المعولي

فصّلت الشيخ: أهذا البيت للبيد؟ قال: لا، هذا لعوف بن محلم، من شعراء العصر العباسي، ثم أتى على حياة عوف، فما ترك فيها شاردة ولا واردة، ثم قرأ القصيدة كاملة، وجاء بنوادر في حياة الشاعر. ثم عدت إلى البيت، وكان عندي كتاب معجم الأدباء لياقوت، وبحثت عن ترجمة عوف، وأخذت أقرأ ترجمته، فما وجدت الشيخ غادر شيئاً مما كتب عنه، وكأنما كان الشيخ يقرأ من كتاب ياقوت، فدهشت تلك الليلة.^(١)

وحسب الإنسان أن يطلع على "جواهر التفسير" أو يسمع بعض محاضراته عن الأخطاء اللغوية، والأدب أيضاً، ليعلم يقيناً أي علم شامخ هو. وأود التعرّيج السريع على مقتطفات من رصانة الأسلوب وقوة السبك، وحسن انتقاء الألفاظ، ثم ما يشدها من التأخي، ويربطها من الوشائج البلاغية، مما يوحي بتمكّنه من ناصية اللغة، وتحكّمه بزمامها، يقول في جواهره عن تحدي القرآن العرب بأن يأتوا بسورة من مثله: "وما الذي منعهم أن يحشدوا فرسان البلاغة الذين لا يشق لهم غبار، وأئمة البيان الذين كانوا كأنما خلّقوا من مادته، واستخلصت أرواحهم من روحه، ليضافروا جهودهم على تليفق سورة من مثل القرآن"^(٢)

ثم قال عن الإعجاز القرآني: "فمن نظر إلى تلاطم مبانيه بأنوار معانيه، وقع في قرارة نفسه أن معانيه منساقاة لألفاظه ثم لا يلبث..."^(٣)

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد المعولي

(٢) جواهر التفسير ٥١/١

(٣) السابق ٦٢/١

فانظر إليه في النص الأول كيف اختار كلمة الحشد بدل كلمة الجمع، فقال يمشدوا ولم يقل يجمعوا، ثم شبه البلاغة بالخيل على سبيل الاستعارة المكنية، وشبه العرب بالفرسان المتصرفين فيها، المتمكنين من ناصيتها، ثم كتى بقوله: " لا يشق لهم غبار" عن مهارتهم في تطويعها حسب إرادتهم، وهي تطير بهم كالريح، مغلفة سحب النقع وراءها، ولا يستطيع أحد اللحاق بهم وشق غبارهم، إضافة إلى ما في ذلك من التناسب بين المشبه به وهي الخيل المثيرة للغبار مع سرعة جريانها، والمشبه وهو الفرسان في ساحة ميدان السباق، ثم جعلهم أئمة يُقصدون ويأتم بهم غيرهم، ثم أردف ذلك بتشبيه رائع، حين شبههم كأنهم خلقوا من مادة البيان، فاكسب البيان - وهو معنوي - صفة المحسوس، وأسبغ عليه الحياة، فجعل له روحاً، وهذه الروح استخلصت منها أرواح هؤلاء العرب البلغاء، والروح سر من أسرار الله، لذا اختار لها كلمة الاستخلاص، ولم يقل اشتقت أو اقتطعت أو نحو ذلك، لما في هذه الكلمة من إيحاء بالخلوص والإخلاص والخلاص بعد العناء؛ فالخلاصة هي ما استخرج بعد عمليات عدة متوالية، كل ذلك (ليضافروا) ولم يقل ليوجها، بما في هذه الكلمة من تعاون وحرص على النجاح وإحراز الفوز، ثم حكم على جهودهم تلك بأنها عمل زائف؟ إنه (تلفيق) ولن يعدوا ذلك، إنه تلفيق وحسب، وهذه الكلمة توحى بتشرب المعاني الدينية، والحكم الصائب على ما يمكن أن يكون من جهود، ومثل هذا في قوله: " تلاطم المباني بأنوار المعاني" ولدينا كلمتان يشكلان كل نص، المبنى والمعنى، الجسد والروح، فيختار لروح النص، كلمة الأنوار، إنها تضيء المبنى، وترشد السالك وتهدي الضال إلى سواء الصراط، فهي مضاءة في داخلها، متشربة بالنور، إنها مضيئة من بعيد للسالكين، ثم انظر إلى روعة الاختيار لكلمة التلاطم، أهي أمواج هائجة

تبعثها قوة داخلية دافعة للحركة القوية ، ثم تردفها أمواج أخرى ، ويمكنك أن تتصور ما يحصل حال التلاطم من حدث رهيب ، تلاطم الأنوار ذاتها أو تلاطم مبان نورانية ، ماذا سيكون الحدث؟ وهكذا تتلاطم أمواج القرآن النورانية دون انقطاع حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولا أريد الإطالة بالكشف عن شذا هذه الإجماعات المودعة في هذه اللآلي المعجونة بأنوار الإخلاص المتجلي في جنبات سياقتها، وحسبي أن أورد بعضاً من عقود الدرر الميثومة في ثنايا جواهر التفسير، يقول في مقدمة جواهره:

١- وكانت الفرص التي أتيت لي للقيام بهذا العمل كأنما انتزعها القدر

انتزاعاً من قبضة الدهر؛ فأهداها إليّ ، واختلسها الجد اختلاساً من

بين رقابة الزمن؛ فمحنني إياها، والحمد أولاً وآخرًا لله ^(١)

٢- ذلك لأن الناس مختلفون غير متفقي الحال في أي طور من أطوار الحياة،

فتجد أحدهم وهو في صفره يتفياً ضلال الراحة، ويتقلب على بساط

النعيم، حتى إذا بلغ طور الرشد لفتحته الدنيا ببؤسها، وكشّرت له

الأيام عن عصل أنيابها، وفرته الحوادث بأظفارها، بينما تجد غيره لا

يذوق في طفولته الراحة، وإن اشترك مع غيره من الأطفال في براءتهم

الفطرية ^(٢)

٣- وقد تستيقظ الفتنة بنبرة صوتها، وبرنة حليها، وبنفحة طيها، لما يترتب

على ذلك من خواطر نفسية ، تورق النفس وتقضُ عليها مضجعها،

وقد تثير هذه الأمور أنواعاً من الخيال تراود النفس بين لحظة وأخرى،

(١) جواهر التفسير ١٢/١

(٢) جواهر التفسير ١٤٧/١

حتى تتركها تهيم في أودية الخيال السحيقة ، فتفقد اتزانها وهل كانت
مآسي العشاق إلا بمثل هذه الأسباب؟^(١)

ويسبب هذه المكانة العلمية المؤيدة بالأسلوب الأدبي الرفيع ، والخلق
الإسلامي السامي ، المزكى بالإخلاص ، تجده يستحوذ مباشرة على نفوس
المتلقين ، فقد أخبرني ابنه أفلح بأن الشيخ ألقى محاضرة في باكستان ، فلما خرج
أخذ الناس يتدافعون إليه ، وأصبحت غرفته كخلية النحل من ازدحام طلبة
العلم^(٢) وحدثنا الشيخ خميس العدوي قال : لما ذهب الشيخ إلى السودان
مشاركاً في أحد المؤتمرات ، وتجلّى علمه وفضله للناس ، طلب منه العلماء هناك
أن يصلي بهم الجمعة في مسجد الجامعة بالخرطوم ، وهو من أكبر الجوامع في
السودان^(٣) وأخبرني ابنه عبد الرحمن الذي صحبه في أداء العمرة وقت كتابة
هذا البحث ، قال : كان العمال في الحرم المكي قد طووا السجاد من الصحن
المحيط بالكعبة المشرفة ، وقاموا بتفسيّل الأرض ، فلما جاء الشيخ سألتهم عن
إمكانية فرش سجادة لسماحته خلف المقام ، فأمر الضابط بفرش تلك الناحية
كلها إكراماً للشيخ ومن في صحبته .^(٤)

هكذا يكون سماحته في الملتقيات الثقافية ، والمؤتمرات الفقهية وغيرها ، فقد
أخبرني الشيخ خميس العدوي أيضاً عن موقف الشيخ في مؤتمر " التقريب بين
المذاهب الإسلامية " فقال :

(١) جواهر التفسير ١٠٦/١

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح الخليلي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي

(٤) لقاء المؤلف بعبد الرحمن بن أحمد الخليلي

" في مؤتمر "التقريب بين المذاهب" الذي انعقد في سوريا برعاية جمعية الإمام الخوئي، و برئاسة عبد المجيد بن الإمام الخوئي، وفي إحدى جلسات المؤتمر كانت رئاسة الجلسة لسماحة الشيخ، فقام شخص من أهل السنة وتكلم على الشيعة كلاماً شديداً في كثير من القضايا، وفي المقابل كان الرد من علماء الشيعة الحاضرين عليه رداً - ربما - أكثر في القوة والمقدار من كلام الرجل المردود عليه، واشتدت الأزمة بين الطرفين، فتدخل الشيخ لأجل حسم النزاع، وقال: علينا أن نتأدب مع الصحابة ومع آل البيت بالأدب الإسلامي الرفيع، وتكلم كلاماً رتق به الفتق الحاصل، ولمّ به الشمل، وكان الخطاب مؤثراً، جعل العلماء يعجبون به، ويشنون على مهارته وقدرته على حسم النزاع مع اجتماع الكلمة، وما يتميز به من فكر نير يلمّ شعث الأمة ويوحّد صفّها، مع أنه طرف ثالث من حيث المذهب، وأخذوا يرددون ذلك الثناء حتى نهاية المؤتمر ^(١) تلك هي الحكمة في التبليغ والإصلاح، ويدور في هذا الفلك ما أخبرني به أفلح وغيره قال: شارك الشيخ مرة في أحد مؤتمرات المسلمين التي انعقدت في الاتحاد السوفيتي سابقا، وفي إحدى جلسات المؤتمر قام أحد المشاركين من إحدى الدول العربية بإلقاء كلمته التي كانت مليئة بالتضليل والتبذيع للمسلمين، وما فشا فيهم من الشراكيات، مما أدى إلى استياء الجميع وخصوصاً القائمين على المؤتمر الذين كانوا ينتظرون من إخوانهم اللطف بهم وشدّ أزهرهم في الثبات على مبادئ الإسلام أمام أمواج الكفر والفتن العاتية في تلك البلاد، فأحسوا بالإحباط، وهبوط المعنويات، فلما جاء دور سماحة الشيخ في إلقاء الكلمة،

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي

قام وشد من أزر المسلمين هناك ، وطوّف بهم على أمجادهم السامقة التي شادها علماءهم ، وذكرهم بتاريخ أسلافهم الأماجد ، وعدد لهم الكثير من أسماء علماء تلك البقاع البارزين ، ونوّه ببعض المواقف المضيئة التي ساهموا بها في بناء صرح حضارة الإسلام الشاخنة ، ودعاهم إلى التآزر فيما بينهم ؛ لتكون جبهتهم قوية مكينة أمام الأعاصير التي تهب عليهم من بلاد الكفر لأجل استئصالهم ، واقتلاع جذورهم ، وحثهم على العلم بالشرعية ليستطيعوا اجتثاث كل ما يخالف أمر الله ورسوله في شتى مجالات حياتهم ، فلما انتهى من كلمته تلك ضجت القاعة بالتكبير . لله أنت أيها الشيخ ، لا ندري مم نعجب ؟ أمن حكمتك التي رتقت بها الفتوق المتسعة ؟ أم من سعة علمك واطلاعتك ورحابة آفاق وعيك ؟!

ومن ناحية أخرى فإن المطلّع على كتابه "جواهر التفسير" يملكه الإعجاب بفكر الشيخ ومنهجيته وعلمه ودقة تفسيره ، ولذا تجد الكثيرين ممن اطلعوا عليه ، حرصوا على اقتناء نسخة منه خصوصاً أساتذة الجامعات في خارج عُمان وداخلها.

أخلاقه:

مما لا شك فيه أن الله تعالى يصطفي من يشاء من عباده ؛ ليخصهم ببعض إكرامه ، والعلماء من أولئك الذين اختصهم الله بهذه الكرامة ، ثم يخصّ من هؤلاء العلماء من يشاء بالعمل بعلمه والإخلاص في ذلك لوجه الله ، فيكونون بذلك هداة مهتدين ولا عجب أن تجد تفاوتاً بينهم في هذه المزايا على قدر

همهم وعزائمهم في الاغتراف من بحر العلم، وترجمته واقمًا حيًا في جوانب حياتهم كلها، حتى تتحوّل جميع سلوكياتهم من حركة وسكون إلى قرآن ينبض بالحياة في واقعهم المعيش، وهذا ما يلمسه كل من اتصل بالشيخ الخليلي في أي شكل من أشكال الاتصال، والذي يبدو جليًا لا غبار عليه أن سماحة الشيخ أحرز قصب السبق في الكثير من السمات، والذروة في الخلق والمعاملة، والقمة في حسن الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام، ويمكن الإشارة هنا إلى بعضها من خلال ما يحكيه معاصروه، لتكون نبراسًا لمن أراد الاقتداء، وسراجًا لمن أراد الاهتداء.

الحلم والأناة:

يتعرض الشيخ لكثير من المواقف الصعبة التي لا يكاد يحتملها إلا من هم على شاكلته، كالأحنف بن قيس ومن يدور في فلكه. فمن هذه المواقف الدالة على حلمه وصفحه وأناته ما كان من موقفه -حفظه الله- يوم وفاة ابنه عبد الله وكان طفلاً صغيراً، حيث دهسته عجلات السيارة التي يقودها سائق مركبة الشيخ، وهو رجل بنجالي، وكان الشيخ يومذاك في مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة في شهر رمضان المبارك عام ١٤١٢م، فقامت الشرطة باحتجاز السائق، ولما أبلغ الشيخ الخبر استرجع وحوقل، ثم سأل عن السائق، فقيل له إنه في الحجز، فقال: أخرجوه فوراً وعفا عنه.

وأخبرني الشيخ خالد الخوالدي، قال: في إحدى أيام رمضان، كان الشيخ في الزاوية الشمالية من الجامع يتلو كتاب الله، إذ جاءه رجلان من غير العرب،

بأيديهما أوراق ، وطلبا منه أن يقضي لهما حاجتهما في تلك اللحظة ، وقد قطعنا عليه تلاوته ، فقال لهما بأدب ولطف : أنا مشغول الآن ، وعليكما أن تكتبنا حاجتكما في رسالة ، وعليّ بعد ذلك أن أوجهها إلى الجهة المختصة ، وكان الكلام لم يعجبهما ، وأخذا يشرحان القضية من جديد ، فقال الشيخ : لقد فهمت القضية.. ولكني الآن مشغول بتلاوة القرآن ؛ فاكبنا الرسالة وسأقوم بدوري بتوجيهها إلى المختصين ، فقال أحدهما : " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم..." فاحتمل الشيخ منهما وقال : نعم.. أفهم هذا.. وقام الشيخ ووجههما إلى شخص آخر يكتب لهما الرسالة.^(١) وقد يصدر مثل هذا الموقف ممن هم من رجال الاستقامة والدعوة ، يقول الشيخ خليل بن أحمد جاء مرة أحد الإخوة برسالة يطلب فيها عوننا ، فقال له الشيخ : اترك الرسالة عندي وأنا بدوري أتخير الوقت المناسب ، وبالأسلوب المناسب لمخاطبة المسؤولين في الدولة بهذا الطلب ، فقال الأخ : لا ، سأذهب معك ، لا بد أن نضغط عليك ، والشيخ ملتزم حلمه المعهود.^(٢)

وكم مرة اعتدى عليه بعض الأشخاص ، ولكنه يحلم عنهم ويصفح ، ولا يعاقبهم بشيء ،^(٣) مع قدرته عليهم ، والبطش بهم ، وقد شاهدتُ بنفسي مرة شيئا من هذه المواقف ؛ فقبيل إقامة صلاة الفجر في إحدى الأيام عندما وصل الشيخ وأراد صلاة السنة نهض رجل أعجمي من الجالسين هناك - يبدو أن به خللاً عقلياً - واحتضن الشيخ ، وبقي يحتضنه مدة ، وظننت في نفسي أنها نوع

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خالد الخوالدي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ خليل بن أحمد الخليلي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ عاشور بن يوسف

من العاطفة الدينية عند هؤلاء ، وضرباً من التعبير عن المحبة والولاء للعلماء والصالحين ، ثم قال له الشيخ: اتركني أصلي، فما تركه ، هناك نهض إمام المسجد وأخذ يبعد الرجل عن الشيخ ، فإذا بالرجل يترك الشيخ ويحتضن إمام المسجد ، ويضغط عليه حتى صرخ الإمام ، فنهض الشيخ حارب المحروقي ليعده عنه ، فإذا بالرجل يحتضن الشيخ حارياً ، ولكنه تلقاه بصدر رحب ، فقد رزقه الله بسطة في الجسم ، واعتنق الرجلان عناقاً حاراً وكانهما حبيبان فرّق الدهر بينهما حتى ظنّا أن لا تلاقي ، وارتفعت قدما الرجل الأعجمي عن الأرض ، وذهب به الشيخ حارب إلى الجدار الخلفي للمسجد ، ونهض الناس لينقذوا الرجل من بين برائته .

ومن مرويات الشيخ عاشور قال: كنّا ذات مرّة عند الشيخ في بهلا على مائدة الغداء، وقد أعد الطعام أمامنا ولم نلتفّ حوله بعد، ننتظر الشيخ حتى ينتهي من إجابته على مسائل رجل متملق، ينادي الشيخ بسيدي الشيخ، ثم يسأل: ما قولكم في البول والغائط إذا كان كذا وكذا، والشيخ يجيب، ما قولكم في العذرة إذا سقطت في كذا، وغيرها من الأسئلة التي تقطع الأكباد، حتى فرغ من أسئلته، والشيخ صابر صامد، ويعد الغداء عاد مرة أخرى إلى أسئلته، فسألت عنه؛ فقليل لي: إنه من أصحاب النفوس الضعيفة ولكنه يظهر بهذا المظهر للتملق، فعجباً من حلم الشيخ وصبره واحتماله.^(١)

ومن مرويات الشيخ ناصر السابعي قال: قلت للشيخ ذات مرة: سماحة الشيخ، حاول أن تخصص وقتاً للكتابة لا تخرج فيه للناس، فتبسّم الشيخ،

(١) لقاء المؤلف بالشيخ عاشور بن يوسف

وقال: أتاني مرة أحد القضاة بقضية مشكلة، وكنت أبحث في المسألة في مكتبي، فجاء أحد الناس ودخل المجلس، ووجد أحد الأولاد، فسأل عني، فقال له الولد: والدي مشغول وسيأتي بعد قليل، فقال أنا أريده، فقال: سيأتي بعد قليل، فجئت، فقال لي الرجل: أخبر حجّابك بأن لا يمنعوا عنك الناس^(١) ومع ذلك يبقى الشيخ لا يرى نفسه ذا صبر واحتمال، فقد كنا مرة جلوساً في جامع السلطان قابوس بروي، وسرد لنا الشيخ طرفاً من صبر الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري، ثم قال: الناس اليوم محتاجون مثل صبر الشيخ إبراهيم واحتماله، ولكن من اليوم فيه مثل ذلك الصبر؟.

وروي لي الشيخ سليمان الخليلي قال: كان ممن حضر مجلس الشيخ بعض أهل المكانة في العصر الحاضر ممن كان والدهم على استقامة وفضل وسير حسنة محمودة، ولم يكن أبناؤه الحاضرون على نفس السيرة، فأخذ الشيخ يتحدث في سير الأئمة والصالحين ويبين فضائلهم، ثم عرّج الشيخ على السيرة الحسنة لوالد أولئك الحاضرين، وكان بين الحاضرين رجل عامي فقال: أولئك الرجال كانوا في زمن الإمام الخليلي، وفي زمانك أنت خرج الذين لا ينفعون بشيء، فقال الشيخ: أحسنت، وجزاك الله خيراً. لقد تفهم الشيخ أنه عامي، فلم يغضب عليه، ولا اعتبر كلمته مسبة، بل أحسن إليه وقال له: لقد علمتني درساً في الحياة لن أنساه، وكان الشيخ كلما لقي ذلك الرجل يقدره ويناديه بالأستاذ، وعندما يزوره، يقوم الشيخ بمرافقته إلى خارج المجلس^(٢).

(١) لقاء المؤلف بالشيخ ناصر السابعي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان الخليلي، ويبدو لي أن التعبير قد خان الرجل، ولعله يعني أن

القدر لم يسعفك أيها الشيخ بما أسعف به الإمام الخليلي - رحمه الله .

ومما شهدته من المواقف المشابهة لهذا، إذ كنا مرة في مجلس الشيخ، فسأل سائل عن رجل عليه ديون للبنك ويريد الحج، أيجب أم يقضي دينه؟ وكان في المجلس رجل كبير في السن من العوام، فقال: أنا أجيب بدل الشيخ، يقضي دينه ثم من بعد يذهب إلى الحج، فما تكلم سماحة الشيخ.

ومرة كان الشيخ يحدثنا عن كتاب صدر حديثاً أعجب به الشيخ، ثم أمر أحد أولاده بإحضار الكتاب، فأحضره، فأخذ الشيخ يقرأ فيه بسرعة، فقال رجل من الجالسين: أيها الشيخ أنا لا أفهم ... د.د. د.د. د.د. ليش كذاك.. شوي شوي .. فقال الشيخ: إن شاء الله.

ولا أعظم من ذلك الموقف الذي وقفه مع الشيخ ابن باز الذي ضلَّه وبدَّعه، وقد كان الشيخ الخليلي في ضيافته،.. وسماحته لم يخرج عن حلمه المهود، بل كان يرد عليه بثبات وحرصاً تسندها قوة الحق وهيبته.

والشيخ لا يفضض لنفسه غالباً وإنما غضبه لله تعالى وحده، فإذا ما انتهكت محارم الله، أو تعدى أحد على أحكامه، رأته مفضباً لا يحنس في الله لوماً ولا عدلاً، ولا يقر قراره حتى يؤدي واجبه، من تبين الحق للجاهل، أو قمع استكبار الزائف، كما سيأتي بيانه لاحقاً.

الغضب لله:

من المعروف المشتهر عن الشيخ حفظه الله، حسن المعاملة، ودماثة الخلق، والحلم والتواضع إلى آخر تلك السلسلة الرفيعة من الخلق الإسلامي، وربما جعل ذلك بعض الناس لا يحترزون من تعدي حرمان الله أمامه، جهلاً أو عادة جروا عليها، وربما أوقعهم في ذلك ما يعيشونه من الأفس في مجلسه، وما

يظلمهم من الأريحية في مجاذبة أطراف الحديث معه، لكن الشيخ لا يداري أحداً مهما كانت مراتبه، ولا يجامل أحداً مهما علت منزلته؛ إذا ما تعدى على حرمان الله تعالى، بل يغضب غضباً يحمر معه وجهه، ويعلو في بعضها صوته، وترتعد فرائص من حوله فرقا، ناهيك بمن كان سبباً في غضبه، وحينها لا يقترب أحد من حماه، وكما يقول الشاعر:

هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا على الدرِّ واحذره إذا كان مزيدا
وما أجمل قول الآخر:

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم إني أخاف عليكم أن أغضبا
والأمثلة على ذلك كثيرة، وأبدأ بمرحلة الصغر، فقد أخبرني الشيخ سليمان بن سيف الخليلي، قال: عندما كان الشيخ في العاشرة من عمره تقريبا، وقد ترسخت فيه معاني التقوى، كنت أنا وإياه نجلس تحت عريش خارج البيت بزنجبار، نتجاذب أطراف الحديث، ثم تتابني رغبة في سبر غور غضبه لله، فأقول كلمة لا ينبغي أن أقولها، لا لشيء سوى إغضاب الشيخ، فينصحنني، فأرد عليه كأنني غير مبال، فيشتد غضبه عليّ ويشتد في كلامه؛ فأقوم عنه وأتركه، ولا يلبث حتى يتبعني، ويعتذر إليّ قائلاً: أنت دائما تسبب في إغضابي فاعذرني، فنعود كأن شيئاً لم يكن^(١)

ومما شهدته بنفسي من مظاهر الغضب لله أن كنا مع سماحته في جامع السلطان قابوس بروي منذ سنين بعد صلاة العشاء، فجاء رجل عربي من غير أهل عُمان، وطلب الانفراد بالشيخ صوب المحراب، فابتعدنا عنهما قليلاً،

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

وأخذ الرجل يتحدث والشيخ يسمع، ثم رأينا الشيخ قد نام على جلسته فترة، ثم استيقظ، وبعدها أخذ في الحديث نسمع الصوت ولا نتيبناه، وكنا صحبنا الشيخ إلى داره، فاعتذر لنا عن تأخره وأخبرنا القصة، قال جاء هذا الرجل يتشفع وأخذ يمدحني حتى نمت، ثم استيقظت وهو ما يزال يمدح، فاستوقفته، وقلت له: ما الموضوع فأني لست كما تصفني، فأني أقل من ذلك، فقال: هناك طالبة تذهب إلى المدرسة في الحافلة، وقد ارتكبت الفاحشة مع السائق، وقامت الوزارة بحرمانها من الامتحانات عقاباً لها، وجئت متشفعاً لها أن تخاطب الوزارة لتسمح لها بأداء امتحاناتها، وكان هذا الرجل مع الأسف يعمل إماماً في أحد المساجد، فغضب الشيخ غضباً شديداً، وقال له: جئتني لأتشفع في حد من حدود الله، ألا تدري ما حكم الله تعالى فيها؟! إنها لم تنل جزاءها، لا بد أن تجلد مئة جلدة، ذلك حكم الله، وأخذ الشيخ يهدر كالرعد القاصف، فانقلب الرجل إلى الاتجاه المعاكس تماماً، وقال للشيخ: نعم إنها لم تنل جزاءها، وهو كما تفضلتم، فأنتم كذا، وأنتم كذا وكذا، ورضي الرجل من الغنيمة بالإياب من بين برائته - حفظه الله.

ومما حدثني به الشيخ صالح الربيعي قال: جاء الشيخ مرة إلى "بهلا" لكي يصلح بين فريقين متخاصمين عندنا، ولما اجتمعوا في المجلس كان في أحد الفريقين رجل معاند رافض لمبدأ الصلح من أساسه، ومصر على موقفه على الرغم من خطئه الواضح، وحاول الشيخ إقناعه وهو يزداد إصراراً، وخشي الشيخ أن تتفرق الجماعة المسلمة بموقف الرجل الرافض للصلح، فغضب الشيخ، وأخذ يضرب بعصاه الأرض واشتد في خطابه؛ فنهض الناس إلى

الشيخ وقبضوا على العصا ، خوفاً على الرجل منه ، ولكن الرجل تراجع عن موقفه حين رأى ما رأى من غضبه حفظه الله تعالى .^(١)

ومما حدثني به الأخ محمد الرشيدى قال : كنا في الجامع فجاء شاب يلبس عمامة ، ويديه رسالة ، وكان مع الشيخ ابنه سليمان ، فدفع ذلك الشاب الرسالة إلى الشيخ يتشفع فيها لأحد الطلبة المفصولين من إحدى المؤسسات التعليمية لأسباب مقنعة ، وكان الشيخ على دراية بجوانب الموضوع كله من قبل ، فلما قرأ الرسالة غضب الشيخ ، والتفت إلى ذلك الشاب ، وأخذ يوجه إليه كلاماً شديداً ، وقال له فيما قال : اخلع هذه العمامة ، فإنك لست أهلاً لها ، أمع كل هذا تلبس العمامة..؟! وكان سليمان يرتعد فرقاً خلف الشيخ ، فسألت سليمان : ما الذي أخافك ، ولا صلة لك بالموضوع؟ فقال : لما رأيت الشيخ في ذلك الحال من الغضب ، خفت على نفسي أن ينالني شيء منه .

ومن المواقف التي شهدتها إذ كنا في مجلس الشيخ بعد صلاة العشاء ، وكان على يمين الشيخ رجل عامي ، وكان الشيخ ييادله بعض الأحاديث ويسمع منه ، ثم أتى بالقهوة ووضعت الفواكه واستدرنا حولها ، وأخذ الشيخ يحث ذلك الرجل على الأكل بين الحين والآخر ، فعرفنا مكانة الرجل عند الشيخ ، وإن كان الشيخ - عادة - يعامل الجميع باحترام وتقدير ، فلما صببت القهوة في الفناجين ، أثار الشيخ الرجل ، وقال له : تفضل ، فقال الرجل : حرام أخذ قبلك ، فقلب له الشيخ ظهر المجن . وقال مغضباً : أتحرم ما أحل الله؟ من أين لك

(١) لقاء المؤلف بالشيخ صالح الربيعي

ذلك؟ وتلا قول الله تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام...} ونصحه أن لا يعود لمثلها أبداً.

ومما حدثني به الشيخ عيسى بن يوسف البوسعيدي، قال: كنا في مكتب سماحة الشيخ، وكان معنا الشيخ سعيد بن خلف الخروصي مساعد المفتي، فدخل رجل يستفتي في مسألة عجيبة غريبة في الطلاق، فابتسم الشيخ سعيد بن خلف، فلما ابتسم التفت إليه الشيخ الخليلي مغضباً، وقال: أتضحك؟! أهذه مسألة يُضحك منها؟! فقال الشيخ سعيد: لا يا سماحة الشيخ، ولكني فيما اطلعت عليه من افتراضات الفقهاء الكثيرة، لم تمر عليّ هذه المسألة قط".^(١)

ومما يشبه هذا ما رواه لي الشيخ بدر اليمحمدي قال: كنت مرة في مكتب سماحته فجاء رجل يستفتي في مسألة طلاق زوجته وقد طلقها ثلاثاً دفعة واحدة، فقال له الشيخ: لِمَ ذلك؟ فقال بعد كلام: المعلم الفلاني كتب لي هذه الورقة في طلاقها بالثلاث، فلما رأى الشيخ الورقة غضب غضباً شديداً، وقال لمنسّق مكتبه: اتصل الآن بمكتب قاضي الولاية، وليطلب فلان بن فلان، لا بد أن يحاكم وينال جزاءه، أريد أن أكلم القاضي، وخاف الرجل المطلّق على ذلك الرجل المعلم، وقال للشيخ: ليس من المعلم اتركوه أرجوكم، مني أنا ليس منه، فقال الشيخ للرجل: أنت عليك أن تذهب لتبحث عن زوجة أخرى، ولا دخل لك بموضوع متابعة المعلم، لماذا ترجعون

(١) لقاء المؤلف بالشيخ عيسى بن يوسف البوسعيدي

إلى الجهلة الذين لا يعلمون من أمور الدين شيئاً؟ يقول الشيخ بدر: وقد خفت على نفسي حين رأيت ذلك الغضب الشديد^(١)

ومن ذلك ما أخبرني به أحد الأخوة الثقات ، قال : كنا في أحد المجالس ومعنا الشيخ الخليلي ، وطرحت قضية وقع فيها أحد الأشخاص ، وكان لأحد الناس المعروفين موقف فيها ، فشعر الشيخ بالأسى حين علم بذلك ، فقلت للشيخ : هذا رأيه ، وما زدت على تلك الكلمة ، فهبَّ الشيخ من مكانه ورفع صوته قائلاً : هذه مسألة دين لا مسألة رأي ، فقلت خائفاً : إن شاء الله ، إن شاء الله .

ومن مرويات الشيخ عيسى بن يوسف أيضاً قال : حضرت مجلس الشيخ وحضر رجل مع امرأته المطلقة ، وكان الرجل مسناً ، فذكرت تلك المرأة للشيخ ، أن مطلقها يعشق امرأة أخرى عشقاً عظيماً ، وقد بلغ به الحال أنه يصلي على تلك المرأة ، ولم يردَّ الرجل بشيء ، ويعد أن بحث سماحته القضية وثبت له ذلك غضب - حفظه الله - حتى احمرَّ وجهه احمراراً شديداً ، وأخذ يعنف الرجل قائلاً له : أبلغ بك الحال أن تصلي على امرأة ، ألا تتقي الله ، ألا تتقي الله...^(٢)

ومما حدثنا به الشيخ خميس العدوي ، قال : كنا في مؤتمر عقده المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة ، عُقد هذا المؤتمر في العراق عام ١٩٩٠م ، فجاء صحفي لمجلة الوطن العربي ، التي تصدر في باريس ، وأخذ يسأل الشيخ ،

(١) لقاء المؤلف بالشيخ بدر بن هلال البيحمدي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ عيسى بن يوسف البوسعيدي

ومحاول أن يتزع من سماحته ما يوليد فكرته المخالفة للفكر الإسلامي ، والشيخ له فكره الإسلامي الناصح ، فهو يعبر عنه ، وعما هو مقتنع به ، فلما عجز الصحفي عن أن ينال من الشيخ ما يريد قال كلمة سخر فيها بالفكر الذي يحمله الشيخ ، فغضب سماحته عليه ، وتناول منه جميع أوراقه المكتوبة ومزّقها .

ومن رواياته أيضاً قال : كنا في بيت الشيخ في بهلا ، فجاء شخص من نزوى وعنده مريض ، وطلب من الشيخ أن يكتب له شيئاً من القرآن أو يقرأ على المريض ، فقال للشيخ : أنتم تنفعون وتضرون ، فغضب الشيخ وقال له : إن الله هو النافع وهو الضار وحده ، واشتد الشيخ وأمره بإصلاح عقيدته ، والرجل يكرر الجملة نفسها.. فسأله الشيخ هل تقرأ وتكتب ، قال : لا ، فأخذ الشيخ يردد : إن الله هو النافع وهو الضار وحده.^(١)

وهناك مواقف كثيرة غضب فيها الشيخ غضباً شديداً حين رأى انتهاك حرمان الله ، وغير منكرها ، والحاجة في نفسي أضرب صفحاً عنها .

تواضعه:

الحديث عن تواضع الشيخ أمر يطول ويصعب في آن واحد ، يطول من حيث إن سماحته قطب علمي تدور حوله مشكلات العالم ، ومن حيث المناصب الدنيوية هو مفتو لعمان ، وهو أعلى منصب ديني ، وبرتبة وزير ، ولا شيء من مخايل ذلك كله تتمثل أمام ناظره قط ، وجميع الناس يعلمون ذلك فتهابه نفوسهم ، ويصعب الحديث أيضاً من حيث إن سماحته ضرب أروع

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي

الأمثلة وأندرها على الإطلاق في تواضعه، بحيث إن الإنسان يكاد أن يكذب ناظره وهو يشاهد تواضع الشيخ الذي لا يستطيعه كل أحد، ويبدو لي أن الضرورة تستدعي الإسهاب في سرد العديد من مواقف الشيخ في هذا الجانب؛ لكونه قدوة تحتذى، وقد ألقى الزمن المعاصر على كثير من ذوي الجاهات بشيء من التعالي الزائف، والشعور الكاذب برفعة الذات وتميزها، وما هم في حقيقة الأمر في العير ولا التفير، ولو كانوا كذلك لما حق لهم غير التواضع، وإنما هي لفحات غرور ينفثها الجهل المعشش في جنبات النفس.



الشيخ الخليلي في زيارته لولاية إبراء

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر

على صفحات الماء وهو رفيع

ولاتك كالدخان يعلو بنفسه

إلى طبقات الجو وهو وضع

ومن المواقف الكثيرة في تواضعه الجَم، ودنوّه الكبير من الناس مع علو

مكانته أن تجده بأي مكان، وتحديثه وتنفرد به دون أن يحول بينك وبين ذلك

حائل، صغيراً كنت أو كبيراً، في السن أو المكانة، يقول علي محمد المهدي، وهو صحفي كتب في مجلة "مواقف" عن سماحة شيخنا حفظه الله، قال:

"عالم رباني زاهد في الدنيا ولا يهتم إلا بأمور الإسلام ومصالحة المسلمين، داره مفتوحة لكل طالب حاجة ولكل من لديه مشكلة، وقد رأيت ولمست ذلك بنفسي، حينما مكثت في مجلسه مدة تزيد على الثلاث ساعات. يستقبل هذا بابتسامة المؤمن الوديع، ويودّع هذا بوجه بشوش خال من التصنع والتكلف، يعامل الآخرين بقلب مفتوح، ينبض بالإيمان وطاعة الرحمن"^(١) ويقول عنه الدكتور ناصر الدين الأسد في رسالة كتبها إثر زيارته لعمان عام ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م: "وكان لأخي - صاحب السماحة - الأثر الأكبر في كل ذلك، بفضل ما رزقه الله من شمائل وصفات فكرية ونفسية، نعرفها فيه ونعترف بها له، بين تمكن في العلم، وتصرف في فنون القول، مع التواضع الجم، والذوق الرفيع، والموانسة الرقيقة، والمباشطة المحمودة الرقيقة، فتبوأ بذلك في نفوسنا ونفوس كل من اتصل به المنزلة العليا من المحبة والاحترام"^(٢)

ويقول الدكتور مصطفى عبد القادر النجار في مقال له بمجلة "الشرطة":

"سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ظاهرة عمانية حضارية تجمع بين التراث والمعاصرة، حبا الله بها عمان؛ فأصبح يعبر عن همومها السلفية من جهة، وحياتها اليومية من جهة أخرى؛ فيشرح ويفصّل ويحكى ويحاضر ويخطب ويكتب في كل مجال يتهيأ له وتصل إليه يده، فأعطى لوطنه أبعدي الروح في

(١) مجلة مواقف، ص ١٣

(٢) من رسالة د. ناصر الدين الأسد بتاريخ ١٧ جمادى الأولى ١٤١٢ هـ الموافق له ١١/٢٣

هذا الزمن الحائر ، فلا ينكر أحد سعة اطلاعه ، وشدة تواضعه ، وفتح قلبه لكل سائل صغيراً كان أو كبيراً، مثقفاً أو أمياً، يتبادل معهم الفكر والفقه بكل تفاصيله ، ولا يمل لهم مجلساً ، ولا يشعر بضيق أو يرفض لهم سؤالاً...^(١)

يقول الشيخ حميد اليعمدي : خرج الشيخ من الجامع ذات مرة ، بعد صلاة العصر مستعجلاً ؛ فقد كان لديه موعد ؛ فجاءه اثنان وطلباه ، فقال لدي موعد وأنا مستعجل ، فقالا : هي حاجة سريعة ، فنزل وجلس معهما على الرصيف وافتاهما ثم ذهباً.^(٢)

إن كل من لا يعرف شخص سماحته لا يستطيع بحال أن يميزه من بين جلسائه ، فتعامله تلقائي ، ولباسه عادي ، وهذا أسلوب مؤثر في النفوس أيما تأثير.

يقول الشيخ عاشور : كان أحد الأصدقاء من إحدى الدول العربية يعيش في الإمارات ، ولديه أسئلة في المذهب الإباضي ، أثارها له بعض الناس فأراد



(٢) لقاء المؤلف بالشيخ حميد اليعمدي

الالتقاء بالشيخ فحددنا له موعداً بعد صلاة العشاء ليلة السبت، فجاء الرجل والتقى بالشيخ طويلاً، وفرح بلقائه وانشرح صدره، ثم أخبرنا بعد ذلك بقوله "كنت أتوقع حجاً، حاجياً بعد حاجب، وبوابة بعد أخرى.. وأجد الأبته في الملابس والمسكن والكلام.. فوجدت تواضعاً وعلماً غزيراً.. فقلت له: كيف؟ أين أسئلتك؟ قال: حسبي ما رأيت، إني على يقين أنه على حق.. رأيت خلقاً دعماً ما رأيت في حياتي، فلا حاجة بي إلى السؤال."^(١)

ومن مرويته أيضاً قال: كان أحد المدرسين التونسيين في جملان، وجاء لزيارتنا في مسقط، وكان ذلك اليوم يوم السبت ونحن على موعد للغداء عند الشيخ؛ ففرضنا له أن يصحبنا ففرح بذلك، واستقبلنا الشيخ لدى الباب، وجئنا بالغداء، وبدأنا الأكل والشيخ يوزع اللحم، ويضحك مع هذا، ويلقي طرفة ونادرة وفائدة، وكان الرجل التونسي ينتظر مجيء المفتي، فسألني: أين المفتي؟ ومتى سيأتي؟ فقلت له: إن المفتي لا يتغدى مع الناس؟ فصمت، ثم بعد قليل قلت له: هذا هو المفتي كما تراه جالساً معنا، فاندھش دهشة كبيرة، وبقي يتحدث بذلك في كل مكان.

ومن مرويته أيضاً، قال: كان لي صديق سوداني، يعمل بالإمارات؛ فجاء لزيارتي، فلهبنا لنلتقي بالشيخ صباح الجمعة، ورأيت علامات الإعجاب والدهشة بادية عليه، فسألته عن موقفه، فقال: ما رأيت في حياتي

(١) لقاء المؤلف بالشيخ عاشور بن يوسف

رجلاً عالمًا قمة في التواضع، قمة في الورع، مثل الشيخ الخليلي، وأصدقك القول: إنني مقتنع بكل ما يقول.^(١)

وهذا التواضع التلقائي ليس للكبار فقط، بل يشمل الأطفال الصغار، فالشيخ إذا جاء أحد الأطفال لمصافحته اغنى له وسأله عن اسمه، ومسح على رأسه، ودعا له، وربما انتهز بعض الأطفال الفرصة فيسأل الشيخ عن بعض الأمور، فيجيبه الشيخ بلطف وسماحة، وعندما يحضر بعض الأطفال على مائدة الشيخ، يعتني بهم أكثر من عناية والدهم الذي يصحبونه، فتجده يوانسهم، ويحثهم على الأكل.

ومن تواضعه أنه من عادته بعد أداء صلاة الفجر أن يصفح كل من يكون في الجانب الأيمن من الصف الأول، وإذا ما شاهد أحدًا من معارفه لم يره منذ مدة، ينتظره الشيخ حتى تتم المصافحة؛ فيعود إليه يسأله، ثم يدعو له لتناول وجبة الغداء، أو زيارته في بيته أو نحو ذلك.

ومن غريب المواقف الدالة على تواضعه ما حدثني به الشيخ أبو الحسن شحاته، نقلًا عن أحد أولاد الشيخ، قال: كان الشيخ خارجًا ذات يوم، فعاد إلى بيته في وقت متأخر من الليل، وأوى إلى فراشه وقد تحطمت قواه من الإرهاق، وما هي إلى سوية فيما بعد منتصف الليل، وإذا بطارق يطرق الباب، فنزل إليه ولد الشيخ وسأله عمًا يريد، فقال إنه جاء لحاجة ضرورية لا بد أن يلقي الشيخ فيها الليلة، وأصرَّ على موقفه، واستفد ابن الشيخ جميع حيله، وفشلت جميع محاولاته في تأجيل هذا اللقاء إلى الصباح، فاضطر إلى

(١) لقاء المؤلف بالشيخ عاشور بن يوسف

ليقاظ الشيخ رغم ما كابده من التعب سائر اليوم، خصوصاً عندما أصرَّ الرجل أنه لا يبرح مكانه ذلك حتى يأتيه الشيخ، وجاء الشيخ، لينظر حاجة الرجل، فإذا به يرفع غطاء رأسه إلى الأعلى، ويطلب من الشيخ أن يقرأ على مقدمة رأسه بعض الآيات؛ لأنه يعاني من صداع شديد... فقرأ عليه الشيخ دون تضجر ولا سامة، ثم عاد إلى فراشه^(١) والله أعلم أنام أم لا؛ ذلك لأن الشيخ إذا أزعج في نومه فاستيقظ لا يعود إليه النوم، يقول أفلح: إن والدي إذا استيقظ من نومه فمن الصعب أن يعود إليه النوم مرة أخرى^(٢).

ومن تواضعه للجميع أنه لا يمر على أحد في ذهابه للمناسبات إلا سلّم عليه وصافحه، خصوصاً مجالس العزاء، فقد صحبته مرة بعد صلاة العصر إلى مجلس عزاء في مدينة السلطان قابوس، فلما وصل بدأ بجماعة منفردة يبدو أنها مختصة بشؤون الضيافة من التمر والقهوة ونحوها، وفيها العديد من الأطفال، فسلم عليهم وصافحهم جميعاً، ثم اتجه إلى جماعة أخرى في صرح المسجد فسلم عليهم وصافحهم، ثم دخل المسجد وسلم سلاماً عاماً، ثم بدأ يصافح الناس من الجانب الأيمن حتى انتهى إلى حيث بدأ، وما كاد ينتهي حتى أخذه أصحاب العزاء صوب المحراب، وبقي واقفاً مدة من الزمن بسبب دخول الجماعات الواحدة تلو الأخرى، ولم يتناول الشيخ شيئاً من المأكولات قط، ثم استأذن للعودة، وكنت قد حضرت موقفاً لشخصية أخرى من ذوي المناصب مختلفة في توجهها، جاء إلى مجلس العزاء فسلم على الباب، ثم اتجه إلى صدر

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن شحانة

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح بن أحمد الخليلي

المجلس؛ فوسَّع له الناس، وجاء من شاء أن يسلم عليه فسلم عليه، وهو في مكانه ذلك، فتبين لي بذلك الفارق بين الموقفين.

ومن توأضعه ما حكاه محمد الرشيدى قال: كنا في زيارة لإحدى البلدان، فعندما حان وقت النوم في مبيتنا هناك، هيأت لنا غرفة خاصة، وأعدت فيها للشيخ فراش وثير، فلما دخلنا للنوم قيل للشيخ: هذا فراشك، فرفض أن ينام عليه، وأخذ فراشاً عادياً نام عليه هجعة من الليل، ثم قام يصلي آخر الليل، وترك ذلك الفراش لأحد أبنائه^(١)



ومما عايشته من مواقفه المتواضعة، أنني كنت مع طلبة فصل دراسي بمعهد القضاء الشرعي في جامع السلطان قابوس في صباح رمضان، وقد تحلقنا في المسجد أتحدث إليهم، وكانت من إرادة القدر أن مرَّ علينا الشيخ ونحن جلوس في حلقتنا تلك، فوجد فرجة بين طالبين فجلس فيها، فماذا عساني أن أفعل

(١) لقاء المؤلف بالأخ محمد الرشيدى

حينها؟ فحوّلت مجال الحديث إليه - حفظه الله - وقلت للطلبة إن حضور الشيخ نعمة من الله تكرم بها علينا، فمن كان لديه سؤال فعليّه أن يستغل الفرصة الساعة، فقال سماحته: يبدو أنني أفسدت عليكم حديثكم؛ لذا اعتذر عن عدم البقاء معكم حتى تواصلوا درسكم، ثم بعد ذلك لقيته فاعتذرت إليه عن تصرفي ذلك، قائلاً له: ما كان من الأدب أن أتصرّف بتلك الصورة، فقال لي: لا.. لا.. ثم ابتسم وأردف قائلاً: أنت لا تهيب الحكمة إلا من يستحقها.. ويبدو أنني لا أستحق أن أستفيد شيئاً منكم، فكانت هذه أشد عليّ من الأولى، ذلك هو التواضع والسمو الخلفي.

ومن موافقي معه أيضاً وقد تجلّى فيها الكثير من المعاني السامية، وتواضعه على وجه الخصوص، يوم ألقى قصيدتي في الإرشادة ببعض سماته، في أمسية عقدها معهد العلوم الشرعية، وكان أول لقاء بيننا بعد ذلك الإلقاء في جامع السلطان قابوس بروي، فبعد إحدى الصلوات التي لا أذكرها الآن أهي العصر أم العشاء؟ تزاحمت أفراد الناس يسلمون على سماحته، فدخلت في تيار هذا الطوفان البشري، وما إن صافحته حتى قال لي أريدك فانتظرني.. فدارت في مخيلتي أسئلة عديدة، استعرضت فيها الكثير مما جنته حماقتي عليّ، إلا قولِي هذه القصيدة فما خطرت مني على بال، وما أن فرغ من مصافحة الناس حتى أخذ عصاه وانتحينا ناحية المحراب، وقال: لي عليك عتابان، فقلت له: العصا في يديكم - حفظكم الله - وأنا طوع أمرك إن شاء الله، فسدّ الخلل، فقال أعاتبك أولاً على قلة الزيارة، فاعتذرت إليه بأن ذلك حرص مني على صحة سماحته ووقته، وإلا فالزيارة شرف لنا، ومع ذلك أدركت أن شيئاً

أعظم منها ينتظرني في العتاب الثاني، قال: ما هذه القصيدة التي قلتها؟ أنا لست أهلاً لما ذكرته من الصفات.. وبدا عليه شيء من الغضب فعلاً، ثم أردف قائلاً: اجعل موهبتك فيمن يستحق، ومن هو أهل للثناء عليه، ولم أستطع أن أتلفظ بشيء مطلقاً رهبة وإجلالاً سوى أن قلت: إن شاء الله أيها الشيخ... والقصيدة من الركاكة والضعف بمكان لا يخفى على كل ذي بصيرة بالشعر، أو من طاف حول حماه، وهذه المواقف تعكس سجية التواضع التي لا تنفك عنه، فعندما سئل - حفظه الله - هل يشترط العلم في لبس العمامة قال: لو كان العلم شرطاً في لبس العمامة لكنت أول من وجب عليه خلعهما؟ فانظر هداك الله إلى هذه المواقف كيف يمكن أن تكون؟ ومع أي شخص أنت تحيي وتعيش، ولذلك لا تتعجب بعد اطلاعك على ما قدمت من المواقف الحية في حياته أن تسمعه يعتذر عن كل ثناء، بما تشعر به يقيناً أن الشيخ فعلاً لا يرى نفسه ممن يستحق أن يهتم بهم، فانظر إلى هذه المواقف الكلامية التالية:

١- قال في مقدمة محاضرة بعنوان "الإخلاص"

إن حديث الليلة عسير عليّ، فكنت أتمنى أن أسمع هذا الحديث من غيري، وأن أستفيد ما يستفيدة الحريصون على تتبع هذا الأمر، واستقصاء هذا الموضوع، وإنني وجلال الله سبحانه لأجدني أقلكم أهلية في الحديث عن هذا الموضوع، الذي هو في حقيقته جوهر الإسلام، وسر رسالات الله تعالى التي بَعَثَ بها المرسلين^(١)

(١) محاضرة بعنوان الإخلاص ٢١ / أ

٢- قال في مقابلة أجرتها معه الإذاعة العمانية في برنامج " واحة المستمعين " : " قبل كل شيء أريد أن أقول بأن الناس يحسنون بي الظن كثيراً ، وأنا أعرف بنفسي منهم ، فأنا لست في المستوى الذي يرفعونني إليه ، أنا لا أعد نفسي من العلماء ، وإنما أعد نفسي من صغار الطلبة ، ولي الشرف أن أكون طالب علم ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يقيني طالب علم ، وأن يميّتي طالب علم ، إنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير ^(١)"

٣- قال في مقلمة لقاء أجراه الشيخ عبدالله العيسري مع سماحة الشيخ عن ذكريات حياته الأولى : أنا لست ممن ينبغي أن يعتنى بذكرياته ، ويحتفى بها ؛ لأن أثري في حياة الأمة الدعوية والاجتماعية لا يكاد يذكر ؛ فلذلك أجد أن ما أتحدث به وأذكره لن يعدو أن يكون شيئاً تافهاً لا ينبغي أن يشتغل به أحد ، وأن يطرح على مسمع سامع. ^(٢)

٤- قال في بداية جلسة عقدت للإجابة على أسئلة السائلين مع غزارة علمه الذي بهر به الدنيا : وأرجو عند الخطأ والانحراف في الجواب أن يكون هنالك تنبيه فرحم الله امرءاً أهدي إلينا عيوننا ، فالأمر قبل كل شيء أن البضاعة مزجاة. ^(٣)

٥ - أرسل رئيس جامعة آل البيت بالملكة الأردنية الهاشمية رسالة إلى سماحته يخبره فيها بتمام طباعة المحاضرتين اللتين ألقاهما سماحته بالجامعة في

(١) برنامج " واحة المستمعين " حلقة بإذاعة سلطنة عمان بتاريخ ٢١/جمادى الآخرة / ١٤٢١ هـ الموافق له ٢٠٠٠/٩/١٩ م

(٢) لقاء الشيخ العيسري بالشيخ الخليلي

(٣) شريط رقم ٥ ، أنت تسأل والمفتي يجيب ، تسجيلات المناهل

موضوع البحث العلمي عند علماء المسلمين - وقد تركت المحاضرتان أثراً عميقاً في نفوس الحاضرين ، وإعجاباً عظيماً بسماحته - فقال سماحته في رسالة جوابية لرئيس الجامعة: " إن دُلُّ هذا على شيء فإنما يدل على أخوتكم الصادقة، وأخلاقكم العالية، لأن ما جاء فيهما لا يستحق كل هذا العناء من طباعة ونشر، وعسى أن يكون في ذلك تشجيع لي " ^(١)

٦ - قال في بداية محاضرة له بعنوان " معالم الشخصية الإسلامية " :

" أعتذر إليكم من الثناء الذي قيل في غير محله، ووصف به من ليس من أهله، وما هي إلا عين الرضا التي تغطي العيوب كما يقول الشاعر
ولست براء عيب ذي الود كله ولا بعضه يوماً إذا كنت راضياً
فعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا ^(٢)

هذه هي القدوة لمن شاء الاقتداء؟ وما هو وريث الأنبياء؟ فهل من يطأ مواضع القدم؟ وأختم الحديث بهذين الموقفين النادرين جداً، أولهما ما حدثني به سليمان ابن الشيخ أحمد، قال: كنا مرة نمشي في بلدة "العوابي" على الشارع العام، فمرّ علينا شاب بسيارته، فلما رأنا أوقف السيارة ونزل ليصافحنا، فلما ركب سيارته جاء الشيخ بكل تواضع وأغلق عليه باب سيارته وودعه. ^(٣)

وحدثني أبو الحسن وكذا الشيخ عيسى بن يوسف نقلاً عن أنور السالمي قال ذهب الشيخ إلى العمرة ويرفقه سليمان السالمي وأنور وغيرهما، وفي حال

(١) من رسالة سماحته إلى رئيس جامعة آل البيت بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٤١٧هـ، الموافق له

١٩٩٦ / ٨ / ٢٨ م

(٢) معالم الشخصية الإسلامية ، رقم ٢٨٤ / أ

(٣) لقاء المؤلف مع الشيخ سليمان بن أحمد الخليلي

خروجهم من المسجد جاء أنور بمحذاء الشيخ إليه ليلبسه، فاستغفر وحوقل،
وغضب لهذا التصرف لتواضعه^(١)

مجلس الشيخ:

مما يلحق بتواضعه أن مجلسه مفتوح لكل صادر ووارد، وما أجمل قول

الشاعر:

يزدحم القصد في بابه والمنهل العذب كثير الزحام

فما هي صفات هذا المجلس؟

مما يعلمه كل أحد أن الباب مفتوح على مصراعيه، أكان الشيخ موجوداً في
المجلس أم لا؟ فإن لم يكن موجوداً تلك اللحظة فسيأتي ما دام قريباً، لا يتعزز
على أحد، ولا يترفع، ولا يمتنع، ولو كان ذلك على حساب صحته وراحته،
فإن مر أمام المجلس ورأى حذاءً أو مصباحاً مضاًءً، دخل المجلس لينظر هل من
صاحب حاجة يقضيها له.. وربما استمر المجلس في بعض الليالي إلى منتصف
الليل، خصوصاً عندما يزدحم بالثقلاء الذين لا يشعرون بأحاسيس الآخرين،
ولا ينقدح في ضمائرهم شيء من الشعور بحاجة المحارب إلى الراحة.

وأود الإشارة إلى ميمتين يحويهما هذا المجلس هما: الكرم المادي، وكرم
السجايا والأخلاق. وكل منهما داع إلى الانبهار.

١- الكرم المادي: ولا أريد الإطالة في ذلك فما أنا بمستقص طرفاً منه،
وحسبك أنك لا تجد الشيخ يوماً يأكل وحده، ومن العسير أو المتعذر أن تسنح

(١) لقاء المؤلف بالشيخين أبي الحسن وعيسى بن يوسف البوسعيدي

له فرصة للأكل مع أبنائه داخل داره، ولذا يسأله صحفي كويتي عن ذلك، وهو معذور لأنه لم ير ولم يسمع، فقد سأل الشيخ هل تحرص على حضور المائدة مع أبنائك؟ فقال: نعم إن تيسر ذلك؟ ولكن من أين يتيسر له ذلك؟ ومجلسه عامر بالناس كل حين.. من بعد طلوع الشمس وعلى وجبة الغداء، وبعد العصر وبعد العشاء إلى منتصف الليل... وكثيراً ما تكثر مواعد الغداء التي يلتف حولها الجمع الغفير من الناس، ويبقى الطعام، ومع ذلك يقول أولاد الشيخ: إن والدنا دائماً يستقل الطعام، يقول أخاف ألا يكفي، وكثيراً من الناس يأتون بغير موعد سابق، فيستقبلهم الشيخ ببشاشته المعروفة، وطلاقة وجهه المعهودة، إنه على أهبة الاستعداد من هذه الناحية لأي طارئ، مهما كثر الضيف. ولأجل الأمانة التأريخية أقول: عادة ما تتبع هذه الوجبات مائدة أخرى من الفواكه والحلوى قبل أن يغادر الجمع مجلس سماحته.

٢- كرم الصحابة والأشكال:

كما تجدر الإشارة إليه أن مجلس الشيخ كله فوائده، فمثلته كالبستان المتعدد الثمار، مختلف الأشكال والألوان، فيستمتع من فيه باستعمال جميع وسائل الإدراك؛ فتبتهج النفس، وينشرح الصدر، ويتغذى العقل، ويقوى الإيمان، ويحسن الخلق، ويتعمق الوعي، وتشتعل العزيمة، وتشد الإرادة، فكأنه في عالم آخر، وقد خلق خلقاً جديداً.. ومما لا يفوتني ذكره، أن كل من حظي بشهود مجلسه صغيراً كان أو كبيراً، عزيزاً كان أو ذليلاً، يتمتع باحترام الشيخ ويفوز بحصانة تحميه من كل أذى ما دام في مجلسه، ولا يستطيع أحد أن يخترق

تلك الحصانة التي يمنحها الشيخ لهم مهما يكن مقرّباً، وقد علم ذلك أهله ومقرّبوه، ولندع الحوادث تؤدي شهادتها، فمن ذلك ما رواه الشيخ أبو الحسن شحاته، قال: كان الشيخ ذات مرة في مكتبة جامع السلطان قابوس بروي، وكنا نحن وبعض الطلبة خارج المكتبة، فجاء رجل بدوي يسأل عن الشيخ، والشيخ مشغول يبحث، ولم نرد أن نشغله، ولا شك أن هذا البدوي لديه مسألة ستأخذ ساعة من الزمان، لذا أقنعناه بالعودة، وفي طريق عودته لقي أحد الطلبة؛ فدّله على الشيخ بالمكتبة، فجاء إليه يسأله عن نخلة كانت له، وقع عليها كذا وكذا.. فقلت للرجل: سبحان الله.. أترك الشيخ يا رجل، ما أكثر القضاة، أما وجدت أحداً إلا الشيخ تشغله بمثل هذه المسائل التي لا دخل له فيها؟ فاعترضني الشيخ وقال: دعه، فقد قصدني من مكان بعيد، وأخذ البدوي حرته كاملة، والشيخ يرفق به ويتلطف، حتى قضى مراده وانصرف^(١).

ومن ذلك تلك الحادثة التي سبق ذكرها لذلك الرجل المصاب بالصداع في منتصف الليل، حيث لم يستطع أولاده صنع شيء لحماية الشيخ له. ويقول الشيخ حميد اليمحمدي منسق مكتب الشيخ الخليلي يوم كان مكتب سماحته بوزارة العدل والأوقاف - قبل انفصالهما إلى وزارتين - جاء رجل يطلب مقابلة الشيخ، فاعتذرت له؛ لأن الشيخ كان مشغولاً جداً، لا يجد متفسّساً للمقابلات، وإضافة قضايا جديدة، فقال الرجل إنه يريد التسليم فقط لمدة ثوان معدودة، فسمحت له بالدخول، وإذا به يطيل المكث، فدخلت لأذكره

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن

بوعده، فوجدته بكل أرحمة يشرح قضاياها، فنظرت إليه شزراً، وأنا أقول في نفسي أين الوعد؟ ولولا أنك تتمتع بحماية الشيخ لجررتك إلى الخارج. فقال أحد الزملاء الجالسين معنا : كما جررت ذلك الرجل من محرابه حين رأيت غير أهل للإمامة.

ويقول سليمان ابن الشيخ أن الأطفال يأخذون حريتهم كاملة في اللعب عندما يكون الشيخ موجوداً، حيث لا أحد يستطيع أن يحد من حريتهم.. قال: كنا مجتمعين مرة في بيتي في الغبرة مع إخواني بحضور والدي، وكان الأطفال يلعبون بمتتهى الحرية، وكان أحدهم قد جاوز حده في الفوضى، ولكن لا أحد يستطيع أن يوقفه عند حده خوفاً من الشيخ، ثم بعد ذلك دخلت والدة الشيخ، فهدأ ذلك الطفل، لأنهم كانوا يهابونها... وللقصبة بقية تأتي في سياقها الخاص بها...



هذا وقد قَدِّمْتُ أن الجالس يشعر بالأنس والانشراح بسبب إقبال الشيخ على الجميع، وعادة يكون الحديث عاماً توجيهاً، يضرب الشيخ فيه الكثير من القصص والعبر، ومن سير الماضين وتاريخهم بحيث لا يشعر الجالس إلا بانتهاء المجلس.

السخاء:

الشيخ - حفظه الله - معروف بكرمه وسخائه، حتى ليصدق عليه قول الشاعر:

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتيق الله سائله
وكما هو جواد في سائر أوقاته، فإنه أجود ما يكون في رمضان، فمائدة الإفطار على الدوام، يحضرها جمع من الناس كما هي مائدة الغداء في غير رمضان.

وحتى لا يكون الوصف بالسخاء ضرباً من التنظير، أعرج على بعض المواقف الدالة على ذلك، فقد أخبرني أحد الثقات أن رجلاً اقترض من الشيخ مبلغ ثلاثة آلاف ريال عُمانِي، وشاء الله أن يرحل ذلك الرجل إلى الدار الآخرة قبل سداد دينه، فجاء ورثته إلى الشيخ، فأبى أن يأخذ شيئاً من تلك النقود، وأدخر أجرها عند الله في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وبما هو معلوم عن سماحة الشيخ أنه لا يردُّ سائلاً ولو جاءه على فرس، ومن عادته أن يدخل يده في جيبه فيتصدق بما أخرجت من الأوراق النقدية، دون أن يلتفت إلى يده، فقد تجده يتصدق بعشرين وثلاثين ريالاً لسائل لا ينتظر منه سوى ريال واحد، ذلك

لمن يسأله وهو في طريقه.. وربما سعى الشيخ إلى ذوي الحاجات بنفسه بمتتهى السرية، حتى لتكاد شماله لا تدري بما أنفقت يمينه، ومن العسير التوصل إلى مواقف من مثل ذلك لحرصه الشديد على الكتمان، وقد شاهدت مرة في جامع السلطان قابوس في شهر رمضان المبارك من بعد صلاة العصر، حيث كان الشيخ يتلو القرآن في الناحية الشمالية الشرقية من الجامع، إذا بيدوي يدخل، ثم يتجه إلى وسط المسجد تحت الثريا أو أمامها بقليل وينام على الأرض، وما هي إلا لحظات حتى قام الشيخ من مكانه، وسلّم على البدوي، وأخرج له من جيبه شيئاً أظنّها أوراقاً نقدية، فانصرف البدوي ورجع الشيخ إلى تلاوته.

ومرة كنت أمشي معه في الجامع إذ جاءه رجل من الأعاجم بعد صلاة الظهر، وطلب منه شيئاً من الصدقة، فابتسم الشيخ له وقال: الآن ما عندي، لكن تعال بعد صلاة العصر إن شاء الله، فقال الرجل إن شاء الله. فالشيخ لم يُعْفَ نفسه بسبب تفريقه تلك الأموال في سبيل الله شرقاً وغرباً، حتى وعد الرجل بعد الصلاة، ولا شك أنه منجز وعده.

ومن المواقف الطريفة التي ضحكت لطرفاتها، إذ كنا في مجلس الشيخ، فدخل علينا رجل من خلفه امرأة، ولا أدري أكانا على مائدة الفطور أم الغداء، فأمر الشيخ بإدخال المرأة في غرفة خاصة على مدخل المجلس الدائري، وبعد الطعام، نهض الشيخ وأتى بمبلغ من المال أعطاه الرجل، وخرج الرجل وبقيت المرأة في الغرفة، وعند خروجنا رأها الشيخ، فقيل لها: لقد ذهب زوجك، فقالت: ليس زوجي، لقد جئت وحدي، ولقيته في الخارج، والله أعلم بصحة

قولها، فأمر الشيخ بالصدقة عليها أيضاً وإكرامها، وهناك تذكرت قول الشاعر:

استمطروا من قريش كل منخدع إن الكريم إذا خادعته انخدعا

وأخبرني الشيخ عاشور عن رجل من إحدى الدول العربية جاء لزيارة الشيخ، قال فلهبنا فإذا بالرجل يطلب من الشيخ حديثاً انفرادياً، وبعد لحظة نادى الشيخ الخليلي الشيخ عاشور، وقال له: إن فلاناً هذا طلب مني مبلغاً من المال، قدره كذا وكذا، وليس لدي الآن هذا المبلغ، وأنا أشهدك أمامه أنني سأعطيك هذا المبلغ لتوصله إليه، فقلت له: إن شاء الله، وعندما خرجنا عاتب الرجل على هذا الموقف، وقلت له: أما وجدت غير الشيخ؟! أما تعرف ظروفه الاقتصادية الصعبة؟! قال: وفعلاً أتاني الشيخ بالمبلغ كاملاً وأوصلته لصاحبه، ثم لقيت الرجل بعد أكثر من سنة، وسألته: هل وفيت بالدين؟ قال: لا..^(١)

ويقول الشيخ خميس العدوي: إن الشيخ يساعد الكثير من الشباب في حالات الزواج أو ضيق المعيشة، وربما تصدق بشطر راتبه.. ولا داعي لذكر أسماء أعرفها شخصياً.^(٢) أما مساعدة الناس بكتابة الرسائل إلى الوزارات المختلفة لمساعدتهم وقضاء حاجاتهم، فحدّث عن ذلك بلا حرج، ولا داعي لنسبته إلى أحد فهو من الشهرة بمكان لا يخفى على أحد.

(١) لقاء المؤلف بالشيخ عاشور بن يوسف

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي

ومما يشير إليه أفلح أن الشيخ يحسن على الناس ثم ينسى ذلك الإحسان، فكف من الناس الذين ساعدتهم، ثم ينسى جميع ما قدمه ولا يكاد يذكره.^(١)

الوفاء

سمة الوفاء عند الشيخ متشعبة المناحي، وفاء بالوعد مهما كلف الأمر، ووفاء للعلماء المتقدمين بالإحسان لذراريهم، ومن كان في خدمتهم، مواقف من الوفاء تدعو إلى العجب.

يحدثني الشيخ خالد الخوالدي قال: دعا الشيخ ناصر المنذري ذات يوم الشيخ أحمد الخليلي والشيخ سعيد القنوبي ومن صحبهما لتناول وجبة العشاء، وفي ذلك اليوم قدر الله أن توفي خال الشيخ الخليلي، وحضر الشيخ دفنه بين صلاتي المغرب والعشاء، فذهبنا بصحبة الشيخ سعيد القنوبي إلى منزل الشيخ ناصر، وظننا أن الشيخ الخليلي لا يأتي بسبب حادثة الوفاة، ولما دخلنا المجلس وجدنا الشيخ الخليلي قد سبقنا، حرصاً منه على الوفاء بوعدته، وكان ذلك المجلس مليئاً بالعبير والعظات، قال الشيخ الخوالدي: ومن ذلك أنه كان لديه موعد لإلقاء محاضرة في "البداية" من منطقة الباطنة وكانت الأحوال الصحية للشيخ سيئة جداً، حتى أنه كان يلبس صوفاً تحت الدشداشة بسبب شعوره بالبرد، ولكنه مع ذلك كله حرص على الوفاء بوعدته، وطلب من الشيخ سالم النعماني أن ينوب عنه في إلقاء المحاضرة؛ واكتفى بالحضور^(٢)

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح الخليلي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ خالد الخوالدي

قلت: وكذلك الحال عندما افتتح مسجد الزاهد بالشرعية من سمد الشآن، فقد كان مريضاً، ولم يستطع أن يكمل محاضراته بسبب التهاب في حنجرتة.. وطلب من الشيخ حمود بن حميد الصوافي أن يدعو للناس فأبى، فاحتمل الشيخ ذلك ودعا بنفسه.

أما النوع الآخر من الوفاء فمناه حدثني به الشيخ سليمان بن أحمد الخليلي، قال: جاء مرة رجل لا نعرفه إلى مجلس الشيخ، فقرئه الشيخ وأذناه، واهتم به اهتماماً كبيراً، ثم سأله: من هذا الرجل؟ فقال هذا ابن من كان يخدم الإمام الخليلي - رحمه الله. ^(١)

ومن مرويات أبي الحسن أن الشيخ أحمد الخليلي زار الشيخ محمد بن عبدالله السالمي (الشيبة) فقصَّ الشيخ محمد للشيخ أحمد قصة وقعت لأبيه، قال كنا ذهبنا للحج وأردنا شراء شيء من عطر العود لوالدي، فلما دخلنا محل العطار، ناولنا زجاجة فيها عطر العود، فوَقعت الزجاجة من يد والدي - رحمه الله - فانكسرت، فعرضنا قيمتها على العطار، فأبى أن يأخذ شيئاً، وذكر للشيخ اسم ذلك العطار، فلماً ذهب الشيخ الخليلي إلى الحج أخذ يسأل عن محل ذلك العطار، حتى وصل إليه، ووجد حفيده في المحل، فقصَّ عليه القصة، وأعطاه خمسين ريالاً. ^(٢)

ومن مروياته أيضاً ما حكاه عن سليمان السالمي قال: ذهبنا مع الشيخ في مؤتمر بالملكة المغربية في الدار البيضاء، وقد وصلنا قبل المؤتمر بأيام، قال

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان الخليلي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن شحاتة

الشيخ: قرأت فيما قرأت أن بعض العائلات هربت من الأندلس إلى الدار البيضاء في أيام حروب الفرنجة، هرباً بإسلامهم من التنصير الذي كان يُفرض عليهم بالقوة.. وأخذ الشيخ يسأل عن تلك العائلات التي يحفظ أسماءها، حتى التقى ببعض أحفادهم.

خشيتيه من الله:

من المعلوم أن الخشية أمر معنوي لا يعرف إلا بآثاره وتجلياته، وكما لا تُدرك ماهيته، كذلك لا يمكن قياس مقداره، ولكن مع ذلك يمكن الاستدلال على وجوده، ومقدار ترسخه في النفس، ومدى استحواذه على القلب والجوارح، ذلك من خلال المواقف التي تتجلى فيها بوضوح مقدار هذه الخشية، ومن هذه التجليات الحرص على العبادة في شتى صورها، وأنواعها، من صلاة وصيام، وقيام وتلاوة للقرآن، ومن ذلك التأثير المهيمن على الجوارح أثناء هذه العبادات، أو من خلال بروز بعض المواقف التي تكشف عن جوهر هذه الخشية في النفس، كالبكاء من خشية الله، وانهمال الدموع، أو القشعريرة التي تهز البدن، ومنها الصمود على الحق والثبات عليه، دون أن يخشى الإنسان قوى الأرض مجتمعة، فكيف بلوم اللاتمين، وعدل العاذلين، وتجليات هذه الخشية في حياة الشيخ كثيرة، وقد لازمته الخشية منذ طفولته، وهو بزنجبار، يقول الشيخ سليمان ابن سيف الخليلي: كان للشيخ أحمد خال يقال له سليمان بن حمود، وكان يكبر الشيخ بسنة ونصف تقريباً، وكان يقطف بعض الثمار من الأشجار العامة بزنجبار فيسأله عن مصدرها ومن أين قطفها؟

وينصح خاله بعدم العودة لثلها ، لأنه لا يدري لمن هي ، والأكل من أموال الناس بغير إذنتهم حرام ، ويأبى الشيخ أن يأكل من تلك الثمار كل الإباء ، ومن خشيته لله أنه كان إذا سمع صوت الرعد ورأى البرق تراه خائفاً وجلأً ، يدخل داخل البيت ويمكث فيه ^(١) . وهكذا كان عليه أفضل الصلاة والسلام إذا سمع صوت الرعد يدخل ويخرج خائفاً وجلأً .

ومن مظاهر الخشية بعد ذلك ما رأيته بعيني رأسي في إحدى ليالي رمضان المبارك من تفاعل عجيب مع آيات القرآن، واستجابة ظاهرة من جوارحه مع قوارع ندره، فقد صليت ذات مرة قيام رمضان على يسار الشيخ في جامع السلطان قابوس بروي، فلما قرأ الإمام قول الله تعالى: "اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ" ^(٢) انتفض جسد الشيخ انتفاضة شديدة، ثم سكنت جوارحه، وعاد إلى ما كان عليه بعد مجاوزة الإمام لتلك الآيات.

أما عن شدة بكائه من خشية الله، فحدثت عن ذلك بلا حرج، وربما بكى أثناء إلقاء محاضرة تبدو للإنسان عادية في موضوعها، ولكنه - حفظه الله - يتفاعل مع الكلمات، فيعي أبعاد مدلولاتها، وذلك ما يهز وجدانه هزاً عنيفاً من الداخل، ففي عرفات - مثلاً - لم يخطف قط إلا حبسه البكاء عن مواصلة الخطبة، والاستمرار في الدعاء، ولذلك يلحظ على خطبه بعرفات أنها قصيرة

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي

(٢) سورة الزمر، الآية ٢٣

للغاية؛ بسبب ما يتخللها من غلبة البكاء عليه، مع أنه - حفظه الله - يكتم بكاءه ولا يسترسل فيه، وذلك بقطع دواعيه، والبعد عن مهيّجاته.. ويقف بجانب خطب عرفات خطب الاستسقاء، فلا يتمالك الشيخ أثناء الدعاء وهو يستشعر آلاء ذي الجلال والإكرام، حتى ينخرط في بكاء حاد، تشفق عليه منه، وهكذا الشأن في دعائه عقب المحاضرات خصوصاً عندما يمر بذكر مصائب المسلمين، وما أصابهم من قهر عدوهم لهم، كما هو الحال في فلسطين، كثيراً ما يتأثر فيبكي، وخصوصاً عندما يدعو على أعداء الله تعالى، فيقتبس في دعائه من قول الله تعالى في عاد وثمود، فيقول: وافعل بهم كما فعلت بشمود وعاد، وفرعون ذي الأوتاد، الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد... تستحضر نفسه الشفافة قوة عاد وثمود، وما بسطه الله لهم من النعم الكثيرة؛ فاغتروا بسطانهم وقدرتهم، ونسوا نعم الله تعالى عليهم، وكفروا بها، فتشبههم من عذاب الله ما غشيهم، يتذكر قوتهم بجانب قوة الله وسلطانه، وقهره ويطشه، فتهزّه تلك الكلمات من أعماقه، فتنهل الدموع من عينيه، وكذلك بعد ركعتي الطواف في الحرم المكي يجتمع الشباب خلفه، فيدعو دعاء جماعياً ويبكي حتى لا يكاد يقوى على إكمال دعائه، ومن ذلك أيضاً تذكره لعذاب الله تعالى في الدار الآخرة، وربما يمنعه ذلك من مواصلة الحديث، يقول الشيخ حميد اليعمدي: روى لنا الشيخ الخليلي قصة رجل متعلم، وبعد نفسه شيخاً من شيوخ العلم، دخل إلى صحن إحدى المساجد بمحذاته حيث لا يدخل الناس إلى ذلك المكان من المسجد بأحذيتهم، فلقيه المؤذن فقال له: أيها الشيخ هذا المكان مصلى للمسلمين، فاخلع حذاءك. فقال الرجل: إن حذائي هذا أكرم من

وجهك، فبكى المودن وهو يقول: إن كان مصير وجهي إلى النار، فإن حذاءك أكرم من وجهي، وينخرط الشيخ هنا في بكاء حاد، لا يستطيع أن يكمل بقية القصة، ويمتنع الحاضرون عن سؤاله إشفاقاً عليه، يقول الشيخ حميد اليعمدي، وما قصَّ الشيخ علينا هذه القصة إلا وتوقف عند هذا المقطع وقد منعه البكاء عن مواصلة الحديث، فهو - حفظه الله - من البكائين الذين عرفهم التاريخ في مداره.

ومن المواقف التي تتجلى فيها الخشية من الله والورع معاً، إذ سأله سائل مرة، وكنا في مجلسه، عن معنى قوله الله تعالى {وفاكهة وأبا} ما معنى الأب، فقال الشيخ: لقد قال أبو بكر رضي الله عنه: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني، وأين أذهب إذا قلت في كتاب الله بغير ما أنزل الله، وقال عمر بن الخطاب: قد عرفنا الفاكهة فما الأب. ثم قال: لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف، فكيف تريد مني أن أقول في شيء توقف فيه أبو بكر وعمر؟!

ومن ملحوظات الشيخ عيسى بن يوسف البوسعيدي: أن الشيخ إذا سئل عن شيء في القرآن، ولو كان إعراباً محوياً، توقف وفكّر وتأمّل، ولو كانت الإجابة - فيما يبدو - حاضرة لديه، ولكنه لا يتسرع أبداً في الحديث عن القرآن بشيء، ولذلك تجد سماحته يفرغ نفسه يوماً كاملاً من المشاغل يوم الثلاثاء، لأجل أن يفسر آية أو بعض آية أحياناً من كتاب الله تعالى، خوفاً من الله سبحانه أن يقول في كتابه بغير ما أنزله.

ومن هذه المواقف ما حدثني به الأخ محمد الرشيد، قال: ذهبنا مرة في تعزية أحد أصدقاء الشيخ الحميمين إلى منطقة بعيدة عن مسقط، ألا وهي ولاية

"بديّة" وكان وصولنا بعد صلاة المغرب بقليل، فلما دخلنا مجلس العزاء، وجدناهم بسطوا موائد العشاء، وطلبوا من الشيخ أن يأكل ولو لقمة، وذكره بحق الصداقة الحميمة، فرفض أيما رفض، فقالوا: إنها ليست على حساب أهل العزاء، ولا أيتام ولا تشويها شائبة، فقال: لا، وأبى أن يبقى، بل أدى واجبه من تعزيتهم، واستأذن في الذهاب، ذلك هو الورع حقاً.

ومن مظاهر الخشية التزامه الدائم بقيام الليل في الحضر والسفر، ناهيك عن قيامه في المسجد النبوي والمسجد الحرام، عندما يشد رحاله إليهما في رمضان وغيره، وأترك مجال الحديث لمرافقيه في ترحاله؛ يقول الشيخ سعيد بن حمد الحارثي: "عندما تكون في رحلة مع الشيخ الخليلي، يقوم قبل الفجر في الثلث الأخير من الليل فيصلي ما شاء الله" (١)

ويقول محمد الرشيدى: "عندما نكون في سفر مع الشيخ، ويأتي وقت النوم يختار الشيخ الفراش المتواضع الخفيف، ولا يرغب في الفراش الوثير، بل يرفضه، ثم يتوضأ ويتلو القرآن، وينثف على كفيه ويمسح على جسده كاملاً، ثم ينام على الجانب الأيمن وهو يذكر الله، ويستمر على ذكره حتى ينام، فإذا جاء الثلث الأخير من الليل، نهض الشيخ فتوضأ وانتصب يصلي حتى الفجر، ثم يقوم بإيقاظ المرافقين له من نومهم لصلاة الفجر، وبعد الصلاة يبقى في حلقة تلاوة القرآن مع أصحاب التلاوة، ولا ينام بعد الفجر، يقول الرشيدى: أنا

(١) لقاء المؤلف بالشيخ سعيد بن حمد الحارثي

أصبح من نومي ليلاً وأرى الشيخ يصلي، ولكنني أعود إلى نومي، ولعل ذلك تواضع منه أيضاً، وليس ذلك غريباً على من صحب الشيخ. ^(١)

ويروي الشيخ ناصر السابعي قال: صحبت الشيخ في سفره إلى البحرين للمشاركة في أحد المؤتمرات، كنت أسمع خرير الماء في حوالي الساعة الثانية ليلاً، ثم بعد صلاة الفجر، تناولنا الشيخ المصحف، ويقول: اتلوا، فأنا قد تلوت قبلكم. ^(٢)

ويقول سليمان ابن الشيخ الخليلي: إن والدي لا يفوته قيام الليل، ففي كل الليالي التي كنت معه فيها، سفرًا وحضرًا، ما نهضت للفجر إلا وجدته يصلي، وعندما أرافقه إلى العمرة ونقوم نحن للسحور، لا نجد في البيت، بعد سحورنا نذهب إلى الحرم فنجده هناك قائمًا يصلي، وهو يطيل في قيامه، حتى أنني في إحدى المرات، بدأت مع الشيخ في صلاته، فصليت عشرين ركعة والشيخ في الركعة الأولى وما يزال واقفًا. ^(٣) ويروي أفلح ابن الشيخ الخليلي عن عمه حمود، قال: لما كنا في الحرم مع الشيخ، كان يصلي ذات مرة، وأنا صليت بجانبه حتى فرغت من الصلاة التي قدرت عليها فانصرفت إلى البيت كي أنام والشيخ يصلي في الحرم.. وهو بلا شك أحرص ما يكون على القيام في رمضان، وقد أكرمه الله مرات عديدة بمشاهدة الأنوار التي تصحب الملائكة في نزولهم إلى الأرض في ليلة القدر، يقول أفلح: إن والدي يخبرنا

(١) لقاء المؤلف مع محمد الرشدي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ ناصر السابعي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان الخليلي

بمشاهدته تلك في صباح اليوم التالي^(١) ونحن نعلم أن هذه الأنوار لا يشاهدها كل أحد إلا من اختصهم الله من أوليائه المقربين ، وقد سئل سماحته في إحدى حلقات سؤال أهل الذكر بتلفزيون سلطنة عمان عما شاع في أوساط العوام في ليلة القدر من تقلب الأشجار وسطوع الأنوار وغير ذلك ، فأجاب سماحته ، بأن الأشجار لا تتقلب ، وأما الأنوار فإنما يشاهدها الخواص من عباده المقربين . إن الشيخ حريص كل الحرص على الإكثار من القربات إلى الله من الصلاة والصيام والصدقة والحج وعون الآخرين ، مع حرصه على إخفاء ذلك عن علم الناس ؛ ليكون أنقى من كل الشوائب ، فهو يصوم ستاً من شوال وعشر ذي الحجة ، دون أن يعلم ذلك إلا خواص أهله ، مع كثرة تعلق الناس به ، وترددهم عليه ، فمثلاً يخرج للناس في الصباح ، وقد أمر محمد الرشيدني أن يناشد الضيوف ويقدم لهم القهوة ، حتى إذا انتهوا من طعامهم جاءهم الشيخ ، وسألهم إن كان أحد منهم لم تقدم إليه القهوة ، سهواً أو نسياناً مثلاً ، أو جاء متأخراً ، فإذا بهم جميعاً قد أنهوا مهمتهم ، فيقضي لهم حاجاتهم الأخرى ، ويُعرف الشيخ حال صيامه بكثرة صمته فلا يتكلم إلا بضمن ، مع أنه لا يقول إلا حقاً ، فأكثر شغله التسبيح والتحميد إلا إذا سأله سائل ، وذات مرة صادف صيام الشيخ يوم الثلاثاء وهو موعد درس التفسير الذي يلقيه الشيخ عقب صلاة المغرب مباشرة ، فلم يتأخر الشيخ وإنما قام بإلقاء الدرس بين الصلاتين ، وبعد صلاة العشاء حبسه الناس في المسجد ، كل له مطلبه من استفتاء أو طلب قضاء حاجة ، وازدحموا عليه ، فجلس لهم كعادته ، دون تضجر أو أدنى درجة

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أفلق الخليلي

من التبرم أو الضيق ، ومحمد الرشدي يدور في المسجد جيئة وذهاباً ، فأنكر الشيخ خالد الخوالدي عليه هذه الحالة ، فسأله : ما بالك تجوب المسجد؟ ما الذي دهاك؟ فقال الرشدي: الشيخ صائم هذا اليوم ، وإلى الآن لم يجد وقتاً يفطر فيه؟ وهؤلاء الناس قد حبسوه دون مراعاة لشيء ، والوقت متأخر جداً. (١)

قلت له: لا شك عندما يعود إلى البيت سيجد مجموعة أخرى تنتظره في المجلس ، ولن يغادرهم أيضاً. لله أنت أيها الشيخ ! ما أكرم معدنك ! وما أنبل صفاتك !

هذه لمحات خاطفة من تجليات الحرص على مرضاة الله تعالى في حياة علم من أعلام الأمة الذين شرف بهم التاريخ. ولا يفهم مني أنني أرفعه إلى مقام العصمة ، كلا ، ولكنه يقظ متنبه لما يسخط الله في سائر سلوكه ، وجميع حركاته وسكناته

ولا تقنع بسمع دون عين فما عين الحقيقة كالخيال

ولا بأس أن أكمل هنا القصة التي بدأتها سابقاً ولم أتمها ، يقول سليمان ابن الشيخ كنا مجتمعين في بيتي بالغبرة وكان أحد الأطفال قد أكثر الفوضى تحت حماية الشيخ ، ولم يتجاسر أحد منا على الحد منها ، فلما دخلت أم الشيخ هدأ الطفل ، فقال أحد إخوتي كلمة تعبير للطفل ، ومرت الجلسة بسلام ، فلما تكرر مثل ذلك الجمع في روي ، نادى الشيخ أخي المتلفظ بتلك الكلمة ، وقال له : تب إلى الله ، فقال : تبت إلى الله ، ولكن هل لي أن أعرف ذنبي؟ فقال الشيخ : أتذكر يوم كنا بالغبرة في بيت سليمان ، وقلت لأحد الأطفال كذا

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خالد الخوالدي

وكذا ، فهم أخي بالابتسام ؛ لأنه لم ينتبه لذلك ، وما كان قاصداً بها سوءاً ، لكن الشيخ زجره بقوة قبل أن تولد ابتسامته ، وكرر عليه الأمر بالتوبة ، قائلاً له : حقك أن تعزّر ، وشدّد عليه النكير ، وما كان الشيخ ليحمل أبناءه على هذا السمو الخلقى المنبثق من المفهوم العميق لتقوى الله سبحانه ، إلا وهو في منزلة أسمى وأعلى ، وأزكى وأظهر مما يحمل عليه غيره .

الاصلاحية

إن الحديث عن جهود الشيخ - حفظه الله - أمر عسير جداً ، لأن حياته في شتى صورها ، ومختلف جوانبها جهاد لا يفتر ، وكفاح لا يهدأ ، ولكنني أسير على المنهجية نفسها من الاختصار وذكر اللمحات الخاطفة دون الإطالة فضلاً عن محاولة الاستقصاء ، ويمكنني اختصار حركته الجهادية الدؤوبة في تأطيرها بالقول : إنها جميع الحركات والسكنات التي قدّمها الشيخ لتكون كلمة الله هي العليا ، فذلك جهاد لا يستقصي جوانبه حديث ولا تسطير قلم .

أبدأ الدخول إلى ساحة جهاده لأحدو على أطرافها دون أن أخرق الحومة

في وطيسها ، فتلك منزلتي

من لم يقف عند انتهاء قدره تقاصرت عنه فسيحات الخطأ

لقد رأيت أن أقسّم الحديث هنا إلى عنصرين هما :

أ - جهوده في الإصلاح الداخلي ب - جهوده في الإصلاح العالمي

أولاً : جهوده في الإصلاح الداخلي

أبدأ الحديث هنا بلمحة عن واقعه الذي باشر الكفاح فيه بعيد وصوله من زنجبار، فقد جاء إلى وسط ذي جوانب مدلّمة، يفرّد في جنباتها الجهل، بعد أن عشّش في العقول، فانطمست بذلك البصائر، وضرب البعد عن أوامر الشرع بجرانه بينهم، وصال وجال دون أن ينبري له أحوزي، يلوي عنقه، ويضع حداً لتفريغته، وأترك للحوادث كعادتي المجال لتحدث عن إخماعاتها بنفسها، حول الواقع المأساوي المرير الذي واجهه الشيخ بصلافة كالجبال، بهمة تناطح النجوم، فقبل وصول الشيخ من زنجبار - حاضرة عُمان آنذاك - إزمن ليس ببعيد، جاء الشيخ سليمان الباروني بأفكاره الإصلاحية التي لم يكتب لها القبول، فضلاً عن الانتعاش، وأذكر في هذا الصدد قصة حدثني بها الشيخ زياد المعولي تعكس شيئاً من الوضع الراهن للناس آنذاك، قال : إن الشيخ سليمان الباروني اقترح مدارس نظامية، تؤسس على النظام في القبول والدرس، وكان قد اختار طلابه بعناية، مشروطاً عليهم الانتظام في الحضور، والتركيز أثناء الدروس، وذات مرة كان يلقي درسه على طلابه إذا بامرأة تنادي ولدها في الشارع، واسمه عليّان، فقال أحد الطلبة، دون عليان خرط القتاد، فغضب الشيخ سليمان الباروني، وقال: دون ما تلقي يا سليمان أيضاً خرط القتاد، وحدثني أيضاً عن قصة وقعت للشيخ الخليلي نفسه في حال انتقاله ذات مرة من العاصمة إلى الداخلية، يقول ركب الشيخ الخليلي ناقلة كبيرة في تلك الأيام تسمى "بيت فرت" وهذه السيارات تحمل جمعاً كبيراً من الناس، من النساء والأطفال وحوائجهم وأغنامهم أحياناً، وركب الشيخ الخليلي معهم،

والطريق غير معبد مطلقاً، فالسيارة تسير ببطء شديد والمسافة طويلة، يقول الشيخ فأردت الحديث مع أحد الجالسين، فبحثت عن رجل تبدو عليه سمات الرزانة، ويبدو أنه أمثل الراكبين طريقة، وأحسنهم فطنة، فحدثته عن الرحيل من الدنيا إلى الآخرة، وما يجب على الإنسان من الاستعداد لذلك اليوم، ويعد كلام طويل قال لي الرجل: أهذا هو "البرزنجي" الذي قرأناه في مطرح يوم أمس في جلسة المولد" فقال: أي برزنجي؟! وكأن الرجل لم يفهم شيئاً مطلقاً.^(١)

وحدثنا سماحة الشيخ مرة عن تلك الأيام وكان الحديث عن التفاضل فقال الشيخ: عندما قدمت من زنجبار كان صلاة الرجل سريعة جداً: يلتفت فيها بمنة ويسرة، لا يكاد يستقر رأسه، وقد وجدنا صعوبة في تعليم الناس قول: لا إله إلا الله، إذ كانوا يقولون: لا إله إلا الله.

وسألته عن أهم الصعوبات التي كانوا يواجهونها في طريقهم الإصلاحية، فقال: الجهل من ناحية، وعدم تقبل الناس بسبب الجهل أيضاً، فلم يكن هناك حماس لهذا الشيء كله، فقد كان شيئاً غريباً بالنسبة إليهم.^(٢)

يقول الشيخ يحيى بن سفيان الراشدي، في تلك الأيام سرنا بصحبة الشيخ إلى سمائل، فزرنا الجامع وبه حلقة علم هناك، فألقى الشيخ لهم محاضرة، فأحببت بعد تلك الكلمات أن أتعرف على مدى الاستيعاب، وما أحدثته في نفوسهم من الأثر، فاخترت نخبة من الحاضرين ممن أتوسم فيهم الفطنة والفهم من الموجودين، فسألتهم؛ عن هذه المحاضرة، فقالوا: إنه بحر يتدفق، وأخذنا

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد بن طالب المعولي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

يطنبون في الشتاء، بعد ذلك سألتهم عن أهم الأفكار التي طرحها الشيخ في المحاضرة، فما ظفرت منهم بشيء وإنما كانوا منبهرين فقط.^(١)

وذات مرة ذهبنا إلى بهلا في أمسية أقيمت في إحدى المدارس، وأفتحت الأمسية بالقرآن، فصَفَّقَ الحضور، ثم قام الشيخ ليلقي محاضرتة، نهاهم خلالها عن التصفيق مبيِّناً لهم أصول هذه الظاهرة، ثم حدثهم عن صلاة الجماعة وحثهم عليها، فلما انتهى من المحاضرة صَفَّقَ له الحضور مرة أخرى. وكانهم ما فهموا ما يقول، وعلى الرغم من كل ذلك كان الشيخ متفائلاً: يقول لي: إن هذا سيؤتي ثماراً طيبة بإذن الله.^(٢)

لقد شمرَّ الشيخ عن ساعد الجد، وامتطى العزيمة متسلحاً بإرادة تفت الصخر، متزوداً في صراعه مع هذا الواقع ما آتاه الله من العلم والإخلاص وحب التضحية بكل غالٍ ولئيم، لا يدخر شيئاً من جهده ووقته إلا بذله في ذلك السبيل، فقد كانت عُمان تنتظر أمثاله كما تنتظر الأرض المجدبة الغيث من السماء، على حد قول الشيخ يحيى بن سفيان الراشدي، ومن أهم ما اعتنى به الصلاة، لكي يقيمها الناس على وجهها. ومحتمهم على صلاة الجماعة، فقد كان الناس خصوصاً في السفر يركبون سيارة واحدة ثم ينزلون للصلاة، فيصلون فرادى، وقد أولى عنايته الفائقة بنشر العلم، لأن انتشاره في أوساط الناس هو الحل الجذري للعديد من المشكلات المترسِّخة في أوساطهم، ولذلك كانت له رحلات إلى العديد من المناطق خارج مسقط.

(١) لقاء المؤلف بالشيخ يحيى بن سفيان الراشدي

(٢) السابق



جانب من الحضور الندوة التي عقدت للشيخ عن "إعادة صياغة الدعاء"

يقول الشيخ يحيى بن سفيان الراشدي الذي كان رفيقاً له في السفر غالباً، كانت للشيخ رحلات إلى عدة مناطق لإرشاد الناس والبحث عن طلبة يقبلون على تلقي العلم، ممن لديه الرغبة والاستطاعة، فقد سافرنا إلى عدة ولايات حتى وصلنا "بديّة" على سيارة "لاندروفر" كنا اثنين، أنا السائق وهو بجانيبي، والطريق ترابي مرهق. ثم كانت له رحلات إلى جعلان وصور وإلى فهود أيضاً.^(١)

أما رحلة الشيخ إلى فهود فإنها رحلة شاقة جداً، ولولا لطف الله لكانت الكارثة، يقول الشيخ يحيى بن سفيان، اتجهنا إلى فهود لإرشاد العمال والموظفين في الشركات هناك، وكانت الرحلة على طائرة صغيرة، تخفق كأنها

(١) لقاء المؤلف بالشيخ يحيى بن سفيان الراشدي

جرادة في صعودها وطيرانها، فلما كنا فوق الجبل الأخضر، أخذت تعلو وتهبط وتهتز حتى أثرنا الذهاب على السيارة من شدة ما وجدنا فيها، وبعد أن وصلنا بتنا تلك الليلة هناك، وفي رحلة العودة ركبنا الطائرة نفسها، وقبل أن تحلق بقليل رأينا الدخان يتصاعد منها، فنزلنا عنها، والحمد لله أنها ما تزال على الأرض فأحضرت لنا طائرة أخرى أكبر منها بقليل وعدنا بسلام.^(١)

تلك لمحات من التضحيات والمصابرة في جهاد الشيخ - حفظه الله - ضد الجهل، والانحراف، ومع هذا الجهل المتضني كان هناك ظاهرة الإلحاد، والمد الشيوعي البغيض، يقول سماحة الشيخ : " وفي عصرنا نحن شهدنا فترة من الزمن كان الإلحاد فيه رمز التقدم وشارة الرقي، ودليل التحضر، وكان الاستمساك بالفكر الديني في نظر كثير من هؤلاء استمساكاً بأمور وهمية لا تلبث - حسب نظرهم - إلا أن تتلاشى، فقد غشيت الناس غاشية من الإلحاد، هذه الغاشية لم تلبث أن بددت أفكارهم وتركبهم يهيمون في هذه الحياة، لا يعرفون قبيلها من دبيرها، ولا يفرقون بين نافعها وضارها، إنما مقياس النفع والضرر عندهم ما يكسبون أو يخسرون من شهوات هذه الحياة الدنيا، ولكن ما لبثت هذه الحضارة أن تزلزلت أركانها، وتصدع بنيانها".^(٢)

لقد شاهد الشيخ بعيني رأسه ما ارتكبه الشيوعيون في زنجبار، - وليس من رأى كمن سمع - لذلك كان واعياً جداً لمخططاتهم الخبيثة، لقد كان ذلك الهمُّ

(١) لقاء المؤلف بالشيخ يحيى بن سفيان الراشدي

(٢) الإيمان مفهومه وتطبيقاته، شريط ٦٥/ ج

يقضُ مضجعه، ويورقه طوال الليل، فانبرى لها يجادل معتقيها، ويحذر الناس منها بشتى الوسائل، ويكل ما أوتي من قوة، حتى اندحرت، بحمد الله تعالى.

إنشاء المعهد الإسلامي

أنشئ المعهد الإسلامي بالوطية بتوجيه من سماحة الشيخ الخليلي، يقول الشيخ أحمد بن سعود السيابي: "لقد رأى الشيخ أن لا بد من إنشاء معهد ديني، وأخذ يطالب بذلك، فأسس المعهد الإسلامي " بالوطية " بطلب من الشيخ، وجعلت له روافد (معاهد إسلامية) في البلدان بطلب من الشيخ أيضاً، وبالتنسيق مع معالي السيد فيصل بن علي وزير التربية والتعليم آنذاك، فأنشأت معاهد بالرستاق، ونزوى، ويهلا، وسماثل، وسناو، وبيدة" (١)

وقد أهتم الشيخ بطلبة المعهد الإسلامي، فكان يزورهم ويلقي لهم المحاضرات، يقول الشيخ يحيى بن سفيان: "كان المعهد الإسلامي يستقبل الطلبة ما قبل الإعدادية بستتين، ثم المرحلة الإعدادية ثم الثانوية، وكان الشيخ يذهب إليهم، حيث كان مسكنه في روي، ويصلي معهم قيام رمضان، ويلقي لهم دروساً بعد صلاة القيام في مكبر الصوت، ويتوافد ساعتها الطلبة والناس جميعاً عن يسمع صوته إلى المسجد، واستمرت تلك الرعاية من سماحته لأبنائه الطلبة بالمعهد الإسلامي، الذي حلت مكانه كلية الشريعة الآن". (٢)

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن سعود السيابي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ يحيى بن سفيان

٢-إنشاء معهد القضاء الشرعي .

جاءت فكرة معهد القضاء والإمامة والخطابة ، أو معهد القضاء الشرعي والوعظ والإرشاد بمطالبة حثيثة من سماحة الشيخ للمسؤولين في الدولة ، حين رأى ضرورة تخريج جيل متشبع بالعلوم الشرعية ، متخصص فيها ، لأن المجتمع العماني آنذاك كان مفتقراً افتقاراً شديداً إلى فئة متفهمة ترشد الناس إلى الخير ، وتبصرهم بأمر دينهم ، وتحكم بينهم بالعدل ، وتم استئجار مبنى في روي ليكون مقراً لهذا المعهد يأوي طلبته ليل نهار، وكان سماحة الشيخ يتعهد هؤلاء الطلبة ، ويمنحهم الكثير من وقته ، فقد كانوا بارقة الأمل الذي يتلألأ أمام ناظره ، ونسمات البشرى التي تداعب حناياه ، بانقشاع عتمة الجهل عن المجتمع ، وانمحاء آثاره التي خلفها وراءه ، يقول الشيخ أبو الحسن شحاته ، وهو من المدرسين الأوائل في المعهد : "كان الشيخ يصلّي معنا صلاة العصر في المعهد في أيام المعهد الأولى ، ويبقى إلى الساعة العاشرة مساء ، وبعد صلاة العشاء كان يحدث الطلبة ، ويناقشهم حول المقررات الدراسية ، ويعطى نصائحه وتوجيهاته ، ويتابع سير التدريس عن كسب ، وكان يرافقه أحياناً الشيخ سعيد بن حمد الحارثي ، والشيخ سليمان السالمي ، والشيخ ناصر الإسماعيلي ، ويبدولي أن جهد الشيخ فيما يتعلق بالمعهد كان يسير في اتجاهين :

الأول : السعي المستمر إلى تطوير المعهد في مناهجه ، وأن يقوم على أسس ثابتة تكفل له الاستمرار ، لذا صدر مرسومان سلطانيان بإنشاء المعهد أحدهما عام ١٩٧٦ ، والآخر في عام ١٩٨٦ م .

الثاني: العناية الخاصة بالطلبة.

أما الأول فيتضح من خلال الدور الذي كان يؤديه سماحته بصفته رئيس المعهد، ونائب الرئيس بمجلس المعهد الذي كان يرأسه وزير العدل والأوقاف آنذاك، يقول الشيخ زياد بن طالب المعولي: "عندما كان المعهد باسم معهد القضاء الشرعي، كان هناك مجلس يعقد بصفة دائمة، يسمى "مجلس المعهد" ومحضره رئيس المجلس وهو معالي الوزير، ومحضره سماحة الشيخ، وكنت أحضره بصفتي ممثل وزارة التربية والتعليم بمجلس المعهد قبل الانتقال إليه، وأعجبت بذلك الحرص الشديد من سماحة الشيخ للارتقاء بالمعهد، وتثيته بصفة علمية أكاديمية، ومن خلال الاستماع إلى مداخلاته ومحاوراته، وجدت لهفة شديدة في حديثه نحو تطوير المعهد، وكان ذلك أحد الأسباب التي شجعتني للموافقة على العرض الذي قُدم إلي للانتقال إلى إدارة المعهد، فقد أحسست أن هناك حاجة إلى بعض الخبرة المتواضعة لدي، لكي أقدمها للمعهد، وبعد الانتقال كان الشيخ يشجّعني دائماً، ويستمع إلي باهتمام فيما أحدثناه من تطوير، وكان يشاركنا أحياناً في اجتماعات هيئة التدريس، ويحثنا على الارتقاء بالمعهد في جميع شؤونه" (١) وأخبرني الشيخ زياد مرة أن من المواقف المؤثرة في نفسه التي دفعته إلى الانتقال إلى المعهد، أن سماحة الشيخ لقيه في جامع السلطان قابوس بروي، فقال له: نريدكم أن تكونوا معنا في إدارة المعهد، وأخبرني مرة، قال: "عندما ظهرت فكرة دمج المعاهد الإسلامية وكان من بينها المعهد، بدأنا بإنهاء بعض المراحل، وتوقف التسجيل وبدأ اليأس

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد المعولي

يتابنا ، بينما كان الشيخ متفائلاً كثيراً ، فقد التمس سماحته من المقام السامي استمرار المعهد ، وفعلاً جاءت الأوامر السامية باستمراره في أداء رسالته ، وهذا يدل على حرص غير عادي من سماحته على المعهد. ^(١)

أما الأمر الثاني وهو عنايته بالطلبة خاصة ، فأبدأ الحديث فيه بعناية سماحته بأساتذة المعهد والإداريين فيه ، وتقديره الكبير لهم ، فهو يدعوهم سنوياً لتناول وجبة العشاء في بيته ، وكلما لقي أحداً منهم أولاه عناية



الشيخ يتناول وجبة الغداء مع ضيوفه من البيتين الإدارية والتعليمية والطلبة الوافدين بالمعهد

خاصة ، واستمع إلى ملاحظاته فيما يتعلق بالمعهد والطلبة عموماً ، يقول الشيخ زياد المعولي : " عندما أזור الشيخ في مكتبه يسألني عن أخبار المعهد ، وأحوال الطلبة ، وكنت أحسُّ بأن الكثير من المعلومات تسبقني إليه ، وذلك دليل لهفته الشديدة لمعرفة الأحوال ومتابعتها ، ودليل اهتمامه الكبير ، فمرة من المرات مرض أحد الطلبة اليمنيين المسجلين بالمعهد ، وأدخل المستشفى ، وأنا

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد المعولي

لم أعلم بأن حالته سيئة إلى ذلك القدر ، وفي صباح اليوم التالي كنت في مكتب سماحته ، فأخبرني بأنه قد زار الطالب مساء أمس بالمستشفى ، مع ازدحام الأعمال لديه ، وهو يتابع أحوال الطلبة الدينية والعلمية ، ومدى تقدمهم ، ويتابع الشيخ زياد قائلاً : مع هذه العناية والتوجيهات المستمرة لا يتدخل الشيخ في عملية قبول الطلبة بالمعهد ، وإنما يعلّق على الرسائل التي تقدم إليه لطلب المساعدة بتعليق عميق جداً ، يتسق مع النظام المتبع دون محاباة لأحد . ولم يكن هذا الاهتمام خاصاً بالطلبة وحدهم وإنما يشمل الطالبات أيضاً ، يقول الشيخ زياد بن طالب : عندما بدأنا في تسجيل الطالبات بالمعهد ، كان سماحته يتابع باهتمام خطوات العمل حتى كان يسألنا عن عدد الطالبات المنتهقات ، وغير ذلك ، وقد برزت مسألة إعداد سكن للطالبات المسجلات من خارج مسقط ، ولضيق الإمكانيات في المعهد ، كان التوجه إلى عدم توفير هذا المسكن ، ولكن الشيخ وقف وقفة صامدة ، وأصرّ بشدة على إيجاد سكن للطالبات ، مما دفعنا إلى اجتماع خاص بمعالي الوزير ، حضره الشيخ نفسه ، وتمّت الموافقة أخيراً وأعدّ السكن بعون الله وتوفيقه^(١) ، ويحرص سماحته على الالتقاء بكل دفعة جديدة من الطلبة أو الطالبات ، فيرحب بهم جميعاً ويحثهم على طلب العلم ، ويبين لهم منهجية الطلب ، والمشكلات التي قد تعترض طريقهم وسبل علاجها ، ولا يتوانى أن يزورهم خلال دراستهم ، وأحياناً في الفصول الدراسية ، حين يرى الحاجة داعية لذلك . ومن حرصه الشديد على نشر العلم الشرعي في عمان ما أخبرني به الشيخ أحمد بن سعود السيابي ،

(١) لقاء المؤلف بالشيخ زياد بن طالب المعولي

قال: " بعد أن أعلن صاحب الجلالة السلطان قابوس في خطابه السامي بناء جامعة السلطان قابوس ، توجه سماحة الشيخ إلى المقصورة السلطانية ، وطلب من جلالتة أن تحتوي الجامعة على كلية للشريعة ، وإيجاد أماكن خاصة للطالبات^(١)



الشيخ الخليلي يوزع الجوائز التشجيعية على الفائزين في حفظ القرآن الكريم بولاية إبرا ومن ذلك رعايته للمراكز الصيفية في الولايات ، بسؤال القائمين عليها عن مستواها ، وتشريف بعضها بزيارته ، ورعاية احتفالات اختتامها ، ومن أمثله ذلك أن جمعنا القدر مرة مع مجموعة من الشباب من بعض الولايات في مكتب الشيخ ، فأخذ الشيخ يسألهم عن سير المراكز الصيفية ، وهم يشرحون له ، ثم

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن سعود السيابي

سألني كيف المراكز عندكم ؟ فأخبرته بما لدينا من جهد متواضع لا يذكر ، وأخبرني الشيخ خميس العدوي قال : كان عندنا موسم ثقافي في بهلا ، وقد وعدنا الشيخ بزيارة في هذا الموسم ، فلما حان الوقت ازدحمت الأعمال لديه بكثرة ، فاعتذر لنا عن عدم الحضور ، فقلت له : يا سماحة الشيخ ، إننا بحاجة إلى وقتكم معنا " فقال : إن شاء الله ، وأخذ يرتب أعماله حتى يتهيأ للحضور ، وفعلا حضر معنا الموسم الثقافي^(١)

ومن اهتمامه بالعلم عنايته الشديدة بالمؤسسات التعليمية بالسلطنة التي تتجلى في مظاهر عدة منها: زيارته المتكررة لطلاب هذه المؤسسات ، ورده على استفساراتهم ، وتوجيه النصح والإرشاد لهم ، وحثهم على مواصلة الطلب والجد والاجتهاد ، ومن ذلك متابعة وضع المقررات الدراسية ، وإشرافه على مراجعتها ، فكثيراً ما يرأس لجان التأليف والمراجعة ، ومن ذلك إلقاءه الدروس والمحاضرات في قاعات المؤسسات التعليمية باستمرار ، فله محاضرة بجامعة السلطان قابوس على مدار الأسبوعين بين العشاءين ، وكانت السلسلة الأولى دروساً في العقيدة ، والسلسلة الحالية دروس في الفكر الإسلامي ، وله محاضرات كثيرة وزيارات متكررة إلى كليات التربية والمعاهد وغيرها ، ويحرص كثيراً على الالتقاء بالطلبة الدارسين خارج السلطنة عندما تكون له زيارات إلى تلك الدول ، ويقوم بالاطلاع على مشكلاتهم ، وإبداء النصح والتوجيه لهم .

ومن مظاهر جهاده ، قيامه بواجب الإصلاح بين المتخاصمين ، بل والمختلفين في الرأي ، ومحاولة الجمع بين آرائهم ، فأحياناً يختلفون على إقامة

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي

الجمعة ، وأحيانا على بناء مسجد ، وأحيانا على الأسلوب في الدعوة ، وأحيانا وأحيانا... والشيخ هو الذي ينتزع فتيل الخلاف ، ويلمّ الشمل ، ويجمع الشتات ، بفضل الله وعونه وتوفيقه ، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تعدّ ، ولا أطيل بها البحث لشهرتها .

ومن مظاهر جهاده أيضا وقوفه بالمرصاد لكل من حاول نشر أفكار تخالف الحق ، وتناهد أمر الشارع الحكيم ، ولا أدل على ذلك من وقفته الصامدة أمام فكرة تحرير المرأة التي رُوّجَ لها في حقبة سابقة في الوسط العماني ، ووجدت لها من يسوّقها ، ولكنهم اندحروا بحمد الله ، ومن ذلك رده على حدى الباحثات الاجتماعيات في عزوها سبب الطلاق في المجتمع العماني إلى الزواج المبكر ، وردّه على من أنكر اليوم الآخر ، وردّه على عبد الرحيم الطحان الذي قال : " لا خير في قرآن بلا سنة ، ولا خير في سنة بلا فهم لسلفنا الكرام " وقال : " فكل من يدعو إلى كتاب بلا سنة فهو ضال ، وكل من يدعو إلى كتاب وسنة بلا فهم لسلفنا الأبرار فهو ضال " ^(١) فرد عليه سماحته في ثلاثة أسطر سمعية ، خرجت فيما بعد في كتاب " وسقط القناع " ورد على كثير من النصارى المقترين الذين تهجموا على الإسلام .

ومن مظاهر الجهاد العظمى سعة صدره لكل الناس ، وتسخير وقته الثمين لتلبية حاجاتهم مع كثرة ما يشغله من الأمور المهمة ، فقد أخبرني محمد الرشيد ، قال : لما كان الشيخ يولف كتاب زكاة الأنعام ، أراد أن يتفرغ قليلا

(١) محاضرة للشيخ عبد الرحيم الطحان أقيمت بإحدى الدول العربية ، بحوذة الباحث نسخة

من زحمة الزيارات لغير ذوي الحاجات ، الذين يأتون في أحيان كثيرة لاستغلال أوقات فراغهم الكبير ، لذا ذهب الشيخ إلى مكان منزول ليتفرغ للتأليف ، ولكنه مع ذلك كان يحرص على الذهاب إلى مكتبه في وقت مبكر ، فقال له الرشدي : يا شيخنا لو تفرغت أكثر للتأليف حتى تنهي هذا المشروع ، فقال الشيخ إن للناس حقوقاً علينا ، وقد غبنا عنهم وقتاً كثيراً ، ولا بد أن نجعل لهم نصيباً من الوقت ^(١) لله درك يا سماحة الشيخ ، والله در أيك . أين أولئك الذين تشاغلوا ولم يشتغلوا ، ووضعوا أنفسهم في بروج مشيدة من العاج ، وكانهم لم يعرفوك ، وما رأوك ، ولا طرق مسامعهم شيئ من سيرتك في التضحية ، وما حملوا عشر معشار ما تحمل من الهموم ، نعم إن لله رجالات .

يقول الشيخ حميد اليعمدي ، كنا مرة في نزوى ورجعنا إلى مسقط في الساعة الحادية عشرة تقريباً ، وكان الشيخ مريضاً ومرهقاً ، فرأى المجلس مضاءً فأبى إلا الدخول ، فقلنا له إنا نكفيك المهمة ، وأنت مريض ، قال : " لا ، لعل لهم حاجة فأقضيها لهم ^(٢) "

ومن مظاهر جهاده - حفظه الله - إنكاره المنكر بجانب أمره بالمعروف ، وعدم المبالاة بما يلقاه في سبيل ذلك من المحن ، معتصماً بالله تعالى ، إنه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ، وذلك على مستويات عدة ، وبأساليب شتى ، وطرق مختلفة بما يناسب المقام ، ويتفق مع الحال . فأحياناً يوجه الإرشاد عموماً ، ويعالج المنكر عند أولئك القوم بطريق المحاضرات . وأحياناً يوجه النصح إلى

(١) لقاء المؤلف بمحمد الرشدي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ حميد اليعمدي

الفرد نفسه ، أو الجماعة نفسها ، وقد تقدّم شيء من ذلك ، وأورد هنا ما لم يرد هناك ، فمما حكاه الشيخ زياد بن طالب المعولي قال : كان ابن خالي طلب مني أن أتوسّط له عند الشيخ ليعقد له قرانه ، فأخبرت الشيخ ، فقال : لا بأس بشرط أن يحضر والد الفتاة ليخبر الشيخ بذلك ، فجاء والد الفتاة ، وكان يتختم بخاتم من ذهب ، ودخلنا جامع السلطان قابوس بروي فسألني الرجل : أأخلع الخاتم ؟ وكنا في مواجهة الشيخ ، ولا مجال للخلع تلك اللحظة ، فقلت له : تعال وسنرى ما يحصل لك ، فسلمنا على الشيخ وجلسنا ، وذكرت الموضوع ، وبعد ذلك سألت الشيخ الرجل عن خاتمه : ما هذا ؟ فقال الرجل : الشيخ هذا ذهب ثقلي وليس أصلياً ؟ فقال الشيخ : الذهب حرام على الرجال ، الثقلي والأصلي سواء " فخلعه الرجل ، وصلحت أحواله بعد ذلك بسبب تلك النصيحة ، وتغيّر إلى الأحسن بكثير .

ثانياً: جهوده في الإصلاح العالمي

لم تكن جهوده سماحته منحصرة في الإصلاح الداخلي وإنما كانت له جهوده المتميزة في العالم الإسلامي وخارجه بما يسعفه به وقته ، والحديث عن هذه الجهود يطول لمن رام الإلمام بمجوانبها ، فقد تقدم أن أول رحلة خارجية لسماحته كانت في عام ١٣٩٢ هـ ومنذ ذلك الحين تتواصل الرحلات في المساهمة الفاعلة لمناقشة قضايا الأمة وحل معضلاتها ، ولو افترضت أن سماحته يسافر بمتوسط رحلة واحدة كل شهر لكان مجموع رحلاته إلى زمن كتابة هذه السطور ما يقارب ثلاثمئة وخمسة وتسعين رحلة ، مع أن سماحته

يرحل أحيانا في الشهر الواحد أربع رحلات ، ولا يعني هذا أن الجهد الإصلاحى منحصر فى الأسفار ، وإنما هى إحدى تجليات هذا الجهد المبارك .
 يمكن إنجاز مظاهر جهوده الإصلاحية فى العالم الإسلامى فى النقاط التالية :
 الأولى : سعيه الحثيث إلى رقى الأمة المسلمة وتمسكها بدينها فى شتى مذاهبها ومدارسها الفكرية فى شتى بقاع الأرض ، ويتجلى ذلك فى استخدامه الوسائل التالية :

أ- دعواته المتعددة زماناً ومكاناً إلى الوحدة الإسلامية بين جميع الطوائف الإسلامية ، فكم دعا فى الندوات والمؤتمرات وفى وسائل الإعلام ، وفى لقاءاته الفردية بالعلماء ، وزياراته الرسمية وفى كتبه وسائر مؤلفاته إلى توحيد الصفوف ، ولم الشمل ، ورتق الفتوق ، وترك التنابز بالألقاب ، وإلى تصحيح التصورات فيما يتعلق بهذه القضية ، فقد لفت نظر الكثيرين بتبني هذه الفكرة ، وكأنه يسعى إلى المستحيل ، فبعضهم يرى أن النبي ﷺ أخبر أن الأمة ستفترق ، فالسعى إلى توحيد الأمة فيه تكذيب للنبي ﷺ ، فرد سماحته على ذلك قائلاً :
 " إن كان النبي ﷺ أخبر عن افتراقها فذلك إنما هو خبر قد تحقق فعلاً ، لكن لا يعنى ذلك أن يستمر هذا الافتراق طول عهود هذه الأمة ؛ فإنه من الممكن أن يزول الافتراق ، وأن تعود الأمة إلى صفو الوحدة ، كما كانت من قبل فى عهد النبي ﷺ وفى عهد الخلافة الراشدة الصحيحة ، من أجل جمع كلمتها ، وظهور ربحها ، وإعلاء كلمة الله تبارك وتعالى

في هذه الأرض، وإسقاط كلمة الباطل، ونحن نأمل أن يتحقق ذلك، ونسعى إلى وحدة الأمة من غير أن نكون مكذابين لقول الرسول ﷺ^(١)

ب. تداركه السريع لكل بادرة من بوادر الشقاق وإمارات الخلاف بين طوائف الأمة المسلمة، مسخراً في ذلك ما آتاه الله من علم غزير، وفكر منير، وتصرف في فنون القول، ودعائه في الخلق، وصبر وسعة احتمال، فمن هذه المواقف:

- ما أخبرني به الشيخ خميس العدوي، وقد تقدم ذكره، قال: " في مؤتمر التقريب بين المذاهب" الذي انعقد في سوريا برعاية جمعية الإمام الخوئي، ورياسة عبد المجيد بن الإمام الخوئي، وفي إحدى جلسات المؤتمر كانت رئاسة الجلسة لسماحة الشيخ، فقام شخص من أهل السنة وتكلم على الشيعة كلاماً شديداً في كثير من القضايا، وفي المقابل كان الرد من علماء الشيعة الحاضرين عليه رداً - ربما - أكثر في القوة والمقدار من كلام الرجل المردود عليه، واشتدت الأزمة بين الطرفين، فتدخل الشيخ، ووضع نهاية لهذا الجدل بكلمته التي قال فيها: علينا أن نتأدب مع الصحابة ومع آل البيت بالأدب الإسلامي الرفيع، وتكلم كلاماً رتق به الفتق الحاصل، ولم به الشمل، وكان الخطاب مؤثراً، جعل العلماء يعجبون به، ويثنون على مهارته وقدرته على حسم النزاع مع اجتماع الكلمة، وما يتميز به من فكر نير، يلمّ شعث الأمة ويوحّد صفّها، مع

(١) جواب لسائل عن سبل وحدة المسلمين، محرر من جواب مسجل

أنه طرف ثالث من حيث المذهب، وأخذوا يرددون ذلك الثناء حتى نهاية المؤتمر^(١)

- أخبرنا الأستاذ عبد المنعم البحر من أهل صلاة، قال : حضرت مرة خطبة الجمعة ، فتعرض الخطيب لبعض المسائل التي أخالفه فيها، وبعد الصلاة تحدثت إلى الناس مبيناً وجهة نظري ، وثار الخلاف في المسجد، فلما زار الشيخ الخليلي صلاة، دعاني إليه، وكان قد علم بما جرى من موقفي ، فنصحني كثيراً، وبين لي منهجية الحوار ، وأسلوب التعامل مع من يخالفنا في الرأي، حرصاً على جمع الشمل ، والمودة بين المسلمين.

- أخبرني الشيخ أسعد المقيمي أن الشيخ حال زيارته للجزائر ، ذهب مع جماعة من الإباضية هناك للصلاة في مسجد المالكية ، وأحاطوه بكل إجلال وتقدير ، وألقى فيهم محاضرة حثهم فيها على الوحدة ونبذ الخلاف ، وكان يحترم علماءهم غاية الاحترام ؛ فأعجبوا بعلمه وخلقه منتهى الإعجاب^(٢).

ج - بعث العزائم وإيقاظ الهمم والتذكير بأجداد السلف في سبيل تحقيق هذه الغاية ، وذلك كثير في مشاركاته في المؤتمرات ، وأكتفي هنا بذكر موقف ترك أثراً كبيراً، وصدى عظيماً في نفوس المسلمين بالاتحاد

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أسعد المقيمي

السوفيتي سابقاً على وجه الخصوص ، والمشاركين في المؤتمر من شتى الأقطار الإسلامية على وجه العموم .

ففي مؤتمر عقد في " طشقند " بمناسبة مرور ١٢٠٠ عام على وفاة الإمام الترمذي ، وقد كان أحد المشايخ من إحدى الدول العربية المشاركة في تلك البلاد المستهدفة من عدوها قد تحدّث عندما أعطي المجال عن الشريكيات والقيور والنذور ، مما أورث استياء لدى البعض ، فلما أعطي مجال الحديث لسماحته في جمع غفير من المسلمين والقساوسة النصاري وغيرهم ، في قاعة كبيرة تغص بالحاضرين ، حثهم الشيخ على التمسك بتعاليم الإسلام ومبادئه ، والتضحية في سبيل ذلك بالغالي والثمين ، وذكرهم سماحته بأسلافهم من العلماء الذين ساهموا في بناء حضارة الإسلام من بلاد ما وراء النهر ، كالإمام الرازي والزخشري والجرجاني وغيرهم ، وأوضح بعض جهودهم الإسلامية ، ثم دعاهم إلى أن يسيروا سيرتهم وينهجوا نهجهم ، فها هي الأمة تنتظر جهودهم ومساهماتهم ؛ لتكون امتداداً لتلك الجهود الخيرة التي قدّمها سلفهم الصالح ، وأفاض سماحته في ذلك ، فلما أنهى كلامه ارتجت القاعة بالتكبير ، فقد أعاد إليهم ثقتهم بأنفسهم في وجه التيارات المعادية ، وألهب فيهم العزيمة والإرادة ، ورسّخ فيهم مبدأ الثبات والصمود. ^(١)

(١) قامت مجلة منار الإسلام التي تصدر في الإمارات بنقل هذه المحاضرة في أحد أعدادها

ومثل هذا الموقف حصل لسماحته في باكستان أيضاً، فبعد الانتهاء من إحدى محاضراته هناك علت أصوات المسلمين بالتكبير، وهرع إليه الصحفيون يسألونه عن الشهادات التي يحملها ؛ فأجابهم بأنه يحمل شهادتين : الأولى شهادة أن لا إله إلا الله ، والثانية شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ .

د- تشخيصه أمراض الأمة التي أدت بها إلى التقهقر ، وبيان أسباب ذلك ، وسبل معالجتها ، داعياً الأمة إلى النهوض من خلال استخدام الطرق التالية :

١- دعوة الأمة إلى اليقظة والانتباه لعصرها ، وإيقاد العزائم في نفوس أبنائها ، يقول سماحته : ولئن أرادت أمتنا المنافسة على هذه المعالي فالميدان فسيح ، وقصبات السبق تلوح على رأس المضمار ، ورب لاحق كان أسبق إلى الغاية وأسرع إلى درك المأمول ، ولكن ذلك موقوف على يقظة الهمم ، وتوقد العزائم وإحكام الخطط ، ووثوب الخطى لطي المسافات السحيقة .. "وكل من سار على الدرب وصل"^(١)

٢- التزام المسلمين بالاستقلال التام في العقيدة والفكر والمنهج والقربات والعبادة والقول والعمل والسجايا والأخلاق ، وهذا يعني أن صفحة الحياة الإسلامية يجب أن تظل بيضاء نقية ، لا

(١) كذبة إيريل . سماحة الشيخ الخليلي ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

يدنسها شيء من شوائب الفساد ، ولا يكدر صفوها ما يذهب
ببهاثها ، أو يؤثر على رونق بقائها^(١)

٣ - إحكام خطة النهوض لمسابقة الزمن ، ويشمل ذلك :

أ. تحصيل العلم والخبرة بثتى الطرق والوسائل وتكثيف
الدراسات والبحوث المتنوعة.

ب. توحيد الأهداف والغايات بين فئات المسلمين.

ج. تنسيق الجهود وتنظيمها بحيث يتحرك الفرد في إطار المجتمع ،
والمجتمع يعمل كأنه فرد في استجماع فكره وضبط خطواته ،
وتنسيق رواده.^(٢)

د. الأخذ بأسباب التقدم الحضاري ومناقسة الغربيين على
التغلغل في أعماق الطبيعة ، وتفجير طاقاتها واستخراج
مكوناتها ، وإحصاء خيراتها ؛ لأجل التحكم في سير مركبة
الحضارة حسب الوجهة الإسلامية^(٣)

الثانية : السعي إلى نفي التهم ، ودحض الفرى الملتصقة بالإسلام
والمسلمين ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة ، من خلال الحوارات والردود
الرصينة على أفكار المفترين من النصارى والملحدين ، بل قد تصدر أحياناً
من المسلمين عن قصد وغير قصد ، فمن ذلك ردّه على المفترى النصراني ،

(١) كذبة إبريل . سماحة الشيخ الخليلي ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) السابق ، ص ٥٠ .

(٣) السابق ، ص ٥١ .

وبحثه منشور على الشبكة العالمية ومسجل بصوته .. ورده على الشيخ عبدالرحيم الطحان الذي قال : " لا خير في قرآن بلا سنة ، ولا خير في سنة بلا فهم لسلفنا الكرام " (١) وقد أشار سماحته في رده إلى أنه تعمّد تأخير الرد ؛ لينظر ردود فعل أتباع عبد الرحيم ومن على مذهبه ، أتراهم يلتزمون الصمت أم ينكرون عليه مقولته تلك ؟ فلما طال الانتظار نهض الشيخ لتبديد تلك الشبهات ، وهتك تلك الأوهام .

الثالثة حرصه الشديد في زيارته للغرب على الدعوة إلى الاسلام قولاً وعملاً ، ومحاورة أصحاب العقول ، وذوي المكانة الاجتماعية منهم ، حتى في رحلاته العلاجية ، وأذكر هنا موقفين :

أحدهما : لقاءه بالدكتور موريس بوكاي صاحب كتاب " العلم في التوراة والإنجيل والقرآن " يشير سماحته إلى لقائه به قائلاً : " التقيت به في المنتدى الخامس عشر للفكر الاسلامي ، والذي انعقد بمدينة الجزائر عاصمة الجمهورية الجزائرية في عام ١٤٠١ هـ عام ١٩٨١ م ، والثاني لقاؤه بالدكتور " هيمن " وهو طبيب أمريكي من أصل يهودي يعمل جراحاً للأعصاب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهو رجل علماني ملحد ، أشرف على علاج سماحته في الولايات المتحدة ، وكان يوجه نصائحه الطبية إلى سماحته ، وكلما وجه نصيحة قال له الشيخ : إن شاء الله فاعترض الدكتور هيمن عليه متسائلاً : لِمَ قولك إن شاء الله ، إن شاء الله ، بل هي مشيتك أنت . فأجابته الشيخ : بل مشيئة الله ، فإن

شئت شيئاً ولم يشأ الله ذلك فإن مشيئة الله هي النافذة، فقال له: كيف ذلك، ها أنا أمارس ما أشاء، أتيت هنا بمشيئتي، وأفعل ما أريد بمشيئتي، شاء الله أم أبي، فقال له الشيخ: إنما تفعل ما تفعله؛ لأن الله شاء لك ذلك، أرأيت أن لو جئت إلى المستشفى لتعالج الناس، ألا يمكن أن تسقط مريضاً وبحول المرض ينك وبين ما تريد؟ قال: نعم، قال الشيخ: فتلك هي مشيئة الله لا مشيئتك؟^(١)

ودخل الشيخ معه في حوار عن الإيمان بالله، وأنه خالق الوجود ومدبره، فقال الدكتور: لقد بقيت مدة لا أؤمن بالخالق، ثم توصلت بعد ذلك إلى قناعة أن هذا الكون لا بد له من خالق. ولكني الآن مع إيماني هذا لا أعتقد أن هذا الخالق هو الذي يسير هذا الكون، وإنما تسيره الطبيعة؟ فقال الشيخ: إن الطبيعة ميتة لا عقل لها ولا سمع ولا بصر، هي عمياء صماء أتى لها أن تدبر هذا الكون الواسع الأرجاء، المترامي الأطراف، فهذه ملايين المجرات؟ والمجرة الواحدة تحوي الملايين من الأجرام الفلكية تسير بنظام محكم، ودقة متناهية، فلا تصادم مطلقاً، وتظهر وتختفي في مواقيتها الزمنية الدقيقة، ثم انظر إلى السيارات مثلاً، مع قلتها يقودها بشر لهم عقل وسمع وبصر، ولكنها كثيراً ما تصادم، بينما هذه الأجرام مع كثرتها لا تصادم أبداً. وكذلك الأمر في الطائرات أيضاً مع أنها تسير في فضاء واسع، واستطرد الشيخ في شرح الكثير

(١) فعلاً في يوم من الأيام جاء الدكتور هيمن إلى المستشفى كعادته فإذا به يسقط على الأرض (لقد أصيب بمرض في القلب) وأسعف على الفور وأدخل غرفة العمليات حينها تذكر إنها مشيئة الله هي النافذة فعلاً.

من الشواهد العلمية في هذا المضمار؛ فهبت الطيب وقال: من أين لك هذا العلم بالمجرات وغيرها وليست من تخصصك؟ قال له: كتاب الله تعالى يعلمنا ذلك، فالله تعالى يقول: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِهِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" ^(١) "وسرد له العديد من الآيات وبين له أن القرآن الكريم سبق الاكتشافات العلمية بقرون عديدة، فقد قال سبحانه: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُورُوا بِرَبِّكَ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" ^(٢)

ثم بعد انتهاء فترة العلاج وحن موعد عودة سماحته إلى وطنه؛ ذهب الشيخ لتوديعه؛ فاستقبله الطيب استقبالاً حسناً، ورحَّب به ترحيباً كبيراً، فقال له الشيخ: إني جئت إليك لأقدم لك الشكر على جهودك التي بذلتها في العلاج، فإن ديننا الإسلامي يأمرنا بأن نشكر من أحسن إلينا، فالنبي محمد ﷺ يقول: "من لم يشكر الناس لم يشكر الله" ^(٣) وبعد حوار بينهما قال سماحته: لقد وهبكم الله عقلاً راجحاً، وفطنة كبيرة، ودماثة في الخلق، وعلماً وإطلاعاً، وإني لأعجب كثيراً وأتساءل مع هذا كله، لم لا تؤمن بالملائكة وباليوم

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٤

(٢) سورة فصلت الآية ٥٣

(٣) رواه الترمذي رقم ١٩٥٥، والطبراني في المعجم الكبير رقم ٢٥٠١ وأحمد رقم ٧٤٩٥،

الأخر ١٩ فضحك الدكتور كثيراً وقال: لقد بقيت سنوات كثيرة حتى آمنت بوجود الله ، أتريدني أن أؤمن بهذه الأمور كلها مرة واحدة ؟ لكن الشيخ كان حريصاً جداً على إسلامه ، فناقشه في ذلك ، فوعده الدكتور بأن يفكرّ جدياً في الموضوع ، وتبادلا العناوين ، فلما عاد الشيخ إلى عمان أرسل له كتاباً بالإنجليزية في الإعجاز العلمي .

بعدها أرسل الطيب رسالة إلى الشيخ بأنه سيأتي لزيارته في عمان هو وزوجته ، وفعلاً جاء ودخل في حوارات مع الشيخ ، ورحل معه سماحته إلى داخلية عمان ، وزارا "مسفأة العبريين" بولاية "الحمراء" فمرّ الطيب بطلبة يدرسون القرآن تحت شجرة ، فسأل عنهم ، فأخبره الشيخ ، فتبرع لهم بمبلغ ٧٠٠ دولار أمريكي ، وللحدث بقية .

الرابعة عنايته الفائقة بتصحيح منهجية التفكير للأمة بأسرها ودعوته إياها إلى إعادة صياغة نفسها ، يقول سماحته: "لقد قلنا في أكثر من موقف بأنه يجب أن تصاغ هذه الأمة من حيث الفكر، والأخلاق، والاجتماع، على أن تكون هذه الصياغة قرآنية، نابعة من صميم عقيدة القرآن والسنة الثابتة وأسس الدين الخنيف"^(١) وقد طرح في ذلك أطروحته التي يضيق المقام بشرحها وتوضيحها ، وإنما أكتفي هنا بالإشارة إلى خطوطها العريضة :

يرى سماحته أن الأمة مُنبت بغزو تصورات باطلة ، تسربت إلى عقيدتها وتصوراتها وسلوكياتها ، وربما كان بعض ذلك من الموروثات الجاهلية القديمة ، هناك تصورات باطلة تتعلق بثلاث قضايا مهمة :

(١) إعادة صياغة الأمة ، الشيخ الخليلي ، ص ١٣ ، وص ١١٢

١ - الإيمان بالله.

٢ - الإيمان باليوم الآخر.

٣ - العلاقة بين الحاكم والمحكوم

ولديها غبش في التصور فيما يتعلق بمنهجية التفكير والنظر والاستدلال، وغبش في التصور فيما يتعلق بالموقف السليم من السلف الصالح، الموقف الوسط بين التقليد الأعمى مع تحطيم إطارى الزمان والمكان وبين نبذ هديهم، هناك غبش في التصور فيما يتعلق بالتطلعات المستقبلية لهذه الأمة، وكأنها لم تستطع استيعاب ما استجد على ساحتها منذ انتهاء الخلافة الراشدة، وما يزال يستجد إلى وقتنا الحاضر، فلا بد من النظر في هذا كله لأجل الرقي والنهوض بهذه الأمة في مواجهة أعدائها، وفي طريق تملكها لزام قيادة البشرية.

مكافحة الإرهاب: ولكنه الإرهاب ذات المفهوم المنبثق من التصور الإسلامي الناصع، لا ذلك المفهوم الذي تروّج له بعض الأنظمة. إن الإرهاب مصطلح تتعدد مفاهيمه بتعدد الأغراض وتنوع المقاصد، إن سماحته يشنّع على أولئك الذين يرتكبون الجرائم ويرهبون الناس من النساء والأطفال والأبرياء باسم الإسلام، وتنديده الشديد بهذا الفكر العقيم، يقول سماحته: " أولئك الذين ارتكبوا المآسى العظيمة لم يبالوا بالحرمان؛ فقتلوا الأطفال والنساء وشردوا الأمنين وارتكبوا ما ارتكبوا باسم الإسلام، والإسلام براء

من كل ذلك ، فإن الإسلام دين يدعو إلى الرحمة في أي موقف من المواقف ، ولذلك ينهى أتباعه كل النهي وأشدّه عن العدوان ، وحتى عندما يقابل المسلمون العدوان عليهم أن يردوا عدوان المعتدي وحده ، وألا يتعدوا إلى غيره ؛ فالله تعالى يقول في كتابه : " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " ^(١) فكيف يرضى المسلم مع ذلك أن يعامل إخوانه المسلمين من أهل بلده ، وأبناء جلدته هذه المعاملة القاسية ؟ ويتنكر لمبادئ الإنسانية حتى يكون سبباً ضارياً لا يبالي بأن يفتك بالأطفال والنساء والشيوخ الكبار وكل ضعيف ، إن هذه الحالة حالة شاذة بعيدة كل البعد عن تعاليم الإسلام وقيمه ، فليت هؤلاء ما انتموا إلى الإسلام قط ، وليتهم لم يرضوا بأن يلحقوا بهذا الدين الحنيف النظيف هذه التهم القذرة التي يبرأ الدين منها ^(٢) وأخبرني الشيخ أسعد المقيمي أن الشيخ لما كان في زيارة الجزائر ألقى محاضرة عن حرمة دماء المسلمين ، وبدد الكثير من الشبهات في هذا الموضوع ، وكان للمحاضرة أثر كبير هناك ^(٣) وليس هذا الفكر غريباً على الإباضية ، الذين حرّموا دماء المسلمين قولاً وفعلاً ، طول فترات تاريخهم المشرق منذ النشأة.

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٠

(٢) إعادة صياغة الأمة ، الشيخ الخليلي ، ص ١٣ ، وص ١٧٣

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ أسعد المقيمي

- حمل هموم الأمة وشرح قضاياها الكبرى، كقضية الأقصى على سبيل التمثيل، فكم وجّه وأرشد، واستنهض وتأسف، ويكى حسرة وألماً على واقع الأمة المرير، يقول سماحته: "للأقصى مكانة خاصة. الأقصى أمانة المسلمين بأيديهم، والله تعالى سائلهم عنها: - ثم قال - فالمحافظة على هدي النبوات أمر واجب على هذه الأمة، ولذلك كانت المحافظة على المسجد الأقصى أمراً واجباً عليها، ونحن ندعو جميع المسلمين لأن تتضافر جهودهم على تخليص المسجد الأقصى، ورده إلى حظيرة الإسلام

لقد عقدت مع سماحته بعض الندوات حول هذا الموضوع، وألقى محاضرات عدة في جامعة السلطان قابوس في تحليل قضية فلسطين، وتحليل حرب العراق الأخيرة، فوجّه المسلمين إلى الموقف السليم حيال هذه القضايا في غمار البث الإسلامي المتناقض.

- المساهمة بنفسه وحاله في المشاريع الإسلامية في العالم الإسلامي، مثال ذلك جمعية الاستقامة بزنجبار، فقد ساهم الشيخ في وضع حجر أساسها، وتعهدها بالرعاية والعناية، وربما رحل إلى زنجبار موجّهاً للمسلمين هناك، ومثباً لهم من أجل الصمود في وجه التيارات المعادية للمنهج الإسلامي.

تقاوله

على الرغم من الشدائد والمحن، والمكائد والإحن، التي واجهها الشيخ وهو يشقّ طريقه الواضح، لم يعرف التشاؤم إلى نفسه سيلاً، فهو متفائل أبداً

، مهما اكفهر أفاقه ، ومهما احلوك الظلام من حوله ، فإنه يأمل انبلاج النور ، وهذا العنصر مهم غاية الأهمية للداعية في سبيل الله ، إذ يدفعه إلى حومة الصراع من أجل العقيدة ، غير عابئ بما يناوشه في انطلاقه ، فإنما عليه العمل وليس عليه إدراك النجاح ، ولذا ارتسم هذا المبدأ ارتساماً في حياة الشيخ العملية ، وساعده ذلك على تحقيق قدر كبير من النجاح والارتياح ، يقول سماحته في جواب على سؤال وجهه إليه صحفي كويتي عما تعلمه من الحياة : " إن الشدة بعدها فرج ، وإن مع العسر يسراً ، كما نص القرآن الكريم . وعندما يضيق بالعبء الأمر وتشتد حلقاته ، يأتي الفرج من عنده تعالى ، وهذا الأمر جريته كثيراً ؛ ولذلك أنا كثير التناؤل " (١)

ويقول في موضع آخر : " أما أنا فلا أتشاءم قط والحمد لله ، أنا متفائل ، ولا ريب أنني أرى أن يقظة المسلمين اليوم هي خير منها بالأمس ، مهما كانت الأحوال سابقاً... فإن شعار الإسلام يتردد على الأفواه ، والكل يعلم أن سبيل النصر هو الإسلام ، وهذه الصحوة الإسلامية إنما هي تبشير صبح مقبل بمشيئة الله ، وإننا لنتنظر وصوله عما قريب إن شاء الله . " (٢)

الشيخ في بيته

على الرغم من المسؤوليات العظيمة الملقاة على عاتق سماحة الشيخ ، وما ينوء به من هموم الأمة ، فإنه يعيش في أسرته كأبي شخص عادي ، يتناسى

(١) لقاء الصحفي الكويتي مع سماحة الشيخ

(٢) الطريق إلى الأقصى ، ج ٢

الهموم، ويلقيها ساعتها وراء ظهره ، فيداعب الأطفال ويلاعبهم ويحذب عليهم ، يقول أفلح ابن سماحة الشيخ ، " إن والدي يلعب الأطفال كأنه واحد منهم " ^(١) ولا شك أنهم ينسجمون معه لما يفيض به عليهم من الشفقة والحنان.



سماحة الشيخ مع طفليه عبد الرحمن ومحمد

لقد رأيت مرة أحد أطفاله الصغار جاء إلى المجلس ركضاً حتى ارتمى في حضن أبيه ، فاستقبله الشيخ بصدرة ، ثم أجلسه وتابع حديثه ، ولم ينهره أو يتضجر منه ، كما يفعل الكثيرون ، فإذا ما شبوا وترعرعوا أواهم المزيد من العناية والمراقبة لجميع سلوكياتهم ، الدقيقة والجليلة ، فيكونون بذلك تحت سمعه وبصره ، يجمعهم أحيانا عندما يتيسر له الوقت ؛ فيحثهم على تقوى الله تعالى ، والاستمسك بسيرة السلف الصالح والاعتداء بهم ، وأن يظهروا بالمظهر

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح الخليلي

الإسلامي في جميع سلوكهم ، وعدم الإساءة إلى أحد من الناس ، وإذا خرج أحدهم عن النهج السوي ، أعاده إليه بالحسنى ، يقول أفلح أيضاً: إن والدي يراقب سلوكنا ، وقد يستدعي أحدنا أحياناً بمفرده ويناقشه وينصحه ، وإذا كان الأمر بهم الجميع ، جمعنا جميعاً وبيننا ما يجب علينا ، وربما وصل الأمر إلى الضرب أحياناً ، إذا كان الشأن عظيماً في نظر الشيخ ، وأنا قد ضُربت قبل سنوات قليلة لأنني قد تأخرت عن صلاة الجمعة ^(١) وسألت أفلح ، ما الإحساس الذي ينتابكم عندما يطلبكم الشيخ أو يطلب أحدكم ؟ فقال : لا شك أننا نشعر بالخوف الشديد ، ويبدأ كل واحد منا باستعراض ما اقترفت يده ، ليعدُّ لذلك جواباً ؟ ومن طبيعة الشيخ أن يعرض عن أخطائنا الصغيرة ، ويعلمنا زلات ندرتها بأنفسنا فنتركها ، ولكن إذا ارتكب أحدنا جرماً كبيراً في نظره تتحول جميع تلك الصغائر التي غض طرفه عنها إلى كبائر ، وبالتالي يسرد لنا جميع أفعالنا صغيرة كانت أو كبيرة ، وربما نسينا بعضها لكنها لحفظه الله - لا ينساها ، ويبدو أن الشيخ يتغاضى عن تلك الأخطاء باعتبارها زلات أو هفوات لم يقصدتها مرتكبها ، والذي يعنيه من الأخطاء تلك التي تصدر عن فكر يحمله صاحبها ، فهي في ذلك الحال نتائج فكر أفرزها ، فلا بد من معالجتها ، وبالتالي تصبح الزلات هنا سنداً قوياً لبيان الخلل الفكري . وهذه المراقبة لا تعني أن الشيخ يضيق الخناق على أولاده ، بل يترك لهم الخيار في الكثير من الأمور التي فيها احترام شخصياتهم ، كتحديد التخصص العلمي ، واختيار الزوج المناسب فدوره هنا التوجيه فقط ، فلا إلزام ولا إكراه .

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح الخليلي

تلك شخصية الشيخ الأبوية الحنونة ، لا غطرسة فيها ولا تسلط ، بل إنه يأتي متأخراً أحياناً ، فيجد الجميع قد تناول طعامه ، فيلهب بنفسه إلى المطبخ ويحضّر الطعام ويأكل ، وكان شيئاً لم يكن^(١) لقد طبت - حفظك الله - شيخاً معلماً ، وأباً حنوناً ، وعالمًا جليلاً.



الشيخ يحمل أحد أطفاله

متأهبيه

من المناصب الرسمية التي يشغلها سماحة الشيخ ما يلي :

- المفتي العام لسلطنة عمان
- رئيس مجلس إدارة معاهد السلطان قابوس للثقافة الإسلامية
- رئيس معهد العلوم الشرعية (معهد القضاء الشرعي سابقاً)
- عضو لجنة التظلمات (أعلى هيئة قضاء في السلطنة)

(١) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح الخليلي

- رئيس لجنة المطبوعات وتحقيق الكتب بوزارة التراث القومي والثقافة
- عضو لجنة مطالعة الأهلّة بالسلطنة
- عضو مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي
- عضو مؤسسة آل البيت (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية)
- عضو مجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية في إسلام آباد بباكستان.

مؤلفاته

مع كثرة الأعمال لدى سماحة الشيخ، وتزاحم الورود على منهله، وتعدد المهام الموكولة إلى شخصه، يقتطع بعض الوقت للكتابة، وأحياناً يكون من وقت راحته، فكان من حصيلة ذلك الثمار التالية :

الكتب:

- (١) جواهر التفسير، أنوار من بيان التنزيل: طبع منه ثلاثة أجزاء حتى نهاية الآية (٩٦) من سورة البقرة، والجزء الرابع مخطوط.
- (٢) الحق الدامغ : في مناقشة بعض مسائل العقيدة : الرؤية - الخلود - خلق القرآن
- (٣) الفتاوى ٣ أجزاء : فتاوى العبادات - النكاح - المعاملات.
- (٤) شرح غاية المراد : شرح مختصر لمنظومة الشيخ السالمي في العقيدة.
- (٥) وسقط القناع : يرد فيه سماحته على بعض الافتراءات التي صدرت من الشيخ عبد الرحيم الطحان مبيناً وجه الحق .
- ٦ - عوامل تقوية الوحدة الإسلامية في الشعائر الدينية : مطبوع

٧) إعادة صياغة الأمة : يحوى بعض ملامح المنهج الذي تسير عليه الأمة في

حاضرها ، مطبوع

٨) زكاة الأنعام : أصله بحث مطوّل شارك فيه سماحته في ندوة " البيئة

الشرعية العالمية للزكاة " بالكويت عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

٩) المحكم والمتشابه (تحت الطبع)

١٠) الدين والحياة (لم يطبع بعد)

البحوث :

١- البحوث التي قدمها في المؤتمرات ، منها :

- الذبائح وأثرها في إنجاز الزكاة : بحث ألقى في الدورة العاشرة لمجمع

الفقه الإسلامي ، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي بجدة ، بتاريخ ٢٣-٢٨

صفر ١٤١٨هـ الموافق له ٦/٢٨ - ٣/١٩٩٨م

- الدعوة الإسلامية مهمة ثقافية روحية أو غزو عسكري : بحث ألقى في

مؤتمر الجامعة الإسلامية العالمية بباكستان - عام ٢٠٠٢م

- الاجتهاد ودوره في التجديد : بحث في المؤتمر الدولي الخامس عشر

للوحدية الإسلامية بطهران بتاريخ ١٤-١٧ من ربيع الأول ١٤٢٣هـ

الموافق له ٢٧-٣٠ مايو ٢٠٠٢م

- الحقوق في الإسلام وفق المذهب الإباضي : بحث لندوة الحقوق في

الإسلام من ندوات مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي ، عمان - ٢٠-

٢١ محرم ١٤١٣هـ / ٢١-٢٢ يوليو ١٩٩٢م

- مشروعية استثمار أموال الزكاة : بحث في الندوة الثالثة من سلسلة ندوات الحوار بين المسلمين ، مؤسسة آل البيت ، عمان ٥.٣ صفر ١٤١٥ هـ / ١٤.١٢ يوليو ١٩٩٤ م
- العبادات والمعاملات وأثرها في المجتمع (قدم للملتقى القرآن الكريم - الجزائر ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م)
- (٢) وحي السنة في خطبتي الجمعة
- (٣) الذكاة الشرعية
- (٥) الغصب : بحث منشور في آخر كتاب فتاوى المعاملات

الأجوبة المطولة :

- (١) بيع الإقالة : مطبوع في كتيب
- (٢) التدخين : مطبوع في كتيب
- (٣) كذبة إبريل : مطبوع في كتيب
- (٤) حكم الإسبال : متداول منتشر على شكل مذكرات.
- (٥) نبذ التعصب الملهبي : مطبوع في كتيب
- (٦) المعتدة بين البدعة والسنة : مطبوع في كتيب.

الردود العلمية :

- (١) الحجج المقنعة في نفي رؤية الله (الرد على الشيخ ابن باز)
- (٢) الرد على المفتري النصراني

- (٣) الرد على أحد المفرضين (سمي باسم منهج سلفنا الصالح)
 (٤) مسألة الكحل في اللغة العربية (تعقيب على رأي أحد الدكاترة)
 (٥) جواز نقل الدم (تعقيب على رأي أحد العلماء)

المحاضرات والدروس المطبوعة:

- (١) الأساس في أحكام الحيض والنفاس
 (٢) القيادة في الإسلام
 (٣) الإسلام والمرأة استجابة لنداء الفطرة
 (٤) رسالة الإنسان في الحياة
 (٥) حقيقة الإسلام
 (٦) أثر المعنويات في الإسلام
 (٧) التحذير من آفات المجتمع
 (٨) المرحلة الذهبية
 (٩) أهمية العلم
 (١٠) الحساب والعدل الإلهي
 (١١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 (١٢) الإسراء والمعراج
 (١٣) الإيمان زيادة ونقصاناً
 (١٤) انتشار المذهب الإباضي في شمال أفريقية
 (١٥) التغلب على مشكلات الزواج
 (١٦) الإنسان من منظور الإسلام

- (١٧) تربية الأبناء في الإسلام
- (١٨) السخرية بالدين وأهله
- (١٩) جرس الإنذار
- (٢٠) معالم الجيل الواعد
- (٢١) مناهج التشريع الإسلامي والبحث العلمي
- (٢٢) الشباب والتحديات المعاصرة
- (٢٣) الشباب بين الواقع والطموح
- (٢٤) لترقي فتاة الإسلام
- (٢٥) محطات الصائمين (مجموعة لقاءات)
- (٢٦) فقه الهبة والهدية
- (٢٧) من ضروب الانتحار
- (٢٨) إخلاص روح العبادة
- (٢٩) العبادة وأثرها في حياة المسلم
- (٣٠) المدخل العام إلى دراسة العقيدة الإسلامية
- (٣١) جوهر الإيمان
- (٣٢) الجملة وتفسيراتها
- (٣٣) الإيمان بالله عز وجل
- (٣٤) تنزيه الله سبحانه وتعالى
- (٣٥) الآيات المتشابهات في القرآن
- (٣٦) صفات الله سبحانه وتعالى

(٣٧) تلاعب المعاصرين بفكرة الثابت والمتغير في الشريعة الإسلامية (ندوة)

عن أعلام عمان :

- (١) العوتبي بين الفقه والأدب
- (٢) التأصيل الفقهي عند الإمام أبي سعيد الكدمي
- (٣) العلامة أبو نهبان الخروصي ومنهجه الفقهي
- (٤) الخليلي فقيهاً ومحققاً
- (٥) البهلاني فقيهاً وأديباً
- (٦) ابن بركة والبحث العلمي
- (٧) إضاءات في حياة الشيخ أبي مسلم البهلاني
- (٨) ابن النظر بين الفقه والأدب
- (٩) الشيخ خميس الشقصي ومنهجه الفقهي
- (١٠) العلامة الكندي - صاحب بيان الشرع - بين الفقه والأدب
- (١١) الأثر العلمي والحضاري في الوجود العماني بزنجبار

الفصل الثاني

من منتقل إلى الفكر التربوي

- مفهوم التربية
- ضرورة التربية
- أهداف التربية
- مصادر التربية
- ◆◆ القرآن الكريم
- ◆◆ السنة النبوية
- ◆◆ سيرة السلف الصالح
- ◆◆ العلم الحديث
- محتوى التربية
- أساليب التربية
- ◆◆ القدوة
- ◆◆ الصحبة
- ◆◆ الموعظة الحسنة
- ◆◆ القصة
- ◆◆ ضرب الأمثال
- ◆◆ المحاضرات والخطب
- ◆◆ الحوار
- ◆◆ الثواب والعقاب
- ◆◆ الإعلام
- ◆◆ اعتقاد السؤال
- بيئات التربية
- ◆◆ الأسرة
- ◆◆ المسجد
- ◆◆ المدرسة
- ◆◆ المرافق العامة

مفهوم التربية

إن الشيخ - حفظه الله - حين تشرب كيانه معاني التربية الحقّة، المستمدة من كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، لم يكن - وهو يربي هذا الجيل - متفرغاً لوضع كتاب خاص بالتربية؛ ولذا نجد مفهوم التربية متناثراً في ثنايا توجيهاته المقروءة والمسموعة، بيد أن هذه المفاهيم تعكس صفاء الفطرة ونقاء الفكر، ودقة الفهم، وعمق الإدراك، كما يتبين من حديثه في النصوص التالية:

(١) "علينا أن ندرك معنى التربية، التربية: هي بمعنى الإصلاح، وبمعنى التنمية، ويراد بها تنمية الفضائل وتربية النشء على طاعة الله، وعلى الأخلاق الفاضلة، وعلى تجنب سفاسف الأمور، والاستعلاء عليها، والحرص على الترقى في مدارج الكمال إلى ما فيه مرضاة الله سبحانه وتعالى، من الاستمساك بخير الدنيا والآخرة"^(١).

(٢) "التربية لها مفهوم عميق، فإن التربية ليست هي مجرد التعليم، وإنما التربية هي الإصلاح والتنمية، والله تبارك وتعالى يربي عباده تربيتين، تربية تكوينية، بخلق أجسادهم وتهيئة ما يصلح هذه الأجساد من الغذاء وغيره، ويربي عباده أيضاً تربية تشريعية، وهي التي تسمو بروح الإنسان حتى

(١) التعليم الأساسي ومصيرنا، محاضرة مفرغة، ص ١.

ترتفع إلى الأوج الأعلى، وتعيش هذه الروح مع الملأ الأعلى، بإدمان ذكره، واستشعار خشيته، وحب الله ورجائه^(١).

(٣) "وتربية الله سبحانه تفرم كل كائن، دقيقاً كان أو جليلاً، وما من شيء إلا وهو ناطق بلسان حاله معلناً افتقاره إلى الله ذي الجلال"^(٢).

تحليل المفهوم:

يوجز الشيخ تعريف التربية في مصطلح "التنمية" ثم يبين ما ينطوي عليه هذا المفهوم، ويمكن إيضاح ذلك من خلال النصوص السابقة بتحليل المفهوم إلى عناصره التي يمكن إيجازها في نقاط أربع هي:

١- المحافظة على فطرة الناشئ، فمصطلح التنمية يشمل المحافظة على الشيء، إذ لا يمكن تنمية شيء دون المحافظة عليه والعناية به، وقد ورد مصطلح العناية أيضاً في مواضع عديدة، منها قول سماحته في محاضرة عن حقوق الأولاد في الإسلام: "العناية بتربيتهم إنما هي عناية بمستقبل الأمة"^(٣).

٢- تنمية الاستعدادات الفطرية في الناشئ، وتقوية مواهبه وتأصيلها، كما ورد في النص الأول "ويراد بها تنمية الفضائل".

(١) تربية الأولاد في الإسلام، شريط ١٠٦/١ بمكتبة معهد العلوم الشرعية، وانظر أيضاً جواهر التفسير. الشيخ أحمد الخليلي، ج١، ص ٢٢٢.

(٢) جواهر التفسير، ج١، ص ٢٢٠.

(٣) حقوق الأولاد في الإسلام، محاضرة بجامعة السلطان قابوس، برقم ٩١/ج بمكتبة معهد العلوم الشرعية.

٣- توجيه الفطرة في الناشئ، وتوجيه جميع مواهبه واستعداداته نحو صلاحها، لتخلو من شتى الشوائب وصنوف القوادح، وتنمو نقيّة صافية، وهو ما يعنيه مصطلح الإصلاح بحيث يقوم بتنمية الفضائل، واجتناب السفاسف والردائل، ويستعلي عليها، يقول سماحته مشيراً إلى التوجيه في موضع آخر: "توجيه الناشئة على الحق، وتأسيس العقيدة في نفوسها"^(١)، وتلازم هذه العناصر سمة تربوية مهمة من سمات التربية ولا تُعدّ من عناصرها، ألا وهي سمة التدرج^(٢) في العملية التربوية، وهو ما يفهم من قول الشيخ: الترقّي في مدارج الكمال، وقوله في معرض حديثه عن تربية النشئ: "عندما تنمو مداركه يلقن أركان الإسلام الخمسة ثم أركان الإيمان الستة، ثم يعود شيئاً فشيئاً على المثل"^(٣) وسيأتي الحديث عنه - بمشيئة الله - في موضع الدعوة بالحكمة.

استنتاجات:

يمكن الوصول بعد قراءة النصوص الثلاثة السابقة وتحليلها إلى النتائج

التالية:

(١) طريق الإصلاح، محاضرة ألقيت بجامعة السلطان قابوس، رقم ١٠٤ ج بمكتبة معهد العلوم الشرعية.

(٢) جعل الباني في مدخل إلى التربية "سمة التدرج عنصراً، ويرى الشيخ عبد الله الدهماني أنها سمة، إذ العنصر يكون أحد المكونات، وقد أخذت برأيه.

(٣) تربية الأولاد محاضرة للشيخ برقم ١٠٦/أ بمكتبة معهد العلوم الشرعية.

١- وضع تعريف اصطلاحي عام للتربية هو أن "التربية هي العناية بالجوانب المتعددة للناشئ، وتنميتها شيئاً فشيئاً إلى أن يرتفع إلى الأوج الأعلى محققاً العبودية المطلقة لله تعالى".

٢- إن المربي الحق هو الله سبحانه وتعالى، فهو خالق النفوس، والعالم بخباياها وما يصلحها، وهو مقسم المواهب "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" وهو الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب لتربية الخلق تشريعياً بعد تربيتهم تكوينياً.

٣- إن حقل العمل التربوي هو الإنسان، خليفة الله في أرضه، المكلف بحمل الأمانة التي ما طاعت السماوات والأرض والجبال أن تحملها وأشفقن منها، بهدف إعداده التام للقيام بهذه المسؤولية، يقول سماحته: "وأماً التربية التشريعية؛ فالإنسان هو المستهدف بها، وإن عم أثرها غيره"^(١).

٤- إن جهد المربي في تربيته يأتي تابعاً لشرع الله تعالى، الذي هو مصدر يستمد منه مبادئه، وقد يضبط به وسائله التربوية، يقول سماحته: "علينا أن نعود إلى كتاب ربنا، ونحرص أن نربي أولادنا عليه... وأن نزيهم على سنة رسول الله ﷺ وهدى السلف الصالح"^(٢).

٥- القيم والأخلاق لا تورث كما يورث لون البشرة أو العينين مثلاً، لذا كانت التربية أساس وجود الإنسان، وبدونها تنهدم مقومات حياته.

(١) جواهر التفسير، ١/٢٢١.

(٢) حقيقة الإسلام - الشيخ الخليلي، ص ٦٢.

٦- التفريق بين التربية والتعليم، حين يقول سماحته في النص الثالث: "فإن التربية ليست هي مجرد التعليم، وإنما هي الإصلاح والتنمية" أما التعليم فهو عنده "تحويل الغير من الجهل بالشيء إلى المعرفة به، ويكون في آن واحد، وفي آتات متعددة"^(١)، وبين مصطلحي "التربية" و"التعليم" نقاط تلاق وافتراق، فلعلّ منهما قواعد وأصوله التي تتحقق بها أهدافه، ولا أودّ الخوض في مسائل الفرق بينهما بما يخرج بنا عن إطار البحث، فلذلك مصادره في كتب التربية، مكثفياً بالإشارة هنا إلى أن التعليم في حقيقته إحدى أهم الوسائل التربوية، ولذا فرّق سماحته بين العملية التربوية في ذاتها وبين وسائلها، فيشير في جواهر التفسير إلى أن الإنسان "متكوّن من روح وجسم، ومنطوي على عقل وقلب وغرائز وضمير، ولهذه كلها مطالب شتى، والتنسيق بين متطلباتها يدعو إلى العلم والمعرفة، حتى لا يؤدي الأمر إلى ضرر نفسي واجتماعي"^(٢).

فالتربية بذلك تهتم بتنمية الجسم والعقل والنفس بكل ما تنطوي عليه من ميول وغرائز، وتضبط ما يصدر عن النفس من سلوك، أما التعليم فهو منحصر في الناحية العقلية من حيث الاكتساب، وهي الأداة التي تتحكم في جانب كبير من السلوك كما يشير إلى ذلك سماحته، وإهمال التعليم مؤد إلى وقوع نشاز كبير بين جوانب النفس الإنسانية، ولذا يشدّد سماحته على جانب الرسوخ في العلم من ناحية، وعلى ضرورة التطبيق لما

(١) جواهر التفسير، ٤٥/٣.

(٢) جواهر التفسير، ٣، ٤٤/٣.

يعلمه الإنسان من ناحية أخرى، كما سيأتي بيان ذلك مفصلاً - بمشيئة الله -
في فصل التربية العقلية.

ضرورة التربية

لقد اقتضت مشيئة الله وحكمته أن يستخلف الإنسان في الأرض ؛ ليسير على منهج الله الذي اختطه له ، غير أن هذا الإنسان قد يتعامى عن قصد السبيل لما يتجاذبه من طبائع النفس ، ويتقاضاه من مطالب الحياة ، فهو واقع بين العواطف الملتهبة والغرائز الجارفة ، والمطالب المختلفة ، والدوافع المتنوعة ، فلا عجب إذا أنساه ذلك ما يجب عليه تجاه خالقه وتجاه الخلق^(١) ، فيرسل الله رسله عليهم السلام لتقويم الاعوجاج في مسيرة البشر ، بما يتناسب مع أولئك القوم وعصرهم الذي يعيشون فيه ، يقول سماحته : "إن شرائع الله ما أريد بها إلا تربية عباده على الخير ، وقد تكون التربية في عصر سلبية بما كانت به إيجابية في غيره ؛ لتحول الأحوال ، واختلاف الظروف"^(٢).

ينبه الشيخ - حفظه الله - هنا إلى نقطة في منتهى الأهمية لكل مربٍّ في كل عصر من العصور ، وهي الانتباه إلى المحيط التربوي ، الانتباه إلى إصلاح العيوب المتراكمة عبر التاريخ ، إلى الوعي العميق بالظروف والأحوال ، فإن ما هو صالح في بعض العصور قد لا يكون صالحاً في بعضها الآخر ، ومن جهة أخرى يشير سماحته إلى أن بعض الأجيال قد تضع لمشكلاتها حلولاً لا تكون ناجعة في استئصال الداء ، واقتلاع جذوره ، أو ناجعة في ذلك العصر فحسب ، فعلى الجيل المتأخر أن يعيد النظر في تلك الحلول ، ويدرس تلك المشكلات ؛ حتى

(١) جواهر التفسير ١/ ٢٢٩-٢٣٠.

(٢) جواهر التفسير ٤ / ١٢٩ مخطوط بحوزة الباحث صورة منه.

توقف عن دورانها عبر الأجيال بوضع حلول أخرى في إطارها الزمني والمكاني.

أهداف التربية:

الهدف هو "ما تسعى العملية التربوية إلى بلوغه في الناشئة بدنياً أو عقلياً أو علمياً أو خلقياً ... أو غير ذلك"^(١). وتطرح الكثير من النظم التربوية قديماً وحديثاً أهدافها التي تسعى إلى تحقيقها في أجيالها. فالتربية الصينية مثلاً تسعى إلى نقل الأنماط السلوكية من جيل إلى آخر، بينما تهدف التربية الرومانية إلى تكييف الفرد مع محيطه، وتشير التربية العربية الحديثة إلى هدف "إعداد المواطن الصالح" ويبدو أنها استمدت هذا الهدف من نظرية "جون ديوي" في التربية حين وضع التربية في إطار وظيفتها الاجتماعية، ولا أدلّ على ذلك من تلك الأهداف التي صاغها ميثاق الوحدة الثقافية العربية التي وصّى بها وزراء التربية والتعليم العرب في مؤتمرهم المنعقد في العراق، ثم أقرته جامعة الدول العربية^(٢). كما أن هناك أهدافاً أخرى عامة أو تفصيلية، كتنمية الذات أو الاهتمام بالفروق الفردية وغيرها، وكلها أهداف لا تبلغ المدى، فماذا يرى سماحة الشيخ في أهداف التربية؟

يقول: "والله سبحانه وتعالى بعث عبده ورسوله محمداً ﷺ ليقم حياة إسلامية على أنقاض الحياة الجاهلية، حياة إسلامية في التصور، إسلامية في

(١) التربية الإسلامية، عبد الوهاب طويلة، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ص ٢٥.

(٢) انظر أصول الفكر التربوي في الإسلام، عباس محبوب، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧، ص

العبادة، إسلامية في المعاملة، إسلامية في الأخلاق والسلوك، إسلامية في كل ما له صلة بالفرد أو المجتمع أو الأمة"^(١).

ويقول أيضاً "ولكنّ الهدف الأساسي بهذه الرسالة إصلاح النوع الإنساني، لأنه الخليفة في الأرض، والقطب الذي تدور عليه رحي هذا الكون، وإصلاح الإنسان يكون نفسياً واجتماعياً"^(٢). ويقول في موضع آخر: "إن أتباع صراط الله المستقيم إنما يكون بتحويل الإنسان نفسه إلى أن يكون متحركاً أي حركة من أجل إرضاء الله سبحانه وتعالى، بحيث يكون المحيي لله ويكون الممات لله، وتكون العبادات لله، وتكون الأمور الضرورية التي يمارسها الإنسان في حياته يمارسها أيضاً لله سبحانه وتعالى، ... فيدور بذلك في فلك طاعة الله"^(٣).

يبدو واضحاً من هذه النصوص الثلاثة المتقدمة أن هدف التربية العام في تصور الشيخ الخليلي، أن تكون الحياة في جميع جوانبها حياة إسلامية. مقيدة بأوامر الشريعة، فيدور الإنسان في فلك طاعة الله، وهنا يبدو مدى التوافق و الانسجام بين المنطلق العقدي وهدف التربية، بين مفهوم الإيمان الذي هو قول وعمل وتطبيقاته السلوكية؛ لتكون حياة المسلم استقامة تامة في جميع حركاته وسكناته، في نفسه وأسرته ومجتمعه وأمه، وهذا من الأسس الراسخة في المذهب الإباضي، ويمكن صياغة ذلك في هدف التربية الإسلامية العام وهو "تحقيق العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى" ويزيد ذلك تأكيداً ووضوحاً قوله:

(١) الجملة وتفسيراتها، الشيخ أحمد الخليلي، ص ٣.

(٢) جواهر التفسير، ٢/١.

(٣) منهج إصلاح المجتمع، ١٠٤/ج. بمكتبة معهد العلوم الشرعية

"قلليته دوره، وللمدرسة دورها، وللمسجد دوره، وللشارع دوره، فيؤدي الكل وظيفته من أجل تحقيق هذه الغاية، وهي استقامة النشء على تقوى الله وعلى العمل الصالح"^(١). وهذا هو هدف التربية الإسلامية الحقّة، وتجدر الإشارة في ثنايا الحديث عن هذا الهدف إلى النقاط التالية:

١- أنه هدف عام يشمل الناس جميعاً، فالإنسان مستعبد لله، وعليه الخضوع المطلق لأمر الله، والانقياد التام لحكمه، وبالتالي تبدو على المسلم الصبغة العالية لا الصبغة القومية أو الإقليمية الضيقة، إنه يعامل الناس جميعاً في شتى مذاهبهم الدينية والفكرية بالخلق الذي تمليه عليه هذه العقيدة السمحة، وهي تسمى حثيثاً في تحقيق هذا الهدف النبيل في الإنسان، بصفته إنساناً قبل كل شيء، لا مواطناً يخدم مصلحة وطنه الإقليمي، وإن تعارضت مع مصالح الأوطان الأخرى.

٢- إنه يتفق مع طبيعة خلق الكائن البشري، وينسجم مع فطرته "فطرة الله التي فطر الناس عليها" بل ينسجم مع حركة الكون بأسره، وهو يسبح بحمد الله، فيتم التوافق بين الإنسان، خليفة الله في أرضه، وبين ما سُخِّر له من خلق السموات والأرض، وإذا لم تحقق العبودية لله، كان النشاز والاضطراب والاختلاف.

٣- إنه يشمل جميع جوانب الإنسان في الحياة، فردية واجتماعية، قولية وفعلية، روحية ومادية، بشكل متوازن بحيث لا يطفئ جانب على آخر يقول سماحته: "والإصلاح النفسي هو التنظيم الدقيق بين جوانب الإنسان

(١) التحذير من آفات المجتمع، الشيخ أحمد الخليلي، ص ٥٨.

المختلفة، بحيث لا يطفى جانب على آخر، فلا تُوفَّر مطالب الجسم على حساب الروح، ولا تلبى مطالب الغريزة على حساب الضمير والعقل، ولا عكس ذلك، ولكن تراعى مطالب الروح والجسد معاً، وأشواق القلب وتطلعات العقل جميعاً، حتى لا يحدث أي نشاز وتضاد بين جانب وآخر^(١).

٤- إنه يتصف بالمرونة والقدرة الكاملة على مواكبة معطيات العصور على اختلافها، ومسايرة تطوراتها وما تفرزه من مشكلات.

٥- إنه متفق مع الحق الذي ينشده كل أحد، قولاً وعملاً، مولد للسلوك الحميد، والتعامل الحسن بين جميع الأطراف المشكَّلة للوجود.

مصادر التربية

لا بد أن تكون للتربية مصادرها التي تستقي منها مبادئها، ويرى سماحته أن مصادر التربية ثلاثة: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وهدى السلف الصالح، يقول: "علينا أن نعود إلى كتاب ربنا، ولحصر على أن نربي أولادنا عليه، تلاوة ودرسا وحفظاً وفهماً وعملاً وتطبيقاً لكل ما جاء فيه، وأن نربيهم على سنة رسول الله ﷺ وهدى السلف الصالح، وبهذا يمكننا أن نستعيد شرفنا ونستعيد كرامتنا، وأن نستعيد مكانتنا"^(٢). ويمكن الحديث عن هذه المصادر منفصلة على النحو التالي:

(١) جواهر التفسير ٢/١.

(٢) حقيقة الإسلام، الشيخ أحمد الخليلي، ص ٦٢.

١- القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو المصدر الأول الموجه لحياة المسلم في شتى جوانبها، ولا يصح إيمان أحد يُنكر حرفاً واحداً من القرآن، فضلاً عن نبذ أحكامه، وإعمال توجيهاته، والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف يصبح القرآن مصدراً تربوياً في حياة المسلم؟ تتمثل الإجابة على ذلك في النقاط التالية:

أولاً: الإيمان به، والمراد بذلك تشخيصه بالإيمان وتمييزه عن غيره، وإتباع ما جاء به، بحيث يصبح مسيطراً على شعاب النفس وموجهاً للجوارح والأركان. وهذه هي صفة المؤمنين بآيات الله كما وصفهم بها^(١). وهذا الإيمان ليس دعوى يدعيها الإنسان، أو كلمات تلققها اللسان، أو شعارات ترفع في كل آن بكل مكان، بل تسليم لما في القرآن، وانقياد تام بالجوارح والفكر والمشاعر "حتى يتحوّل القرآن إلى واقع محسوس يتجلّى للناس جميعاً في حياة المؤمنين العامة والخاصة"^(٢).

ثانياً: الإكثار من تلاوته: فإن تلاوة القرآن تصقل الروح، وتهذب الوجدان، وتربي الضمير، وتنير الفكر، وتقوّم السلوك "فإن كل كلمة فيه تشعُّ منها الهداية، وبإمكان تاليه أن يستفيد بكل ما يتلوه في تهذيب نفسه وتربية ضميره"^(٣). ولا ريب أن المسلم متعبّد

(١) جواهر التفسير ٢/٢٠٢.

(٢) السابق ٢/٢٠٤.

(٣) السابق ١/٢٢٧.

بتلاوته، مأجور بكل حرف منه عشر حسنات، غير أن التلاوة التي يدعو إليها سماحته ليست التلاوة الشكلية أو الترم بالأصوات، والتفنن في مخارج الحروف، أو حساب عدد الأجزاء المتلوّة في كل يوم، خصوصاً في شهر رمضان المبارك، دون أن يصاحب التلاوة التفكير في المعاني، ويرافقها التأمل في الدلالات، فتسكن النفس لها، وتخشع الروح، وتردد أصداء القرآن في جنبات الضمير، وتمازج تلافيف النفس، فتشعر لوقعه الجلود، وتلين القلوب، ذلك ما عناه سماحته بقوله: "يستفيد بكل ما يتلوه تهذيب نفسه وتربية ضميره" وبدون ذلك لا يتحقق هدف التلاوة. ويقول في جواهر التفسير في تفسير قول الله تعالى " وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ " ^(١) : " وفي هذا التوبيخ تنبيه على أن التلاوة اللسانية إن لم يصحبها التأثير النفسي الذي يصدر عنه العمل بموجب ما يتلى ليست من وراثها جدوى، إذ كل ما أنزل الله من كتاب إنما أنزله ليكون هدى للناس، يقتادهم إلى صراط الله الحميد، فقراء هذه الأمة الذين يقتصرون في تلاوتهم على تحسين الأنغام، وتجويد الحروف، مع نسيانهم أوامره ونواهيه، ومواعظه وإرشاداته، مندرجون فيمن يصدق عليهم هذا التعرّيع والإنكار " ^(٢)

(١) جواهر التفسير ٢٧٧/٣

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٤

ثالثاً: دراسة القرآن الكريم دراسة خاصة، تخرج كنوزه التي لا تنتهي، يقول سماحته: "محرص على أن نربي أولادنا عليه، تلاوة، ودرساً وحفظاً وفهماً وعملاً"^(١). وهذه الكلمات المختارة بعناية تبين النهج الأمثل في التعامل مع الكتاب الكريم، فالطفل أول ما يبدأ تعليمه يتعلم تلاوة القرآن، ثم دراسته دراسة مبسطة لفهم معانيه التي تعينه على الحفظ والاستظهار، ثم دراسته حسب المرحلة التي هو فيها؛ ليصل إلى الفهم العميق لمعانيه، ثم ينقلب إلى التطبيق الواعي لأحكام القرآن، والعمل المبني على الدراسة والفهم والاستيعاب، على أن سماحته لا يفصل بين هذه المراحل، فلا يعني ذلك بحال أنه إذا انتقل إلى تصيير القرآن حياً في حياته الفردية والاجتماعية ترك التلاوة والدرس مثلاً، بل يتلو ويدرس ويحفظ ويطبق، فالقرآن كما وصفه النبي ﷺ "هو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.." ^(٢)، فإذا نظرنا في سيرة السلف، وجدنا أن "السلف الصالح كما كانوا يحرصون على تلاوته كما أنزل، كانوا يحرصون على تعلم ما في القرآن من علم، وتطبيق ذلك في جميع أعمالهم، كما روى ابن

(١) حقيقة الإسلام، الشيخ الخليلي، ص ٦٢

(٢) رواه الترمذي، رقم ٢٩٠٦، والدارمي رقم ٢٣٣١

مسعود - رضي الله عنه - أنهم كانوا يتعلمون عشر آيات من القرآن لا يتجاوزونهن إلى غيرهن إلا بعد أن يتقنوا ما فيهن من العلم والعمل، كانوا يتعلمون العمل كما يتعلمون العلم^(١). وكم يسر الشيخ حين يرى اهتمام الناشئة بالقرآن الكريم حفظاً ودرسا، ويتمنى أن يعم ذلك الخير البلاد الإسلامية، فعندما زار وادي ميزاب بالجزائر عام ١٤٠٩ هـ الموافق له ١٩٨٨ م ورأى العناية الكبيرة بالقرآن الكريم حفظاً ودرسا، سجل ذلك في تقرير أعدّه سماحته عن هذه الزيارة قال فيه: "وكم كنا نتمنى أن نلمس هذا الاهتمام بكتاب الله في بلدنا عمان، لكونها هي أم المذهب وراعيه، فإنك لا تكاد تجد من يحفظ كتاب الله كاملاً إلا قليلاً... فنأمل أن يأتي اليوم الذي تنعكس فيه الآية فلا تكاد تجد من لا يحفظ كتاب الله"^(٢)

رابعاً: التربية السلوكية الفردية، على المسلم أن يعمل بما في القرآن في نفسه خاصة أولاً، ثم في غيره، فدعوات القرآن في الأخلاق والسلوك كثيرة جداً، ترتقي بالمسلم إلى الأوج الشامخ من مدارج الفكر والسلوك وسلامة العقيدة، كنبذ الحسد، والأحقاد، والغيبة والنميمة، ويدعو إلى الدفع بالتي هي أحسن، وحب الخير للآخرين، إلى ما وراء ذلك، والقرآن الكريم إنما يؤثر تأثيره

(١) الإيمان مفهومه وتطبيقاته. الشيخ أحمد الخليلي ٦٦/ج. بمكتبة معهد العلوم الشرعية

(٢) من تقرير لسماحته عن الزيارة محفوظ بإرشيف مكتب الإفتاء بوزارة الأوقاف العمانية

الفاعل في حياة الفرد حين يُقبل عليه المسلم مخلصاً راغباً، وينقل سماحته في جواهر التفسير ما فعل القرآن الكريم في العرب، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط التالية:

- ١- حررهم من الأوهام.
- ٢- سلخهم من عاداتهم السيئة.
- ٣- أرفه خسهم ورقق طباعهم.
- ٤- بعث في نفوسهم الهمم وأوقد في قلوبهم العزائم.
- ٥- صبرهم بعد بداوتهم هداة للبشرية وقادة للأمم.
- ٦- حرروا به الشعوب المستضعفة المهورة المحكومة بنير الجبارين^(١).

خامساً: التربية الاجتماعية: بحيث يسيطر القرآن العظيم على جميع مناحي الحياة المختلفة، لتصبح إسلامية قلباً وقالباً، يقول سماحته: "فما أحوج المسلمين اليوم إلى عودة حميدة إلى القرآن من جديد، وبناء هيكل حياتهم على أسس صلبة متينة من تعاليمه، سواء ما يتصل منها بالعقيدة أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات أو السياسة أو الاقتصاد أو الأدب أو الثقافة أو الاجتماع"^(٢).

(١) جواهر التفسير ٩/١.

(٢) جواهر التفسير ١١/١.

بذلك يصبح القرآن مصدراً تروياً للأجيال، وبذلك تتحرر الشعوب المستضعفة بفضل قيادة المسلمين، وإذ يعجب الشيخ - حفظه الله - من شيء فإنه يعجب "لأولئك الذين يزعمون أنهم من أمة القرآن، وهم يرتعون في المعاصي، غير مباليين بخلق ولا فضيلة ولا شرف، ويتساءل متعجباً "ما قيمة إيمان هؤلاء بالقرآن" (١). ويعظم العجب أن ترى أحدهم يعمل ببعض أحكام القرآن، وينبذ بعضها وراء ظهره، تحت شعارات جوفاء، ونداء القرآن يصحّ مسامعه "أَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ".

٢- السنة النبوية الأولى

تعدُّ السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم المصدر الثاني لاستقاء الأحكام الشرعية التي تحكم حياة المسلم الفردية والاجتماعية، يقول سماحته: "وسنة رسول الله ﷺ هي الحجّة بعد كتاب الله" (٢).

ويقول: "أما السنّة النبوية فهي وحي خفي، لأنّ ألفاظها لم توح إليه ﷺ كما أوحيت ألفاظ القرآن الكريم، ولكن أوحيت معاني هذه السنة، والكل من عند الله سبحانه" (٣).

(١) جواهر التفسير ٢/٢٠٢.

(٢) وسقط القناع، الشيخ أحمد الخليلي، ص ١١٥.

(٣) الجملة وتفسيراتها، ص ٧.

وذلك كما هو واضح في سنته القولية، والحكم السابق بوصفها مصدراً تشريعياً يسري على سنته ﷺ الفعلية والتقريرية، فرسول الله عليه الصلاة والسلام يقول: " ألا إنني أوتيت الكتاب ومثله معه"^(١). يعني بذلك سنته المطهرة، التي فيها إيضاح ما أبهم من الكتاب وتفصيل ما أجمل، ومن ثم كانت أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ تشريعات لأمته، تهدي للتي هي أقوم، وتكشف عما توارى عن الأفهام من معاني القرآن، ومن هنا نجد في آيات الكتاب التأكيد الذي يلي التأكيد على اتباعه ﷺ في أمره ونهيه، والتأسي بأفعاله والتخلق بصفاته، يقول تعالى: " وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا"^{(٢)(٣)}.

والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام مع إتيانها مفصلة لمجملات القرآن، وموضحة لمبهمه، تأتي أيضاً " بأحكام زائدة عن الأحكام التي في القرآن الكريم، وتأتي أيضاً بأحكام تنسخ أحكام القرآن الكريم، ولكنها - في الواقع - هي امتداد للقرآن لا تنافي القرآن الكريم"^(٤).

وإذ احتلت السنة المطهرة هذه المكانة السامية في التشريع كانت السنة هدفاً للوضّاعين من أعداء الإسلام وأصحاب الأهواء والأغراض المتنوعة، وبسبب طول العهد، كان من المحتم على المسلم الواعي أن يدرك ذلك، فيضع منهجية سليمة في معرفة درجات اليقين بمدى صحة ما نسب إلى النبي عليه

(١) رواه أبو داؤد رقم ٤٠٤٦

(٢) سورة الحشر، الآية ٧

(٣) جواهر التفسير ٦/١.

(٤) ندوة الفقه الإسلامي، ص ٢٥٠.

أفضل الصلاة والسلام، فالله سبحانه وتعالى لم يكتب للسنة الحفظ الذي كتبه للقرآن الكريم، لذلك جاءت طرق النقل للسنة متفاوتة، يقول سماحته: " والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام منها ما روي متواتراً، فحكمه حكم القرآن من حيث عدم جواز الشك في ثبوت سنده إلى الرسول ﷺ لأن المتواتر قطعي لفظه؛ فإن كان نصاً فهو كالنص في القرآن الكريم، لا يجوز بحال من الأحوال لأي واحد أن يجتهد في ما دلت عليه السنة المتواترة دلالة نصية. وأما ما كان من هذه الأحاديث عن الرسول ﷺ عاماً فهو ظني الدلالة ولو كان قطعي المتن... وإذا جئنا إلى الأحاديث المروية عن الرسول ﷺ بطريق الأحاد، فلا يبعد أن تكون حجتها ظنية وإن كانت نصاً في مدلولها، فقد يتعارض الأحادي مع غيره في الظاهر، وقد يتعارض مع عموم القرآن؛ فيختلف العلماء في الترجيح. على أن ثبوت الأحادي نفسه ظني، فإن ثبت إسناد الحديث لم يردّ لأجل اجتهاد أحد من الناس، إذا كان ذلك الاجتهاد مخالفاً للحديث أو الآية القرآنية"^(١).

تلك لمحة مهمة حول منهجية التعامل مع السنة في طريق اعتمادها مصدراً في التربية والتشريع، لا أن نعصب أعيننا عن الحقيقة التي هي كالشمس في رابعة النهار، بدعاوى أوهى من خيوط العنكبوت، ونحن نعلم يقيناً ما نال السنة من التحريف والوضع، ثم ما تلا ذلك من التأويلات الباطلة، ثم نجد بعد ذلك من يرفع شعار التسليم المطلق لكل ما روي عنه ﷺ دون أن نكلّف أنفسنا عناء البحث عن صحة ما نسب إليه عليه أفضل الصلاة

(١) مناهج التشريع الإسلامي، ص ٢٣، ٢٤.

والسلام، ولعمري إنها لمفارقة واضحة، وتناقض بين، وتخبُّط كبير، ربما نال من العقيدة الموجهة للسلوك الذي يحاسب عليه العبد كما يحاسب على عقيدته. إذا وصل المسلم إلى درجة صحة الحديث كانت السنة بجانب القرآن الكريم هما الميزان العدل الذي يفرِّق به بين الحق والباطل، والمحكَّ الذي يستوضح به الهدى والضلال، والغي والرشد، والاستقامة والانحراف^(١). وكان واجباً على المسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ في جميع شؤون حياته، ولا يتفلسف أو يتلكأ في قبول ما صح عنه عليه أفضل الصلاة والسلام، فإنَّ "من لم يتأس بالرسول ﷺ فليس هو ممن يرجو الله واليوم الآخر"^(٢).

لقد كان الشيخ - حفظه الله - وما يزال يتصدَّى بصلافة لا تعرف الوهن، لكل من حاول المساس بالسنة المظهرة في أي شكل من أشكال الدعاوى الفارغة، والتحايلات الفاضحة، والتأويلات الجاهلة، فمن ذلك تصدِّيه لدعوى رشاد خليفة في إحدى المؤتمرات الإسلامية، الذي ادعى أن أوامره ﷺ مقيدة بعصره، منتهية بانتهاؤه زمانه، أو عبد الرحيم الطحان الذي نصَّ صراحة في إحدى محاضراته على أنه لا خير في قرآن بلا سنة، ولا خير في سنة بلا فهم لسلفه الكرام، فحكم بنفي الخيرية عن القرآن والسنة إلا بشرط، فردَّ عليه سماحته في كتابه "وسقط القناع" وما يزال سماحته إذا ألقى محاضرة في أي بقعة، يصدر توجيهاته في معرض ذكر السنة الطاهرة بأن يرمي المريون أبناءهم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وذلك أوسع من أن يحصر أو يمثِّل له، لأجل

(١) وسقط القناع، ص ٨٦.

(٢) الإيمان مفهومه وتطبيقاته ٦٦/ح. بمكتبة معهد العلوم الشرعية

أن ينشأ هذا الجيل على محبته عليه أفضل الصلاة والسلام، وأذكر أنه ذكر لنا قصة رجل أعجمي آسيوي كان سكيراً مغروراً بنفسه، يرى جميع العلماء والفلاسفة والمفكرين تلامذة صغاراً على مائدة علمه، ولكنه كان يجلب النبي ﷺ إجلالاً عظيماً، وفي مجلس شربه في إحدى الأيام، أراد منه أحد السفهاء أن ينال من شخص النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، فأخذ يعدد له الفلاسفة، ما رأيك في أفلاطون؟ فقال هو أحد تلاميذي، ما رأيك في سقراط؟ قال: هو لا يرقى أن يفهم ما أقول، ثم قال له ما رأيك في محمد؟ فهب الرجل واقفاً، وضرب بزجاجة الخمر في الأكواب، وقلب الطاولة، وصرخ فيهم أيها الأندال، أبلغت بكم السفاهة أن تتناولوا للنيل من شخصية النبي محمد ﷺ. وإذا كان هذا الحال لرجل عرييد سكير، فماذا يجب أن تكون حالة المسلم المستقيم تجاه نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو يقرأ مواقف الصحابة الرجولية الرائعة من حوله ﷺ.

٣- السلف الصالح

يعني الشيخ - حفظه الله - بالسلف الصالح الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، وأئمة المسلمين من التابعين ومن بعدهم بإحسان ممن سبقوا عصره المبارك، وقد سأله أحد الصحفيين في الكويت عن الشخصيات التي لها أثر في نفسه فأجاب " في مقدمتها الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم وأئمة

المسلمين"^(١)، وبناء عليه كان الشيخ يعدُّ إجماع السلف رضي الله عنهم، كما يعدُّ سيرهم العطرة مصدراً تربوياً يأتي بعد الكتاب الكريم والسنة المطهرة، يقول في إحدى التعقيبات في ندوة الفقه الإسلامي المنعقدة في مسقط عام ١٤٠٨ هـ: " وإجماع السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، إنما هو في الواقع أيضاً امتداد للكتاب والسنة من حيث إن السلف الصالح لم يستقوا إلا من هذين المنبعين الصافيين"^(٢).

مكانة الصحابة

يؤكد الشيخ في العديد من المناسبات على وجوب احترام الصحابة رضوان الله عليهم، وإعلاء منزلتهم، فقد اختارهم الله تعالى الذي بيده ملكوت السماوات والأرض أن يكونوا في صحبة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، خير الخلق أجمعين، فلا بد من إعلاء شأنهم، وإجلال قدرهم، وتعظيم مكانتهم، ومن هذه التأكيدات قوله:

١- الصحابة هم خير القرون بشهادة الرسول ﷺ، فهم أولى الناس بالاتباع، وأحق الناس بالتعظيم، وقد شهد علماء السلف الصالح بأن صحابة الرسول ﷺ هم أعظم الناس منزلة، وأرفعهم قدراً، وأجلهم شأنًا بعد الأنبياء والرسل^(٣).

(١) لقاء أجراه الصحفي الكويتي جراح الشمري لمجلة "الفتيان" شريط مسجل.

(٢) ندوة الفقه الإسلامي، ص ٢٥٠.

(٣) ندوة الفقه الإسلامي، ص ٢٤٩.

٢- لقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى الخير. كان أصحابه رضي الله عنهم أعلم الناس بمعاني القرآن، وبمجمله ومفصله، وناسخه ومنسوخه، ومطلقه ومقيده، وخاصه وعامه^(١).

٣- أعتقد أن لأصحاب رسول الله ﷺ منزلة كبرى، فقد أثنى الله سبحانه وتعالى عليهم في كتابه في قوله: " مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا " ^(٢) واثني عليهم الحق في قوله: " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا " ^(٣) ، وفي قوله: " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " ^(٤) وإنني لحريص جداً على دخولي في ضمن الذين قال الله عنهم: " وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ " ^(٥) وإنني أعتقد أن أحدنا لو أنفق مثل جبل أحد ذهباً لما ساوى ذلك مد أحدهم أو نصيفه، كما أخبر عن ذلك الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وإنني لحريص جداً على طي صحيفة الفتنة التي كانت بينهم، ولم أكن أريد أن يتحدث لساني أو أن يكتب قلبي شيئاً عن تلك

(١) جواهر التفسير، ١٣/١.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

(٣) سورة الفتح، الآية ١٨.

(٤) سورة الحشر، الآية ٨.

(٥) سورة الحشر، الآية ١٠.

الفتنة، عملاً بقوله سبحانه: " تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (١) وهذا المبدأ هو الذي أعلنه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، إذ قال: " تلك دماء طهر الله منها أئمتنا، أفلا نظهر منها أئمتنا " وهو نفسه ما قاله الإمام نور الدين السالمي، رحمه الله: نحن الأولى نسكت عن من قد مضى ولا نعدّ الشتم ديناً يرتضى فهذه بلادنا لا تلقى فيها لسبّ الصحب قطُّ نطقاً" (٢)

هذا الموقف الرائع لسماحته من الصحابة رضوان الله عليهم يعكس خلفية تاريخية لرؤية أصيلة للفكر الذي يستتير به الشيخ - حفظه الله.

مكانة الأئمة

يكبر الشيخ - حفظه الله - منزلة أئمة المسلمين وعلمائهم، ويعلي قدرهم، وأكثرني هنا بنقل نصين فقط، ليكونا نموذجين يحتذيان في التعامل مع أقطاب العلم المخلصين، ودليلاً لا يقبل الجدل على رحابة أفق الوعي لدى سماحته:

الأول: ما جاء في جواهر التفسير في معرض حديث الشيخ عن كعب الأحبار، وهب بن منبه، اللذين كانا من أهل الكتاب قبل إسلامهما، وهما من مفسري التابعين، يقول سماحته: " وقد صرّح بتكذيبهما العلامة السيد محمد رشيد رضا في تفسيره المنار، معتمداً في ذلك على خلو نسخ التوراة الموجودة الآن من كثير مما نسب إليها، وأبدي إعجابه بنباهة ابن تيمية الذي كان يميل إلى التحفظ من قبول ما يرويان، وقد كان ذلك قبل أن يتبين كذبهما،

(١) سورة البقرة، الآية ١٣٤

(٢) رأي الإبائيين في الخليفين عثمان وعلي " جواب لسائل من أمريكا".

فكيف وقد تبين، ونحن نرى في المسارعة إلى تكذيبهما شيئاً من الخطورة، فإنهما بإسلامهما قد جبا كل ما سبق منهما قبله، وللمسلم حقوقه وحرماته، منها: عدم رميه بكبيرة ما لم يصح ارتكابه لها، والكذب من الكبائر، خصوصاً إن كان في أمور الدين، ورجال الجرح والتعديل قد وثقوهما، وقبلوا روايتهما، ولا نشك أنهم كانوا لا يسارعون إلى التوثيق، أما ما نسب إليهما من عزو أشياء إلى التوراة لا توجد فيها، فعلينا أن ننظر من زاويتين الأولى: أسانيد تلك الروايات التي تتصل بهما... الثانية: نسخ التوراة الموجودة بيننا من حيث كونها متفقة مع التوراة التي يعزو إليها كعب ووهب بن منبه ما يعزوان أو مختلفة^(١).

الثاني: قول سماحته في المذاهب الإسلامية: "علينا أن نعتبرها أمة واحدة، وأن نعتبر هذه المذاهب هي مدارس فكرية، والخلاف إنما هو اختلاف وجهات النظر"^(٢).

ونجد الشيخ كثيراً ما يعود إلى سيرة السلف الصالح مستنداً إليها في إيقاظ الهمم، وتنشيط العزائم، وتفعيل الإرادات، وتربية الأجيال التربية الصالحة، فلا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، فالتجربة السابقة تجربة رائدة يجب أن تتكرر، وأن تتوحد في عناصرها وإن اختلف زمنها، يقول:

١ - "ويسبب هذا التفاعل العجيب مع روح القرآن، استطاع السلف الصالح أن يبتغوا هدايته في الأرض، فقد فتحوا به القلوب الغلف، وأسمعوا به الأذان

(١) جواهر التفسير ٣١/١، ٣٢.

(٢) محاضرة أقيمت في نادي الطلبة العمانيين بالأردن. بحوذة الباحث نسخة منها

الصم، وبصروا به الأعين العمي، ودحروا بسلطانه القوى الكبرى التي كانت تقف في وجه الدعوة إليه^(١).

٢- "ونحن إذا عدنا نتصفح تاريخ السلف الصالح الذين تلقوا من رسول الله ﷺ القرآن غصاً طرياً... نجد أنهم بالقرآن والسنة استطاعوا تحقيق الأمانى التي لا يكاد العقل يتصورها... فكان كل منهم صورة حية لهداية القرآن، وهذا الذي دعا أعداءهم إلى إكبارهم، وخشية بأسهم، فكانوا يتناقلون صفاتهم فيما بينهم في عبارات كلها ثناء ومدح."^(٢).

٣- والسلف الصالح عندما فتحوا الأرض فتحوها بعزائم الإيمان، وبسلاح اليقين، ولم يكونوا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً^(٣).

إن القضية التربوية الشائكة ذات الصلة الوثيقة بموضوع السلف هو التمسح بسيرة السلف الصالح واتخاذها قنطرة عبور إلى أهواء ونزعات ورغبات تحتويها الصدور، يقول سماحته: "وهكذا أصبح التمسح بسيرة السلف الصالح ستاراً يرخى على عجائب يبدو لنا في كل يوم منها جديد"^(٤).

وهذه القضية طالما ألقت بظلالها على فكر الذين كان لهم نصيب في توجيه الأجيال وتشكيل عقولها، ومن هنا تكتسب أهميتها، وقد كثر في هذه القضية الخبط، وتاه فيها الفهم؛ لذا أولاهها سماحته العناية الفائقة، فجلى

(١) جواهر التفسير ٨/١.

(٢) جواهر التفسير ٦/١.

(٣) السابق ١٣١/١.

(٤) الرد على أحد المفرضين، مخطوط بحوزة الباحث صورة منه، ص ٤٣-٥٤.

غوامضها، وأوضح مداخلها، وبدّد عتماتها، وأثار جنباتها، بما يهتك به غيبش التصور عن كل بصيرة، ولذا أرى أن أنقل كلامه مع طوله في هذا الموضوع وذلك لنفاسة الكلام وأهمية الموضوع، يقول في إحدى أجوبته:

"هذا وما يجدر بنا أن لا يفوتنا في هذا المقام، الكشف عما وراء هذه النعمة التي أخذت تتردد على السنة المناوئين للإصلاح في مجتمعنا، واتخذها العديد منهم سلاحاً يواجهون به المصلحين، وهي نعمة المحافظة على ما كان عليه السلف الصالح، والذي يظهر لي أن القائمين في مجتمعنا على هذه الدعوة هم صنفان من الناس:

الصنف الأول: هم صادقون في إعجابهم بطريقة السلف الصالح، ولكن قصرت مداركهم عن فهم حقيقة ما كانوا عليه، وما تجب المحافظة عليه من أحوالهم وأقوالهم، فظنوا أن ذلك يمثل في الجمود على كل ما حكى عنهم من الأقوال والأعمال، من غير تفرقة بين الثوابت والمتغيرات، ومنشأ ذلك ضيق أفقهم الفقهي، وعدم دراسة الشريعة بأدلتها، إذ جلُّ هؤلاء ليس لهم نصيب من علم أصول الفقه، ولا من علم المقاصد الشرعية، وليس لهم باع في علم الحديث ومصطلحه، فلذلك لا يميزون بين الثابت وغيره من الأخبار، بل لا يميزون بين الخبر والأثر، فظنوا أن التنقه في الدين لا يكون إلا بتقليد الرجال في الأقوال والأعمال، وقد تحدّث عن هذا الصنف إمامنا نور الدين السالمي - رحمه الله تعالى - في معرض حديثه عن ضرورة علم أصول الفقه للمتفقه فقال: "وقد رغب عن ذلك كثير من أهل زماننا؛ لجهلهم بما فيه من التحقيق، وصعوبة ما فيه من التدقيق، فقصارى فقه متفقههم حفظ أقوال

الفقهاء، وغاية نباهة أحدهم رواية ما قاله النبهاء، لا يدرون غثُ الأقوال من سمينها، ولا خفيفها من رزينها، قد حبسوا في التقليد المضيق عن فضاء التحقيق، وليتهم لما وقعوا هنالك عرفوا منزلتهم بذلك، ولم يدع أحدهم منزلة ابن عباس، ويقول هلموا أيها الناس، فإننا لله وإنا إليه راجعون، ذهب العلم وأهلوه، وبقي الجهل وينوه.

ونحن لا نتهم هؤلاء في حسن نيتهم وسلامة طويتهم، ولكننا لا نعذرهم على هذا الجمود الفكري، والتحجر الذهني فإن الواجب يقتضيهم أن يطلبوا الفقه من مصادره، فإن عجزوا عن ذلك فلا يقفوا في وجه الآخرين، فإن وقوفهم هذا يعد جريمة في حق العلم والأمة؛ أما كونه جريمة في حق العلم فبالنظر إلى ما يؤدي إليه من تعطيل مصادره، وهي القرآن والسنة والإجماع، والاكتفاء عنها بأراء الرجال، مع أن آراءهم كثيراً ما تكون حلولاً وقتية أملتها ظروف معينة، ومع هذا فهي نابعة من فكر محدود لا يؤمن عليه الخطأ والنسيان، بخلاف الكتاب والسنة، فإنهما لا ينضب معينهما، ولا يأفل نورهما، ولا تستنفد حلولهما بتطور الأحداث، وتجدد المشكلات؛ أما الكتاب فهو تنزيل من حكيم حميد، يحمل ما يستجد في الكون، وما يحتاج إليه الناس، وأما السنة فهي وحي خفي من عنده تعالى، مصون من جميع المؤثرات التي تطفئ على نفوس البشر، فتحكم في آرائهم النابعة من تلك النفوس، فإن الله تعالى يقول: "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ" (١).

وأما كونه جريمة في حق الأمة؛ فلأنه يجعلها أمة جامدة عاجزة عن الرجوع إلى مصادر العلم لاستلهاام الحق، مفلسة من الرصيد العلمي الذي يكفيها لحل مشكلاتها المستجدة بتطور الأحداث، وتقلبات الدهر؛ لأنها اعتادت أن ترجع إلى رصيد محدود من آراء الرجال الذين لم يستوعبوا من الأحداث إلا ما عاصروه، وفي مثل هذه الحالة تجرد الأمة نفسها مدفوعة - على كره منها - إلى التعويل على مصادر التشريع الأجنبية، عندما تنضب مصادرها، وكيف لا تنضب وهي آراء لقوم عاشوا في فترة محدودة من الزمن، فلم يعرفوا ما يستجد بعد تلك الفترة من أحداث.

أما إذا عودت الأمة على استلهاام الحق، ومعرفة القول الفصل من كتاب الله المبين وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وكان منها فقهاء نابهون أخذوا بحظ وافر من علوم القرآن والسنة، فإنها ولا شك ستكون أمة عزيزة؛ باستغنائها بما عندها من الرصيد العلمي عما عند الآخرين، وفي هذا يقول شيخنا العلامة المحقق الإمام أبو إسحاق إبراهيم أطفيش رحمه الله تعالى: "لقد جعل الله للعباد في القرآن قواعد عامة، يهتدون بها في مراحل الحياة، ويستنبطون منها كل ما يصلح لهم من الأحكام، ويسعدون به من الأعمال، ثم بين الشيء الكثير منها النبي ﷺ بأقواله وأفعال وتقريره، فكانت تلك كذلك، يرجع إليها فحول العلماء في كل حين، والإسلام كامل من حيث السياسة الشرعية، والسياسة المدنية، والسياسة الاقتصادية، فإذا ظهر شيء من الخفاء في بعضها، فإن العقول الحاضرة لم تهتد إلى كنهه، ولم تسجل غامضه، ولو انصرفت إلى تدبره لألفته آية واضحة".

ومن تدبر ما كان عليه السلف الصالح من أهل الاستقامة في الدين، وجلهم أبعد ما يكونون عن هذا الجمود الذي ينادي به أولئك الذين يدعون إلى المحافظة على ما كان عليه السلف، ولا أدل على ذلك من أن أحدهم كان إذا أبصر دليلاً في مسألة لم يتردد في اتباعه ولو وجد عمل الناس على خلافه، ومن أمثلة ذلك أن الإمام محمد بن محبوب رحمه الله تعالى وجد أهل عمان يصلون ركعتين بعد الأذان الثاني من يوم الجمعة يفصلون بهما بينه وبين الخطبة، فغير ذلك، وردّ الناس إلى العمل بالسنة، يقول تلميذه الإمام أبو المؤثر الصلت بن خميس الحروصي - رحمه الله - في كتاب الأحداث والصفات: "ومن السنة في الجمعة، أن الخطبة متصلة بالأذان، والأذان متصل بالإقامة، والإقامة متصلة بالصلاة لا فرق بينهما، ولقد كان بعض المبتدعين صلّى ركعتين بعد الأذان، واتبّعه الناس على ذلك، ثم إن محمد بن محبوب - رحمه الله - غير تلك البدعة وردّ الناس إلى الأمر الأول".

ومن المعلوم عند من عرف التاريخ أن عمان عندما جاءها ابن محبوب - رحمه الله - ما كانت خالية من أهل العلم، بل كانت في أزهى عصورها العلمية بكثرة علمائها، وسعة أفقهم العلمي، وكان من بينهم أحد حملة العلم عن الربيع - رحمه الله - وهو الإمام منير بن النير - رضوان الله عليه - ولم يمنع ذلك محمد بن محبوب من تغيير ما رآه مخالفاً للسنة، وردّ الناس إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن أئمة المذهب - رحمهم الله تعالى - اتفقوا من عهد الإمام أبي الشعثاء جابر بن زيد على أن العاجز عن الصيام لهرم أو مرض

لا يرجى برؤه، ولا مال له يفتدي به، يصوم عنه أخصّ خاصته، أو يدفع عنه الغدية من ماله هو، كما أتى به أبو الشعثاء - رحمه الله - الرحيل والعنبر في أمهما، واستمر الناس على الأخذ بهذه الفتوى حتى جاء أبو المؤثر، فاجتهد في المسألة، واستنبط من قوله تعالى: "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا"^(١) سقوط الصيام والإطعام عن العاجز عنهما، وعدم انتقال الخطاب بهما إلى غيره، وأشبع المسألة تحقيقاً، فوافقه جل العلماء الذين جاءوا من بعده على رأيه هذا؛ لقوة دليبه مع أنه لم يقله أحد من علماء المذهب قبله، وإنما هو قول مكحول، وخالد بن دريد، وربيعة بن عبد الرحمن، وأبي ثور، وابن المنذر من فقهاء الأمصار.

قال الإمام السالمي رحمه الله: "وأول من فتح باب ذلك أبو المؤثر، وتبعه أبو سعيد، وأبو محمد وغيرهما"، وقال أيضاً: "وبالغ أبو المؤثر في ردّ الصيام والإطعام، مع علمه أنه قول أئمة، ونصر قول خالد بن دريد وربيعة بن عبد الرحمن".

وما ذهب إليه أبو المؤثر هو القول الراجح في المسألة كما أوضحت ذلك بما فيه مقنع في درس التفسير.

ولا يكاد يوجد أحد من علماء السلف المجتهدين إلا وله مثل هذا الموقف، وعلى هذا درج علماؤنا المتأخرون، فهذا قطب الأئمة - رحمه الله - انفرد بكثير من الآراء في مسائل أخذ فيها بغير ما استقر عليه أئمة المذهب، وربما رجح قولاً شاذاً مهجوراً عند جميع علماء الأمة، كما فعل في المسألتين

الغراوين، عندما رجح فيهما مذهب ابن عباس رضي الله عنهما، على مذهب زيد رضي الله عنه، إذ وصف مذهب ابن عباس بأنه الحق، ثم قال: "وليس زيد بن ثابت جبريل الفرائض، ولا نحن حمر الفرائض".

شمرٌ وكن في أمور الدين مجتهداً ولا تكن مثل غير قيد فانقادا

وهذا الإمام السالمي - رحمه الله تعالى - وجد أهل عمان مطبقين جيلاً بعد جيل على أن يقيم للصلاة الإمام دون المؤذن، وكان العلماء الذين سبقوه شديدي التمسك بذلك، حتى أن أحد المتأخرين منهم أفرد لهذه المسألة مؤلفاً خاصاً انتصر فيه للقول المعمول به في زمانه، أدرجه صاحب قاموس الشريعة في الجزء الثاني من كتابه هذا، فاحتل من صفحاته أكثر من مائة صفحة، وبمن انتصر له الإمامان العلامة أبو نيهان، والمحقق الخليلي - رحمهما الله تعالى - وقد قال الإمام السالمي في معرض الحديث في هذه المسألة: "وهذان الشيخان هما أجلّ علمائنا المتأخرين"، ولم يمنعه كل ذلك من إبطال ما كان الناس عليه، وردهم إلى السنة التي كان عليها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون، وسائر أصحابه والتابعون، وهي أن يقيم المؤذن لا الإمام، واشتد نكير الإمام السالمي - رحمه الله - تعالى على الذين بدلوا هذه السنّة حتى قال فيهم:

فبدلوا وليتهم ما بدلوا	ورسخت بقلب من لا يعقل
حتى ادعاها سنة واحتالا	على ثبوتها بما قد قالوا
وهو لعمرى جدل محرم	لأنه يقول ما لا يعلم
وإنه ساع لهدم السنة	بجهله كفى بهذا محنة
لو كان سنة كما قد زعما	لم تفتن أسلافنا والعلماء

كيف تكون سنة مخالفة لما عليه العلماء السالفة
 وفعله صلّى عليه ربه مشتهر مضى عليه صحبه
 والخلفاء الراشدون أجمع إلى انتهائهم عليه أجمعوا

وقد أبطل رحمه الله ما تعرف عليه من قراءة القرآن على القبور، كما أبطل الأوقاف الموقوفة لذلك، وأمر بصرفها في مصارف الأموال المجهولة الأرباب، إن لم يعرف لواقفها وارث، وفي هذا يقول:

أتمرن قبورنا الدوارس ويتردد إليها الدارس
 وهذه المساجد المعدة نتركها وهي لذاك عدة
 والمصطفى قد زارها وما قرا إلا سلاما ودعا وأدبرا
 حسبك أن تتبع المختارا وإن يقولوا خالف الأثارا

وقد لقي معارضة شديدة، واستككاراً حاداً من الذين يحرصون على عدم مخالفة ما وجدوا عليه أسلافهم في كلتا المسألتين، وكانت الثانية سبباً لحتفه - رحمه الله - إذ أصيب في طريقه إلى أحد شيوخه لإقناعه بالحق فيها، وقد وفق - والحمد لله - في ردّ الناس إلى العمل بالسنة فيهما، واجتهاداته - رحمه الله تعالى - كثيرة.

وهذا إمام المسلمين العلامة محمد بن عبد الله الخليلي - رحمه الله تعالى - ردّ عمل الناس في زمانه إلى ما تقتضيه السنة في العديد من المسائل، منها صلاة التراويح في قيام رمضان، فقد دعا الناس إلى أن يصلوها ثمان ركعات، كما صلاها رسول الله ﷺ بعدما كانوا يصلونها اثنتي عشرة ركعة، ومنها جهر

المأمومين بالتكبير وراء الإمام يوم النحر وأيام التشريق أديار الصلوات المفروضة، ومنها عدم السجود أديار الصلوات إلا للساهي.

وأما الصنف الثاني: فهم قوم ليست لهم بالسلف الصالح صلة، وإنما اتخذوا الدعاية السلفية التي يتمسحون بها جسراً يعبرون عليه إلى غايات يدفعهم إليها ما وقر في نفوسهم من الهوى، وسلاحاً يجهزون به على الإصلاح، ويقاومون به المصلحين الذابئين عن حرمت الدين، لأنهم وجدوا من هذه النعمة التي تستهوي النفوس آلة صالحة لاستشارة عواطف الجماهير ضد من يصمونهم بأنهم خارجون على منهاج السلف، فلم يفتأوا - تحت هذه اللافطة - يكيلون التهم للأبرياء ويلمزونهم بالأباطيل "والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً" فإذا دعا داعي الحق ونادى منادي الإصلاح إلى ما فيه صلاح الأمة والدين، ثارت نائرتهم؛ فلم تهدأ لهم عاصفة، ولم يخذ لهم ضرام، مدعين زوراً أنه أمر بدع في الدين، وتعد على سيرة السلف، ولا يهمهم أن يفشو بينهم الإلحاد، ولو صخَّ صخبه مسامعهم، أو ينتشر في وسطهم الفساد، وإن أركم ننته معاطسهم، وقد يكون ذلك من أقرب قريب إليهم، وأعز عزيز لديهم، فلا تنقدح في قلوبهم غيرة، ولا يتحرك لهم ضمير، ولا يقوم في نفوسهم باعث يدفعهم إلى تغيير المنكر، ومقاومة الباطل "لَا يَتَّاهُونَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ" (١)، فليت شعري أين الحججة من الدعوى؟ فشتان بين الواقع والمدعى.

على أنهم أنفسهم أسرع الناس إلى مخالفة السلف إذا لاح لهم في الأفق مطمع، أو تخيلوا في أمر ما يخالونه منفعة لهم، يتهاكون على الدنيا كما يتهاوى الفراش على السنة النار، ويتساقط الدباب على عفونة الأقدار، وكثيراً ما يلبسون باطلهم ثوباً فضفاضاً موهماً بدعاية الحق " يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ " ^(١) ليت شعري أيمثل هذا ينصر الحق؟
وتحى سيرة السلف الصالح؟ ويشاد بناء الدين؟ كلا والله! وإنما كل هذا الذي يأتونه من هذا القبيل، ليس هو إلا نقضاً لعرى الإسلام، وهدأً لبنيانه الشامخ، فالإسلام لا يشاد بنيانه إلا بدعائم الحق، ولا يقوم قائمه إلا بعمل الخير، يقول شيخنا الإمام أبو إسحاق إبراهيم أطفيش رحمه الله: "إن الإسلام لا يؤيد بالسيئات والعيوب وإنما بالحسنات ومحاسن الأعمال".

وما انتماء هذا الصنف من الناس إلى السلف الصالح إلا عار يلصق بالسلف وهم منه براء براءة المسيح عليه السلام ممن اتخذوه وأمه إلهين من دون الله، فسيرة السلف ما كانت مشوبة بالعيب، ولا ملطخة بالعار، وإنما كانت يضاء نقيه، أصفى من الماء القراح، ما كانوا يقرون إلحاداً، أو يسكتون عن فساد لأجل محابة قريب، أو رعاية حبيب، وما كان أحدهم يغدو ويروح وهم محصور في مصلحة نفسه، بل كان كل منهم ينوء صدره بأثقال هموم الأمة ودينها، ولو كانوا يعيشون تحت سرايب الأرض توارياً عن مراقبة الباطل ونفوذ بطشه، فقد كانوا وهم على هذه الحالة يتابعون ما يجري في أطراف بلاد

الإسلام بكل يقظة وحزم وعزم، ولم تكن منهم متابعة مجردة، بل كان يليها التخطيط والتنفيذ لما يعود بالخير والعز والكرامة على الأمة والدين.

إن سيرة السلف - أيها الناس - ما كانت يوماً ما تحجراً وجموداً وبرود عاطفة تجاه الدين، ومخادعة لله وللمؤمنين، وإنما كانت انطلاقة لا يقف عند حد، وغيرة على الدين وحرماته، يوجهها الإيمان الصادق، وإخلاصاً لله عز وجل، يبعث على المحافظة على أوامره ونواهيه^(١).

وبعد هذا الكلام النفيس الجامع الممتنع، لا يمكن أن يصلح تعليق عليه إلا من جنسه، نختتم به هذا المبحث وهو قول سماحته:

"إن الغيور على سيرة السلف الصالح ليس هو الذي يدعو إلى إغلاق باب النظر والاجتهاد، والتعامي عن الأدلة الشرعية، وإنما الغيور حقاً على سيرة السلف هو من اعتصم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وحافظ على ما كان عليه السلف من التمسك بهما، والغيرة عليهما، ومواجهة الباطل مهما كان مصدره، بكل قوة وحزم، من غير مراعاة لقرابة قريب أو محبة حبيب"^(٢).

٤. العلم الحديث

يمكن إضافة هذا المصدر إلى المصادر الثلاثة الأولى التي تركز عليها مصادر التربية مما يعددها التربويون، وذلك من تجديد سماحة الشيخ في الفكر التربوي، فكثيراً ما نلمس رجوع الشيخ في توجيهاته إلى الحقائق العلمية الثابتة، وإلى

(١) الرد على أحد المفرضين، مخطوط بحوزة الباحث صورة منه، ص ٤٣-٥٤.

(٢) الرد على أحد المفرضين، ، ص ٤٢.

أقوال أصحاب الاختصاص وآرائهم في فهم الكثير من القضايا المشكّلة ،
 والمعضلات المعقدة ، فيصدر في حكمه عن فهم استوعب فيه مصادر الشريعة ،
 ووعى فيه رؤية العلم الحديث ، إذ الكثير من القضايا لا تحل عقدها إلا في ضوء
 رؤية العلم ؛ فبه يكتمل التصور للقضايا والمشكلات ، والحكم على الشيء
 فرع تصوره ، فإذا انحرف التصور انحرف الحكم ، وإن انحرف الحكم انحرف
 السلوك ، يقول سماحته : " ولا ريب أن الانحراف في تصورات الإنسان يؤدي
 به إلى الانحراف في كل شؤون الحياة ، فإن شؤون الحياة كلها إنما هي مبنية على
 التصورات " (١) ؛ لذا نجد سماحته كثيراً ما يوجّه طلبة العلم وراة الإصلاح إلى
 استيعاب قضايا العصر بجانب التضلع في علوم الشريعة ، ويدعوهم إلى التفتح
 العقلي وعدم التقوقع والانزواء ، يقول سماحته : " يجب أن تكون هناك طائفة
 من المسلمين تتخصص في دراسة الشريعة الإسلامية بعمق ... ولا يعني ذلك أن
 تكون منعزلة عن واقع حياة البشر في عصرها ؛ فإن الانعزال يؤدي بها أن لا
 تحل للبشر مشكلة ، ولا تعالج لهم معضلة ، هذه الطائفة يجب أن تكون مدركة
 تمام الإدراك لعصرها ، وما يتطلبه هذا العصر ، وما تفرزه تطورات العصر من
 مشكلات مختلفة لتستنبط حلول هذه المشكلات من القواعد الكلية ... " (٢)

(١) آثار الانحراف الفكري ٩٩ / ج

(٢) أهمية العلم ، ص ٢٤ ، ٢٥

محتوى التربية

لقد تقدم الحديث عن مصادر التربية التي يستقي منها المحتوى مادته، ويشكل منها كيانه، فالمحتوى بذلك يشمل الأحكام العقدية، والخلقية والعملية (الفقهية) ثم يتوجه التربوي إلى الحياة الإنسانية ليأخذ منها مهاراته ومعلوماته الضرورية في تسيير حياته، مستفيداً في ذلك من تجارب بني جنسه.

لقد أشار سماحة الشيخ إلى هذا المحتوى في العديد من توجيهاته، يقول عن الأحكام العقدية مثلاً: "إن أولى العلوم بالاهتمام والعناية والحرص هو العلم الذي يعرف هذا الإنسان من أين جاء وإلى أين ينتهي، وما هي وظيفته بين مبدئه ومنتهاه، هذا العلم لا يخضع لتجارب البشر ونظرياتهم وإنما يستمد من الله سبحانه وتعالى بواسطة النبوات"^(١)

ويقول عن الأحكام الفقهية: "فكل واحد مطالب بأن يتفقه في دين الله سبحانه وتعالى، بقدر ما يعبد الله على بصيرة ويقدر ما يسوس نفسه في هذه الحياة بسياسة شرع الله سبحانه وتعالى، بحيث لا تخرج أعماله وتصرفاته عما يقتضيه حكم الله سبحانه"^(٢)

ويقول عن الجانب الخلقى: "وما أولى هذا الجانب بأن يرعى، وأن يولى كل عناية، وذلك لأن هذا الجانب مرتبط بصميم الدين، بل هو من أساسيات الدين الحنيف... قال ﷺ: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، فمكارم

(١) أهمية العلم، ص ٨

(٢) السابق ص ٢٠

الأخلاق غاية من غايات هذا الدين الخنيف، ومقصد أسمى من مقاصد هذه الدعوة المباركة التي بعث بها ﷺ التي كانت رحمة للعالمين^(١) وسيأتي تفصيل ذلك في فصل التربية السلوكية. ويقول عن جانب المهارات والاستفادة من التجربة الإنسانية: "لذلك كانت دراسة العلوم المؤدية إلى استغلال ثروات الطبيعة فرضاً كفائياً على المسلمين؛ لما يترتب عليها من قوام شأن الأمة الإسلامية واستغنائها عن الآخرين، واستقلالها في أمورها المعاشية، وكان لزاماً على المسلم أن يكون حريصاً على تتبع ما يجري في هذا العالم ليأخذ العبرة من كل شيء، فإنَّ لله سبحانه سنناً في هذه الحياة لا تبدل"^(٢)

أساليب التربية

لقد تقدّم الحديث في مبحث مصادر التربية أن نشاط التربية مستهدف به الإنسان من أجل تحقيق العبودية المطلقة لله، وقد شاء المولى - جلّت قدرته - أن يخلق هذا الإنسان في تكوين عجيب، يدعو إلى التفكير حقاً، ففيه انطوى العالم الأكبر، مخلوق متباين في صفاته النفسية، كما هو متباين في سماته الجسمية، لذا

(١) الإسلام ومكارم الأخلاق، ٩٨ / ج

(٢) جواهر التفسير ٢ / ٢٥٢

يبدو الاختلاف في أحوالهم المعيشية، ومنهجية تصريفها، وهذا "التباين في أحوال الناس سمة من سمات البشر المعهودة، فلذلك نجدهم متفاوتين في المدارك، مختلفين في المشارب، متعاكسين في الأحاسيس، وإلى ذلك يرجع تعدد مذاهبهم في الأمر الواحد، وتباين تصوراتهم في القضية الواحدة"^(١).

لهذا كانت مهمة المربين دقيقة، ومسالكهم خطيرة، فإن فساد الأسلوب التربوي مفضي إلى فساد الجيل، وفساد الجيل مؤد إلى فساد المجتمع لا محالة؛ ولذلك يشير كثير من الكاتبيين من المتقدمين والمتأخرين إلى أن التربية فن وصناعة، لها أصولها وقواعدها، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في مقدمته^(٢).

والحياة الإنسانية متطورة في شتى مناحيها، مستمرة في تطورها؛ لذا لم يصح بحال أن تكون التربية متحجرة جامدة، بل تواكب المد الحضاري، وتستوعب معطيات العصر، وتستجيب لحاجاته. ولهذا يشبه الشيخ - حفظه الله - المربي بالطبيب، سواء كان هذا المربي أباً أو معلماً أو واعظاً أو مفتياً أو في أي موقع من مواقع التربية والتوجيه، يقول سماحته: "الأب المربي كالطبيب الحاذق في استخدام العلاج، قد يكون الأب إذا اتخذ وسيلة الإرشاد والنصح والتوجيه والتذكير بالعواقب، يكون عمله هذا أجدى في بعض الحالات، وهذا يختلف باختلاف طبائع الأولاد، قد يكون بعضهم تصيبه الغفلة، فعندما يذكره يتذكر على الأقل حياءً، فيؤخذ بهذه الناحية، وبعضهم يحتاج إلى تعنيف في

(١) الحق الدامغ، الشيخ الخليلي، ص ٥.

(٢) مقدمة ابن خلدون، الباب السادس الفصل الثاني: في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع.

القول، وبعضهم يحتاج إلى عقوبة، فهذا يعاقب بقدر الجرم الذي ارتكبه، ويقدر الخطأ الذي وقع فيه، ولا يرضي عاطفته هو، فبعض الحالات يكفي فيها النصح ويلجأ الأب إلى العنف... فالطبيب يحتمل أحياناً أذى المريض، كذلك الأب عليه أن يحتمل أذى الأولاد"^(١).

ذلك تعريج سريع على ضرورة منح الوسائل التربوية وأساليبها عناية فائقة، فهي بمثابة الطريقة التي يقدم بها الطبيب علاجه إلى مرضاه، وسأذكر هنا أهم الأساليب التربوية التي أشار إليها سماحته.

(١) القدوة

يقول سماحته: "القدوة ناتجة عن تأثر نفساني من قبل المقتدي بالمقتدى به، سواء كان ذلك لعظم شخصيته في اعتقاد المقتدي أو لتفوقه في ناحية من النواحي، كالنواحي العلمية والنواحي العملية وغيرها، أو لأي سبب من هذه الأسباب، وهذا ما يجعل الإنسان ينساق وراء شخص بسبب هذا الإعجاب البالغ الذي يتحكم في نفسه"^(٢).

إن التربية بالقدوة من أكثر الطرق تأثيراً في نفوس الناشئة في شتى مراحل حياتهم، وهي تسبق في تأثيرها القول في أي شكل من أشكاله، أكان نصحاً

(١) تربية النشء، ٢١١/أ. بمكتبة معهد العلوم الشرعية

(٢) جريدة عمان، عدد ٦٧٨٣، الثلاثاء ٢٠/رمضان ١٤٢٠هـ، ٢٨/١٢/١٩٩٩م، ص ١٥.

مباشراً، أو خطة عامة مثلاً، إذ لا يجدي القول إلا بعد أن يكون صاحبه ترجمة حية لما يقول، ويؤكد الشيخ - حفظه الله - على المربين ضرورة جعل أنفسهم قدوة لكل من يتأثر بهم، ومن هؤلاء المربين على سبيل التمثيل:

١. الآباء : يقول سماحته "على الآباء والأمهات في البيوت أن يكونوا قدوة لأبنائهم في التمسك بقيم الإسلام، والمحافظة على واجبات الدين، وعليهم أن يفرسوا المفاهيم الإسلامية الصحيحة في نفوس أولادهم؛ حتى يكون هؤلاء الأولاد ثمرة طيبة لهم، وامتداداً حسناً لوجودهم بعد وفاتهم، وسبباً لفوزهم يوم القيامة، فإن من عمل الإنسان الذي يبقى له بعد موته الولد الصالح الذي يدعو له بالخير"^(١).

٢. المدرسون : يقول سماحته: "على المدرسين أن يهتموا كل الاهتمام أن يكونوا هم القدوة لهؤلاء الأولاد في السمو بأنفسهم إلى الأوج الأعلى، فيترفع عن الكلمات النابية، والقذف بالشتائم، وتسميته بأقبح الأسماء، كأن يناديه يا كلب، يا حمار، لأن ذلك ينطبع في ذهن الطالب، فيمارسه في حياته، وعليهم التزام الصدق وتجنب الكذب؛ لأن له تأثيراً على نفسية الأولاد، فهو عندما يرى أستاذه يخدعه بالكذب يظن أن ذلك مهارة وشطارة، فيتعود مثل ذلك،

(١) التحذير من آفات المجتمع، ص ٥٧.

وعليهم أن يكونوا قدوة في غرس الاعتزاز بقيم الدين وفضائله، والاستهانة بما عند أعداء الحق^(١).

٣. الدعاة : الذين جندوا أنفسهم لدعوة الناس إلى الخير، أكان المدعوون من المسلمين أو من الكفار، بل على المسلم أياً كان أن يكون ترجمة حقيقية لمبادئ الإسلام، والأمر أوجب في حق العلماء منه في حق غيرهم، يقول سماحته:

أ - "أما الدعوة النافعة التي تحوّل الناس من الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصلاح، فهي الدعوة التي يصدّقها فعل الداعية، وترجمها واقعه، ويزكيها إخلاصه، وإذا لم يتفاعل الداعية مع دعوته فكيف يتفاعل معها غيره"^(٢).

ب - "على الفقيه أن تكون أعماله كلها ترجمة حية صادقة لما آتاه الله سبحانه من علم، وبهذا تنتشر الدعوة الإسلامية"^(٣).

ج - "على المسلم أن يكون ترجمة لحقيقة الإسلام، يتجلى جوهر الإسلام بمجرد النظر إلى تصرفات هذا المسلم في جميع أحواله، في أخذه وعطائه، وفي قبوله ورفضه، وفي غضبه ورضاه، في تصرفاته ومعاملاته كلها، هكذا يجب أن يحرص فقهاء المسلمين على أن

(١) تربية الأولاد ١٠٦/أ.

(٢) جواهر التفسير ٤٤٠/٣.

(٣) أهمية العلم - الشيخ أحمد الخليلي، ص ٣٧.

يقودوا المسلمين أولاً إلى هذا الخير حتى يقتنع غير المسلمين بالإسلام، ويدخلوا في دين الله أفواجاً^(١).

إن البلية العظيمة التي أصيب بها المسلمون، وساهمت بفاعلية كبيرة في فساد الأمة، هي فساد من هم في مواضع القدوة، من العلماء وأشباه الصالحين، والموهوبين الذين لهم كبير الأثر في نفوس الناس، ويلبس هذا الفساد لبوساً متعدد الأشكال، ومتباين الألوان، فقد تجدد بعض التمييزين بالفهم والنباهة والحفظ مثلاً يستغلون اقتناع الناس بهم، وإجلالهم لهم في إفساد الأجيال. وتلك مصيبة طامة، وأعظم منها أن تجدد العلماء القادة قد فقدوا مصداقيتهم في نفوس الناس، بمداهناتهم الرخيصة، وحرصهم على جمع الحطام، والركون إلى السلامة، والإخلاق إلى بهارج الحياة، غير مباليين بما تتطلبه مواقعهم من المواقف الأبية الحاسمة المشرفة، غير عابئين بما تخلفه سلوكياتهم في نفوس العامة^(٢)، وعندما ذكر سماحته المشكلات التي تواجهها الصحوة الإسلامية، عدّ منها:

فقدان بعض العلماء مصداقيتهم في نفوس الشباب المسلم، فتجد هذه المجموعة تولي وجهها شطر السياسة الغالبة، فتتحول من وجه إلى وجه، فتفتي اليوم بفتوى، وتفتي غداً بما يضادها، فيجب أن تكون هناك قيادات علمية إسلامية موصولة بحبل الله تعالى، تقول كلمة الحق ولو كانت مرة في أي موقف

(١) السابق، ص ٣٩.

(٢) مثال ذلك أنني كنت في نقاش مع أحد كبار السن المتعلمين في ثبوت عدم ذبح الدجاج المستورد من البلدان الكافرة على الطريقة الإسلامية، وإنما قتل بالشنق والصعق الكهربائي وغيره، فقال لكن القاضي فلان بن فلان الفلاني يأكله وهو أعلم منكم.

من المواقف ، ولو كان ذلك على حساب حياتها، وبذلك توجد الثقة بين الشباب والعلماء^(١).

بل ربما بلغ الخطر الزيبي، حين تُتَهَم الدعوةُ من جرّاء وجود المفارقة الواضحة بين الداعية وما يدعو إليه، بل المفارقة بين سلوك المسلم العادي وما هو معروف عن الإسلام عند غير المسلم من خلال القراءة عنه، فكيف بالداعية؟! يقول سماحته "وإذا كان هناك نشاز بين سلوك الداعية وما يدعو إليه فإنه مؤدّ إلى تقهقر الدعوة، بل وليس إلى اتهامه فقط وإنما إلى اتهام الدعوة أيضاً"^(٢).

(٢) الصحبة : يبين سماحته في مواضع عديدة أثر الصحبة على سلوك الفرد، فمن ذلك قوله : " على الآباء أن يجنبوا أولادهم رفقاء السوء، وهي من أهم الواجبات ، وعلى الأب أن يتابع ذلك ويراقبه"^(٣) ويقول في موضع آخر : " واختيار القرناء الصالحين من أهم الأمور ، فالإنسان يتأثر بقرينه كثيرا، فربّ قرين يُصلح قرينه ، وربّ قرين يُفسد قرينه ، فإن تأثير القرين على القرين بالغ ، وقد أجاد الذي قال :

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد

(١) الصحوة الإسلامية، محاضرة بكلية الشريعة، تسجيلات مشارق الأنوار.

(٢) آثار الانحراف الفكري، محاضرة بالجامعة، رقم ١٠١/ج بمعهد العلوم الشرعية.

(٣) حقوق الأولاد ٩١/ج بمعهد العلوم الشرعية

فعلما يماشي أحد أحدا ، يقاس به ، فيسأل الناس عن صاحبه ، فيقال : صاحبه الذي يصحبه فلان ، وهو رجل سيء الخلق ، شرس المعاملة ، يُحْمَلُ عليه ويقاس به ، ولو لم تتبدل أحواله ؛ لأن من العادات أن تؤثر أحوالُ القراء في قرنائهم ، من هنا كان الواجب على الأبوين أن يبعدا ولدهما عن قرناء السوء ^(١) وليس الأمر محصورا في الناشئة وحدهم كما هو معلوم ، فإن التربية بالصحبة أسلوب تربوي شائع لدى علمائنا المتقدمين ، بل هو عنصر إسلامي تجلّى في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام مع صحابته الكرام .

٣) الموعظة الحسنة :

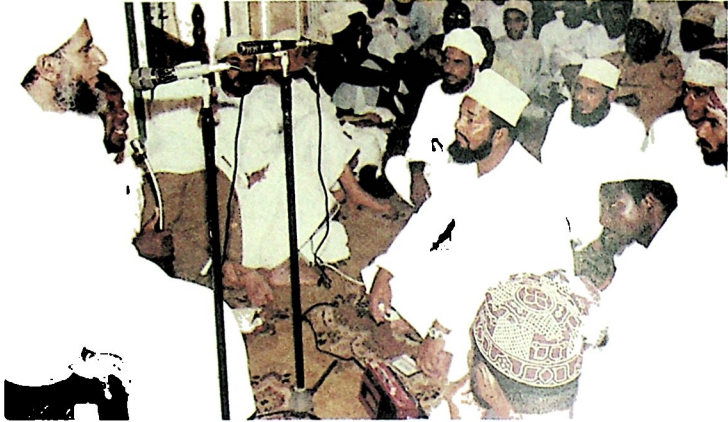
تقرن الموعظة الحسنة في كتاب الله تعالى بالحكمة ، يقول سبحانه : "أذعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" ^(٢) وفي توسط الموعظة بين الحكمة والجدال بالتي هي أحسن ، إشارة إلى أن الموعظة الحسنة مفتقرة إلى الحكمة ، كافتقار الجدال بالحسنى إلى الحكمة ، وإن خلت الموعظة من الحكمة كانت الموعظة خسنة لا حسنة ، وفي هذا المعنى يقول سماحته : " الله تعالى يقول : " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " ^(٣) ولم يقل وقولوا للمؤمنين حسناً ، أو للمسلمين حسناً ، وهذا الخطاب وإن كان موجهاً إلى بني

(١) حقوق الأبناء على الآباء ، ٩٠ / ج

(٢) سورة النحل ، الآية ٢٥

(٣) سورة البقرة ، الآية ٨٣

إسرائيل فهو أيضاً موجّه إلى هذه الأمة، لأنها حكى لها هذا الخطاب، وهو من المعاملة الحسنة.



الشيخ الخليلي يلقي محاضرة في زنجبار بأفريقيا

فعلى المسلم أن يقول حَسَنًا، وعندما يدعو الإنسان إلى الحق وإلى الرشد يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، كما وصّى بذلك الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ. فالكلمة الهادئة الهادفة تستهوي الناس وتميل قلوبهم، وتؤثر على وجدانهم ومشاعرهم حتى تجذبهم إلى الخير اجتذاباً، فلا يلبث من كان عدواً لدوداً أن يتقلب إلى صديق حميم، بتأثير الكلمة الهادفة، فيجب على المسلمين والمسلمات أن يتفطنوا لذلك^(١).

(١) سلوك المرأة المسلمة، محاضرة بالمصنفة بتاريخ ١٩/جمادى الأولى/١٤١٩هـ، تسجيلات

يمكن - من النص السابق - استخلاص عدة مبادئ فيما يتعلق بالموعظة الحسنة هي:

١- إن الموعظة تعني تذكير الإنسان بما يهدف إلى تحقيق مصلحته، ولا يختص توجيهها إلى المسلمين فقط، بل تكون لغيرهم من بني البشر، لأنها - باختصار - دعوة إلى الله.

٢- وصف الموعظة بأنها حسنة، والحسن هنا عام في ذاته، لفظاً ومعنى ودلالة، وفي أسلوب تقديمها كذلك، وإلا أصبحت موعظة خشنة قاسية، ولذا يؤكد الشيخ كثيراً على أن يكون سبك الموعظة من الكلمات الهادئة الهادفة، ويقول سماحته في رسالة وجهها إلى أهل المغرب: "فإننا لم نؤيد قط أسلوب الشدة في محاولة التصحيح، بل طالما نصحنا القائمين بذلك - من أبنائكم - بأن يترفقوا ويتلطفوا، وألا يدفعوا إلا بالتي هي أحسن"^(١).

والرسالة نفسها - على الرغم من طولها - جاءت مترجمة لهذا المبدأ التربوي السامي، ولم تغفل عنه لحظة، فعندما يوجه الشيخ توجيهاته إلى مخاطبه لا يوجهه بأسلوب مباشر، أو بصيغة أمر، أو ما يشعر بالجفاء، بل كثيراً ما يأتي بأسلوب الاستفهام، وهو أسلوب معدود من أساليب الحكماء، فتراه يقول بين الفينة والأخرى: "أرأيت أن لو كان كذا .. فما بال كذا.. ألا يرى الشيخ أن كذا .. سيؤدي إلى..... إلى آخر ذلك.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الموعظة الحسنة إذا عجنتم بماء الحكمة، وأحميت بحرارة الإخلاص، وقدمت على طبق من البشاشة، فعلت فعلها في

(١) رسالة من سماحة الشيخ إلى أهل ميزاب، بحوزة الباحث صورة منها..

النفس البشرية، وذلك ما نقلته كتب السير عنه عليه أفضل الصلاة والسلام. وانتهج نهجه سماحة الشيخ - حفظه الله - فإذا أراد نصيحة أحد من المتعلمين مثلاً استأذنه وانفرد به، ويبدأ حديثه ببشاشة تتلألأ أنوارها في قسما ت وجهه، معتذراً إليه في إبداء بعض الملاحظات أو الاستفهامات أو العتاب بصوت هادئ لا انفعال فيه ولا شدة، بل برفق ولطف وسماحة، ميبناً - حفظه الله - حجته، شارحاً لمداخلاتها، موضحاً للإيجابيات، وكاشفاً عن السلبيات، معدداً الكثير من مواقف الشخص المخاطب، التي تسند صحة ملاحظة الشيخ، وتؤيد سداد رأيه، فيجد المرء نفسه قد استحوذ عليها الشيخ، وأخذ بمجامع قلبه، وتلايب أحاسيسه ومشاعره، لا يدري كيف تغلغل الشيخ إلى أعماق نفسه فطهرها، وتسلى إلى دواخل منرجات نفسه فنقاها، ولنترك مجالاً لأحد المشايخ الفضلاء يحدثنا عن أحد مواقفه، يقول: ذات مرة جمعت العشاء مع المغرب جمع تقديم في جامع روي - حيث أكون مسافراً هناك - وكنت أنا إمام صلاة العشاء، وكان الشيخ حاضراً، فلما فرغت أقبل علي، فسلمت عليه، فقال لي:

"هذه الحالة، إن كانت تسوءني من غيرك مرة، تسوءني منك ومن أمثالك مرات، أنتم تشجعون الناس على جمع الصلاتين، وتوهمون العوام أنه لا بد من الجمع في السفر، ما الذي يمنعكم إذا حضرت صلاة العشاء أن تصلوها حيثما حضرت...". وأنا محتار ماذا أقول، وإنما أكرر له قولي: "إن شاء الله، إن شاء الله" ثم قلت له أخيراً: "إن شاء الله لن أعود" فابتسم لي وافترقنا.. ورغم أن لي بعض العذر في الجمع من جهة الصحة والاشتغال، لكن ظلت تلك العبارات تتردد في خاطري، وجلست أقلب فكري في الموضوع، وأراقب حالة

الجمع المتكررة في جامع روي إثر كل صلاة ظهر وكل صلاة مغرب، فأدركت أن الحالة تورث استياء شديداً..

ثم حرصت ألا أجمع الصلاتين قدر الإمكان، خاصة في جامع روي خشية من عدم تحقيق الوعد بعدم العود، وحرصاً على رغبة سماحته في وضع الإنسان نفسه موضع القدوة، وصرت أكابد متاعبي ومشاغلي مفضلاً عدم الجمع أبداً على أية حال مهما كلفني الثمن، اللهم إلا في حالات الضرورة، وكانت النتيجة أنني ازددت حرصاً على صلاة الجماعة حتى في حال الطريق، وصرت أوقت للجماعات في السفر لأحدد المسجد الذي ستحضرني فيه الجماعة، ثم حرصت أن أنصح من يجمع بعدم الجمع، خاصة من كانت له نظرة من قبل الناس، وعلى أية حال فقد أصبح الجمع لدي مما لا أحبه، لأنه أصبح يعني لدي الكسل، وحب الدعة والنفور من العبادة، والتشجيع على الإهمال. وانعكس أثر الاهتمام بعدم الجمع على كثير من سلوكياتي وحفاظي على المواعيد، وكان لذلك أثر بالغ في تقوية عزمي وطاقتي الروحية، فقد كان ذلك دافعاً إلى الإكثار من صلوات النوافل، والتعلق بالمسجد في أوقات الصلوات الخمس، وها أنا الآن أشعر بسعادة غامرة بهذا التطور الجيد في حياتي الروحية، وأكثر من ذلك زاد حبي للشيخ وغبطتي بنصيحته لي، حيث نما لدي الشعور باقترابه مني واقترابي منه أكثر من ذي قبل.. لا سيما بعد أن ذكرت الحادثة لأكثر من شخص، فكانوا يقولون لي: أنت محظوظ بمحظوتك لدى الشيخ، نحن نتمنى أن ننال من إرشاد الشيخ وتقويمه وتسديده وتصحيحه

للأخطاء مثل ما نلت، لأننا نشعر بأنه مثل الوالد الذي يحرص على مصلحة أولاده وتهذيبهم...

وينقل الشيخ خميس العدوي موقفاً آخر مشابهاً، يقول: كنت مرة في مكتب الإفتاء والشيخ - حفظه الله - يهيم بالخروج، فقال لي: إني بحاجة إليك، أريدك في موضوع، فقلت سمعاً وطاعة، قال: إذن تذهب معي إلى البيت بالسيارة، قلت: بمشيئة الله، ثم تبين أن سائق سيارة المفتي غير موجود، فقال الشيخ: أذهب معك بسيارتك، فخرجنا وإذا بالسائق قد جاء، فقلت للشيخ: إذن ألحقكم بسيارتي، فالتقينا في البيت، فأظهر لي أبوته وحنانه ورفقه، وعتب علي في موضوع قديم، فطلبت منه مستقبلاً أن يجعل لي بالنصح، ولا يؤخره، فوعدني بذلك، ثم انهال علي بنوادره، وأقبل عليّ بصدر منشرح، حتى مسح ما خلف من أثر العتاب، فخرجت بالفائدة، والشيخ أحب إليّ من نفسي^(١).

وحدثني الشيخ بدر اليعمدي قال: نصحني الشيخ مرة نصيحة شدد عليّ فيها، ولا أخفيك أنني تأثرت من شدة وقعها علي، وتكدّرت نفسي، فلما طلبت الإذن بالانصراف أحسّ الشيخ بانكسار خاطري، فقال: اليوم ستناول الغداء معنا، قلت: أحسنت سماحة الشيخ، أرجو أن تعدلني، قال لي: أزعلت؟ وأصرّ علي أن أتناول الغداء مع سماحته، وأخذ يحدثني

(١) لقاء المؤلف بالشيخ خميس العدوي،

حتى خرجت بعد الغداء وقد استل آثار تلك النصيحة من نفسي ، وبقي نفعها^(١)

وحكى لي الشيخ خالد الخوالدي ، قال : كنت ألقى درساً في الجامع ، وكان الشيخ حاضراً ، لكنه من رفقه بنا لا يجلس قبالتنا ، وإنما يكون خلف المتحدث متكئاً على المنبر ، وكان الدرس يتناول موضوع المزاح ، وكنت أنطقها بضم الميم ، وأستخدم اللهجة الدارجة أحياناً ، وبعد صلاة العشاء طلبني الشيخ وانفرد بي ، وأخذ يتحدث بكل حنان ورفق وتواضع ، وسألني هل ضبطت لفظة المزاح؟ فقلت : نظرت في المعجم ، وأعني القاموس المحيط ، فوجدتها بالضم ، فقال : القياس يقتضي الكسر ، ولكن لعلها جاءت على غير القياس ، ثم أخذ يتحدث عن إهمال الناس للعربية ، يقول : أصبح الناس الآن لا يهتمون بالعربية ، وضرب لذلك أمثلة لما يقع فيه الناس من الأخطاء ، كتكرار كلمًا الشرطية في الشرط والجواب ، وعدد الآيات القرآنية التي ورد فيها جواب شرط كلما دون تكرارها ، وبعض تلك الأخطاء في الحقيقة وقعت فيها أثناء الدرس . لكنه لحكمته ولطفه لم يشر إلى أنني وقعت فيها ، وإنما ترك استنباط ذلك لي^(٢) .

٤. القصة

القصة أسلوب تربوي مؤثر ، فقد جبلت النفوس على إتقانها والارتياح إليها ، والانفعال بأحداثها ، والاعتبار بوقائعها ، والتأثر بدلالاتها في

(١) لقاء المؤلف بالشيخ بدر اليمحمدي

(٢) لقاء المؤلف مع الشيخ خالد الخوالدي .

السلوك عامة، يقول سبحانه وتعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (١)

يشير الشيخ إلى أهمية هذا الأسلوب في التربية بقوله: "إن فيما قصه الله تبارك وتعالى في كتابه عن الصالحين، وفي مقدمتهم أنبياء الله تعالى الذين اختصهم الله تعالى بمواهبه، ورفع من شأنهم ما فيه معتبر لأولوي الألباب، فالؤمن لا تمرّ به هذه القصص من غير أن يأخذ منها العبرة"^(٢).

والعبرة عندما لا تتحول إلى واقع مؤثر في سلوك الفرد فما هي بعبرة في الحقيقة، وما يجدي التأثير العاطفي العابر إن لم يحدث أثراً واقعياً ملموساً في حياة الإنسان، بل عليه أن يترجم تأثره واعتباره إلى مبادئ ترسم منهجية حياته العملية. يقول سماحته في جواهره في معرض تفسير قصة آدم عليه السلام وإخراجه من الجنة: "وفي استحضار ذلك لمن تلا الآية أو تليت عليه موعظة وذكرى، وترسيخ لعداوة الشيطان في النفس، فإنه هو الذي جرّ على أصل الإنسانية هذه المصيبة، فما أجدر الفروع أن تثار لأصلها بمعادة الشيطان وحزبه، ومقاومة وساوسه، والحذر من إغرائه وإغوائه، والسعي إلى تخييب سعيه في إضلال البشر، وقطع حبل أمانه في إهلاكهم، وهذا أصل تربوي ناجح في إعداد النفوس لما يراد منها، إذ في تذكير الأولاد والأحفاد بمصائب

(١) سورة يوسف، الآية ١١١.

(٢) جريدة عمان، ع ٦٧٨٣، بتاريخ ٢٠/رمضان/١٤٢٠هـ، ص ١٥

الآباء والأجداد تأصيل لكرهية من كان السبب في هذه المصائب، وقد اتبع القرآن هذه الطريقة التربوية في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ^(١) (٢).

وأود هنا أن أوّشي الحديث ببعض التطبيقات العملية لسماحته لهذا الأسلوب التربوي الفاعل، فهو - حفظه الله - موسوعة قصصية ثمينة نادرة، وكم توغل في أعماق القلوب بهذا الأسلوب، والقصص عند سماحته - كما سيُتضح - قصص هادف، يجمع العبرة والتوجيه، ويحث الهمم، وتنشيط العزائم، وصقل السلوك، وإبهاج النفوس، وقد يستخدم القصة ليحقق بها - في آن واحد - أهدافاً عديدة، بما وهبه الله من فطنة متوقدة، ومنحه من ذكاء حاد، واختصه به من أسلوب في السبك، ومما شاهدناه أنه - حفظه الله - يركّز على المقاطع المهمة في القصة، فيعيدها أحياناً بأسلوب آخر. وربما أتبع القصة شيئاً من التحليل لأحداثها؛ ليسهل للسامعين استيعابها، وبالتالي يحسن فهمها، وتتم أخذ العبرة منها، وتحقق أهدافها.

يذكر الشيخ خالد الخوالدي قصة تشهد لما قدمته، قال: "حضرت مرة مجلس الشيخ وكان بالمجلس أحد طلبة العلم، ومعه أحد الدعاة ممن يكبره سنّاً وفضلاً، وكان الداعية يقدّم الطالب قائلاً: هو شيخنا وأستاذنا وكذا، ولم نلبث إلا برهة من الزمن، حتى أخذ الشيخ يقصُّ لنا قصة الشيخ أبي زكريا مع

(١) سورة الأعراف، الآية ٢٧

(٢) جواهر التفسير ١٣١/٣.

الشيخ الثميني - رحمهما الله - من زيارته لجزيرة في تونس والدرس على علمائها، قال: "إن الشيخ أبا زكريا اتخذ صندوقاً يرمي به الرسائل التي ترد إليه دون أن يفتحها ويعرف ما فيها، حتى أخذ كفايته من العلم، فجاء إلى صندوق الرسائل، وأخذ في قراءتها الواحدة تلو الأخرى، فوجد ما وجد مما حلُّ بأهله والأعزاء عليه، ولكنه حصل على نصيب وافر من العلم، ثم عاد من جربة إلى ميزاب؛ فقدّمه شيخه في الفتيا، هكذا شأن علماء أصحابنا تواضعاً وفضلاً، لا حسد فيهم ولا رائحة لحب الظهور والريادة، لا كما نجد عند غيرهم، فقد روي أن طالباً جاء إلى شيخه بكتاب مختصر ألفه في أصول الفقه، فقال له شيخه: "لقد وأدنتني حياً، هلاً تركنتني حتى أموت"^(١).

ويبدو أن القصة تحمل الدلالات التالية:

١- الحث على طلب العلم والاجتهاد في الطلب.

٢- اعتراف المشايخ لتلاميذهم عند نبوغهم في العلم.

٣- تواضع الطلبة أمام شيوخهم.

٤- تنقية النفوس من الأمراض النفسية، والأرجاس القلبية.

ويستخدم الشيخ القصة كثيراً في محاضراته ودروسه لتحقيق الأهداف التي أشرت إليها سابقاً، مع ما يكون من تحلية الحديث وإكسابه الطرافة والجدانية، وأذكر هنا بعض الأمثلة ليكون شاهداً مع ما أتيت به، فمن ذلك ما ذكره في حثه طلبة العلم على حفظ كتاب الله، قال: "عندما زرت الاتحاد السوفيتي آنذاك وذهبت إلى جمهوريتين من الجمهوريات الإسلامية، ورأيت

(١) لقاء المؤلف مع الشيخ خالد الخوالدي.

أوضاع المسلمين فيها.. ووجدت الأطفال الصغار يرددون " لا إله إلا الله " ووجدت من بين شبابهم شاباً ناشئاً عمره ثلاثة عشر عاماً، حفظ القرآن الكريم وهو ابن ست سنوات، وعندما كان يقرأ القرآن الكريم حسبته خبيراً باللغة العربية؛ لأنه عندما يقف وقفاً اضطرارياً في جزء من آية، يبدأ من حيث يبدأ المعنى، أي ترتبط المعاني في تلاوته، ولكن عندما كلمته بالعربية وجدته لا يعرف شيئاً من العربية قط"^(١).

" وقبل سنتين"^(٢)، كانت مسابقة حفظ القرآن في مكة المكرمة، وكان الفائز الأول شاب إنجليزي، حدثني من لقيه وكلمه، فإذا به لا يعرف شيئاً من العربية"^(٣).

ومن القصص ما ذكر سماحته في الرد على الذين يقولون بتأمين المستقبل قبل الزواج، في أن المستقبل بيد الله تعالى، ذكر قصة رجل أوروبي غني بلغ من الثراء مبلغه، تزوج امرأة، وأراد أن يتمتع بشبابهما ولم يريد شيئاً من الأولاد، فاستخرجها حيواناً منوياً وبيضة، فمتى أراد الولد يتم اللقاح بينهما، وخرجا بطائرتهما الخاصة، فتحطمت بهما، فاخْتُلِفَ في الميراث لمن يكون ؟ فأشار أحد المسؤولين بتلقيح البيضة بالحيوان، فوجدا فاسدين، فتلفت الأرواح والأموال"^(٤).

(١) القيادة في الإسلام، الشيخ أحمد الخليلي، ص ٥٣، واسم الشاب علي شيخان من طشقند عاصمة أوزباكستان.

(٢) أي من تاريخ إلقاء المحاضرة.

(٣) حقوق الأولاد، شريط ٩١/ج، بمعهد العلوم الشرعية

(٤) الإيمان مفهومه وتطبيقاته، شريط ٦٦/ج. بمعهد العلوم الشرعية

ومن ذلك ما ذكره في حاجة الفكر والسلوك إلى العقيدة الصحيحة، من مشاهداته في زيارته لإحدى الدول الشيوعية، يقول: " رأيت ما رأيت من المآسي التي يعيشها الإنسان هناك في ظل النظام الشيوعي، فالإنسان مسلوب الحرية، يتحرك كما تتحرك الآلة عندما نضغط على الأزرار. فالناس يستيقظون في ساعة معينة، وليس لأحد الاختيار في الاستيقاظ، وإنما هو أمر مفروض على جميع الناس، ثم عليهم أن يمارسوا الرياضة لمدة معينة، وبعد ذلك يتناولون وجبة الإفطار في لحظة معينة، ثم على كل أحد أن يغدو إلى عمله بالوسيلة التي تنقله على حسب ما أريد له لا ما يريد بنفسه، ويبقى في عمله من الساعة صباحاً إلى الخامسة مساءً، تتخلل ذلك وجبة الغداء لمدة نصف ساعة، وفي الإفطار والغداء والعشاء لا يسمح للإنسان أن يأكل ما يشتهي، بل ما يشتهى له، وليس للإنسان أيضاً أن يختار الملابس الذي يريده بنفسه بل ما يراد له. وعليه أن يتحرك وفق ما يراد له لا ما يريد بنفسه، فليس لأهل منطقة أن ينتقلوا إلى منطقة أخرى لزيارة أو سياحة إلا إذا أريد له ذلك، فلو أراد لما وجد وسيلة النقل لأن البطاقة الممنوحة له لا تسمح له بالسفر إلى أي منطقة، ثم لا يجد مأوى ولا طعاماً إن وجد المأوى، وإلى الآن الناس هناك لا يعرفون الماء البارد، وقد وقعت في أمر عجيب بنفسي، طلبت ماء للشرب وجيء إلي بالشاي بدل الماء، فقلت أريد ماءً، فجيء بماء ساخن يغلي، فسألت عن سبب ذلك، كيف لا يطعمون الماء البارد؟ فأجيب: بأنهم عودوا ذلك، لأنهم لو عودوا الماء البارد لاحتاج كل عشرة على الأقل إلى ثلاجة ... وهم يشربون

الشاي بدون السكر ، لأي شيء؟ أجابوا أنهم لو عودوا استعمال السكر لاحتاج كل واحد منهم - على الأقل - إلى جرامين من السكر.....

ثم انتقلت بالطائرة مسافة لم تأخذ أكثر من ساعة، فوجدت الحياة تختلف رأساً على عقب، حيث وجدت ظلم الإنسان يتجلى هناك، فالناس بين متخم وجائع يكابد المسغبة طول حياته، فبينما كنت أشاهد العمارات الشاهقة التي تعانق السحاب، وتناغي النجوم، وقد قيل لي قد يملك العمارة فرد واحد، وهذه العمارة قد تتكون من مائة دور، والشقة الواحدة تؤجر بما يساوي أربعة آلاف ريال عماني في الشهر، وهناك بجانب ذلك قطعان من البشر لا تجد المأوى، فرأيت جماعة لم يجدوا حتى أكواخاً يأوون إليها، بل منهم من يأوي في الليل إلى قوارب الصيد في البحر، ومنهم من يأوي إلى هياكل السيارات المتحطمة، فهم لم يجدوا ما يقيهم لفتح الحر في الصيف، وقوة البرد في الشتاء، فلذلك شاعت الأحقاد، فشاعت الجريمة حتى أنها تقاس بالثانية^(١).

فالشيخ يستغل القصة في زرع الإيمان ومفهومه الصحيح في نفوس الناس، ويذكرهم بالله سبحانه وتعالى، ويقوي قناعتهم بالمبادئ الإسلامية وجدواها في حل معضلات الناس، وإنقاذهم من المشكلات.. وربما أوضح الشيخ غرضه من القصة بأسلوب لطيف لا يشعر به المتلقي بقدر ما ينغرس في نفسه المعنى، ويتحقق المراد، فقد كنا مرة جلوساً لديه في مكتبه فحدثنا عن قصر لأحدهم ، وأن فيه ما يقارب ألفين وخمسمائة غرفة عدا القاعات

(١) حاجة الفكر والسلوك إلى العقيدة، ٦٤/ج.

الضخمة...، ثم قال: " هل الشعور بالموت ومفارقة الحياة عند رجل يسكن هذا القصر ، ورجل يسكن في خيمة شعور واحد".

٥. ضرب الأمثال

المثل من التمثيل ، وهو أسلوب قرآني ، فكثيراً ما يضرب الله الأمثال في القرآن " كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ " (١) يقول سماحته: " ومن فوائد الأمثال ترسيخ المعاني في الأذهان ، وتقريب الحقائق حتى تكون كالصور البارزة للعيان ، ومع ذلك ففيها إيجاز للقول بعد الإطناب ، وإجمال بعد التفصيل ، فإن المعاني إذا قدمت في عبارات متفرقة ربما تشتتت في الذهن ، فإن جمعت في الأمثال كان ذلك أدهى لأن تعيها الأذهان وترسم في الأدمغة ، على أن الوهم قد يكابر العقل في المعقولات ، ولكنه أضعف في المكابرة من المحسوسات. فإذا ما أبرزت الحقائق المعنوية في عرض الصور المحسوسة كان ذلك أدهى لأن تتضاءل الأوهام ، وتتبدد الشبه ، فتستسيغ العقول تلك الحقائق المجلوة بدون تردد" (٢).

ويقول أيضاً: " وضرب الأمثال شائع عند العرب وهو مما يزيد المعاني رسوخاً في الأذهان وانكشافاً حتى تتجسد كالصور الماثلة للعيان ، ومثل كل شيء بحسب حاله ، فالعظام تمثل بالعظام ، والمحقرات تمثل بالمحقرات ، وذلك لا يشين الكلام ، ولا يحط من قدره" (٣).

(١) سورة الرعد ، الآية ١٧

(٢) جواهر التفسير ٣٧١/٢.

(٣) السابق ٤٨٤/٢ ، وانظر إطالة الكلام فيه ص ٤٩٠.

المجال للإلقاء، كما ذكر أن الخطابة والإلقاء من أهم المعالم المميزة لمدرسة الشيخ الخليلي الحديثة، مقارنة بالمدارس الفكرية السابقة في عُمان^(١).



يبين الشيخ الخليلي أهمية هذا العنصر التربوي في مواقف عدة، يقول في أحدها: " الخطابة سواء كانت بالعربية أو كانت بغيرها عندما تكون بعبارة مؤثرة، فيها عرض للحقائق، وفيها بيان الحجج والأدلة يكون لها تأثير كبير حتى على الأعداء أنفسهم، ولهذا أنزل الله سبحانه القرآن بأبلغ العبارات"^(٢). ويرى سماحته من أهم وسائل امتلاك الخطابة والإلقاء بعد وجود العلم والثقافة:

١- الطموح والرغبة^(٣)، وهما لا يتجان إلا عن طبع متأصل في تلك الشخصية، أما من كان أصل طبعه لا ينسجم مع هذا المطلب فلا يتولد لديه الطموح بلا شك.

(١) لقاء المؤلف مع الشيخ أحمد بن سعود السيابي.

(٢) الدعوة إلى الله - محاضرة بمعهد العلوم الشرعية رقم ١/٩

(٣) لقاء المؤلف مع سماحته

٢- التدرّب^(١)، وقد نوّه - حفظه الله - بأهمية التّعود على الخطابة، وذكر قصة الرجلين الذين زارا أبا مودود في بيته كما أوردها الشماخي في كتابه "السير"^(٢)، كما ينبه سماحته المتدرّب أن لا يقنط إذا لم يكن مستوى أدائه على حسب طموحه ورغبته في أداء المعنى، ولم ينقل تصوراتّه على أكمل وجه، وليعلم أن ذلك مشترك بين جميع الخطباء، يقول: "والناس مهما أوتوا من ملكة البيان فيبانهم لا يفي بما في نفوسهم من التصورات، فقد تنساق في نفس أحدهم المعاني الكثيرة، فإذا جاء يعبر عنها أخفق في التعبير، وجاء بيانه دون ما يرمي إليه، وهذا لأنّ فنيّة التصوير تكون دائماً أقل من عمق التصور، وهذا أمر مشترك بين جميع البلغاء لا فرق فيه بين العرب وغيرهم"^(٣).

ولكي ترقى الخطابة في سلم التأثير وقوة الإبلاغ ينبغي على الخطيب التركيز على ما يلي:

أ- أن تشتمل المحاضرة أو الخطبة على خطاب القلب والعقل معاً، يقول سماحته: "فالحديث إذا كان حديث إقناع، فيه خطاب للعقل والقلب، إقناع للعقل والوجدان معاً، هذا الحديث هو الذي يجعل الناس تتفاعل معه تفاعلاً تاماً، فلذلك يجب على الدعاة أن يهجموا هذا النهج، عليهم أن يعرضوا الحقائق عرضاً دقيقاً، عرضاً أخذاً شيقاً"^(٤).

(١) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

(٢) الدعوة إلى الله - محاضرة بمعهد العلوم الشرعية، رقم ٩ /

(٣) جواهر التفسير ٧٥ / ١.

(٤) الدعوة إلى الله - محاضرة لسماحته بمعهد العلوم الشرعية، رقم ٩ /

ب - تفاعل الخطيب مع ما يقول ؛ فإن تفاعل المتحدث مع الكلمات التي يقولها تفاعلاً تاماً، يؤثر الأثر الكبير، وقد كانت خطابه ﷺ أقوى ما تكون، فعندما كان يخطب في الناس ينفعل ويتأثر بما يقوله، حتى يكون كأنه منذر جيش^(١).

ج - حسن العرض وجودة الأداء: يقول سماحته: " إن حسن الأداء وسيلة من وسائل الإبلاغ، والله تبارك وتعالى لحكمة أنزل الكتاب بهذه العبارات البليغة التي حيرت الألباب، حتى تطأطأت رؤوس أهل الجاهلية أمامها، فلذلك من الضرورة أن يحرص الإنسان على أن يكون الأداء بقدر المستطاع بعبارة تؤثر على النفوس وتجذبها بعبارات مؤلفة غير منفرة، ومبسطة غير معقدة"^(٢)، وقد تقدّم حثه للدعاة أن يكون عرضهم للحقائق عرضاً شيقاً.

وليقرن سماحته حديثه النظري بالواقع، ينقل للمتلقين حادثة وقعت في العصر الحاضر، تبين مدى تأثير الخطابة في نفوس المخاطبين وإن كان خصوصاً الأداء، وبالتالي قد تغير الواقع، وتقلبه إلى ضده، هذه الحادثة هي ما كان من الخطيب الهندي أبي الكلام آزاد (أحمد خير الدين) الذي خطب أمام المحكمة الإنجليزية إثر اتهامه بمحاولة زعزعة السيادة البريطانية في الهند، يقول سماحته: "أبو الكلام آزاد كان خطيباً مفوهاً، بلغات مختلفة، وكان ذا أثر كبير إذا خطب، وفي عام ١٣٣٩ هـ أُلقي القبض عليه من قبل الحكومة البريطانية، وحاكمته أمام

(١) السابق، رقم ٩ / أ

(٢) لقاء المؤلف مع سماحة الشيخ الخليلي.

محكمة بريطانية، كان رأسها إنجليزي وفيها قضاة آخرون، حوكم بتهمة التحريض ضد السيادة الإنجليزية في الهند، وكان يحاكم بقانون (١٢٤) الذي فيه عقوبة الإعدام لكل من يحاول أن يزعم السيادة البريطانية، فلما أتى به إلى قفص الاتهام، وقرئ عليه سجل الدعوى التي قدمت ضده، أجاب بخطاب بليغ مؤثر شجاع جريء جداً، والخطاب منشور في مجلة "ثقافة الهند" العدد الخاص الذي صدر في يناير عام ١٩٥٨م بعد وفاة أبي الكلام أزداد الذي خصص للكلام عن حياته، وجاء هذا الجواب في ست وثلاثين صفحة من صفحات المجلة، وكان من ضمن ما قاله في خطابه هذا:

"نعم إنني قلت: إن الحكومة الحاضرة ظالمة، وإن لم أقل ذلك فماذا أقول يا ترى؟ إنني لأعجب كيف يطلب مني أن أسمى الشيء بغير اسمه، وأن أدعو الأسود بالأبيض، إنني مسلم، ولأجل أنني مسلم وجب عليّ أن أندد بالاستبداد وأقبحه، وأشهر مساوئه، إن الإسلام أعلن حقوق الإنسان قبل استقلال فرنسا بأكثر من أحد عشر قرناً، ولم يكتف بمجرد الإعلان، بل وضع نظاماً لجمهورية الحق، ولعمري إن مطالبة المسلم بأن يسكت عن الظلم، ولا يسميه ظلماً مثل مطالبته بأن يتنازل عن حياته الإسلامية، فكما لا ترون لأنفسكم الحق بأن تطالبوا المسلم بأن يرتد عن دينه، فكذلك ليس لكم أن تطالبوه بأن يسكت عن الظلم ولا يسميه ظلماً، لأن معنى كلتا المطالبتين واحد"، واستمر حتى قال: "ألا فلتعلم الحكومة الإنجليزية أن المسلم الذي أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر، ويتغلغل في لجج الدواهي والكوارث، ولا يقبل

السكوت على الظلم، لا يخيفه قانون (١٢٤) من العقوبات الهندية، ولا يمنعه من التصريح بالحق وتسمية الظلم ظلماً.

وكشف عن جانب كبير - بما بهر أولئك السامعين - من مناقب الإسلام، ومواقف المسلمين الأوائل، وجرأتهم بجانب إلقاء كلمة الحق، ولو في أخرج المواقف وأدقها، وذكر بعض المواقف لأبطال الإسلام أمام الحكام المسلمين الذين انحرفوا عن طريق الحق، كيف كانوا يواجهونهم بالحق بدون مبالاة، وذكر أنه إن كان الحكام من أهل هذه الملة قد ووجهوا بمثل هذه المواجهة، فماذا تنتظر الحكومة الإنجليزية منا وهي على غير ملتنا؟!.

ثم بعدما نفص كنانته، التفت إلى القاضي فقال له: "وأنت أيها القاضي، ماذا عسى أن أقول لك، إلا كما قال المؤمنون من قبلي في مثل موقعي هذا "فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَلْوَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا" ^(١) فاندعش القاضي، وتأثر الآخرون بخطابه، فأخّر تنفيذ الحكم، وسجن لفترة مؤقتة، وبعد عامين أطلق سراحه، وظل يواصل إصدار مجلة الهلال التي كانت كلماتها قذائف من نار." ^(٢)

هذا أثر الخطابة، فالجراحة في القول، ورصف الكلمات وغزارة معانيها، وبلاغتها في تأدية هذه المعاني، مع تفاعل المتحدث مع الكلمات التي يقولها تفاعلاً تاماً؛ أثر الأثر الكبير على الحكومة الإنجليزية حتى خفضت العقوبة، والرجل نفسه اختلف في وقت من الأوقات مع "غاندي" وكان يعارض تقسيم

(١) سورة طه، الآية ٧٢

(٢) الدعوة إلى الله، محاضرة لسماحته ١/٩

الهند إلى الهند وباكستان، ولعل نظرتة كانت صائبة انكشفت الآن بعد أن انقسمت إلى شرقية وغربية، فلعله كان يهدف إلى خير من وراء هذا على رغم أن كثيراً من علماء المسلمين حملوا عليه، وهو وإن كان داخلاً في الحزب الوطني مع غاندي إلا أنه كان لا يبالي أن يقول كلمة الحق بكل جرأة أمام غاندي نفسه، فقد اختلف مرة معه، فألقى أبو الكلام أزد خطاباً هز الحزب الوطني هزاً، وما جاء مساء ذلك اليوم حتى قام غاندي نفسه إليه وقال: "هاكم المذنب يعود تائباً لمولانا".^(١)

هكذا يكون تأثير الخطاب، فلا بد أن يكون قادراً على إيصال الحقائق التي يجلبها للناس إلى أذهانهم، ولا بد أن يكون قادراً على التأثير عليهم من خلال كلامه البليغ الذي يخاطب به الناس.

٧. الحوار ..

يقول سماحته مبيناً أهمية الحوار والمناقشة الهادئة: "وقد ظل النبي ﷺ يعرض الإسلام على الناس بحسن الأسلوب وهدوء المناقشة، وسماحة الحوار، ولم يتفك عن هذا المسلك إلى أن قبضه الله إليه، وقد مضى أصحابه من بعده في نفس هذا الطريق"^(٢).

ويقول في معرض الحديث عن مسائل الخلاف بين الأمة الإسلامية: "نحن لا نمنع أن يكون هناك حوار في هذه الأمور التي ربما وقع فيها

(١) السابق ١/٩

(٢) جواهر التفسير ١٤٠/٤ مخطوط

خلاف بين الأمة ، مع حسن الظن بحيث يحسن كل فريق ظنه بالفريق الآخر ، على أن يكون هذا الحوار هادئاً وهادفاً ، لا أن يكون لأجل التشهير أو لأجل غلبة فريق على فريق ، بل عندما تكون النوايا صافية ويكون الهدف واضحاً ، وتكون الغاية هي جمع الكلمة ، لا ريب أن الحوار بهذه الطريقة يؤتي ثماره ، ويؤدي إلى نتائج إيجابية بمشيئة الله سبحانه وتعالى" (١)

والذي يبدو لي أن توجه القوة الغالبة المتحكمة في العصر الحاضر هو إشاعة مبدأ الحوار مع الآخر، وهذا المبدأ حسن في ذاته، وأصيل في أساسه، غير إن كثيراً ممن يصرّفون دقة المدنية بسبب غلبتهم؛ فرضوا على أسس الحوار وجهات نظرهم الخاصة، وأطروه بما يخدم مصالحهم الذاتية، ناهيك عن إغائه البتة أحياناً إذا كان الحوار يعرّي دواخلهم، ويكشف سوءاتهم، ويبين عن مساوئهم، ويفصح عن فضائضهم، ويفضح خطيئتهم، ويظهر مكنوناتهم، ويجلي حقائق مقاصدهم.

لذا كان الاهتمام بالحوار مع كونه مطلباً إسلامياً دينياً، هو مطلب عصري كذلك، وكثيراً ما يشجّع عليه سماحته، قولاً وعملاً، يقول السيابي: "إن الشيخ تعجبه المحاور والمداولة والدليل، فإذا أبدى رأياً ما فقلت له: يا شيخ هذا فيه كذا وكذا والدليل كذا، ينشرح صدره، ويقبل عليك مسروراً، ويدخل معك في حوار هادئ، وهو يشجّع عليه ولا يتبرم منه أبداً، بل يعدّه من السمات الحسنة التي تدل على إطلاع الطالب" (٢) "ومن المواقف الحوارية اللطيفة

(١) لقاء مع الشيخ الخليلي في "واحة المستمعين" الإذاعة العمانية ، بتاريخ ٢١ / جمادى

الآخرة ١٤٢١هـ / ١٩ / ٩ / ٢٠٠٠م

(٢) لقاء المؤلف مع الشيخ أحمد بن سعود السيابي

التي نبّه بها سماحته طلبه العلم في العصر الحديث حواراً مع الشيخ ابن باز، يقول سماحته: في غرة شهر جمادى الأولى من عام ١٤٠٦ هـ سافرت مع مجموعة من مشايخ العلم إلى المملكة العربية السعودية، تلبية لدعوة كريمة وجهها إليّ معالي وزير العدل السعودي، وفي اليوم الثاني ليوم المغادرة من عمان توجّهت مع المجموعة إلى مكتب سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ابن باز، وقد كنا ونحن نسعى إليه تدور بأدمغتنا أمور شتى، تتعلق بالأمة الإسلامية ومصالح المسلمين، نريد أن نبحثها معه، ولكن ما كدنا ندخل مكتبه ويلتقي بنا، حتى دخل بنا إلى حجرة ضيقة، مع رجل واحد من أصحابه فقط والمجموعة التي كنت معها، وهناك ابتداءً يتحدث عمّا سمعته من فتاوي فيما يتعلق بالرؤية، ويتعلق بخلق القرآن، وقال: إنَّ عليكم أن ترجعوا إلى عقيدة الحق، فإنَّ الإباضية والمعتزلة والشيعية والخوارج والأشعرية في مسألة "الأسماء والصفات" هم ضالون مضلون، فيجب عليكم أن تتخلصوا من عقائدهم وأن ترجعوا إلى عقيدة الحق، وأخذ يتهمّ على المسلمين كأنما الحق حصر فيه، وفيمن تبعه على رأيه، وكأن من تحت السماء ومن فوق الأرض، الكل من أهل النار ما عداه وما عدا من وافقه على رأيه. فأجبتة شاكرًا على هذه النصيحة، ثم قلت له: إن هذه القضايا الخلافية لكل أحد فيها حجته، ولكل أحد فيها دليله، والخلاف فيها ليس وليد الأمس واليوم، وإنما هو منذ قرون متطاولة، وما دتم تريدون توحيد هذه الأمة على عقيدة واحدة، فإنني أقترح أن نلتقي في حرم الله سبحانه وتعالى بجوار الكعبة المشرفة، حيث تعقد ندوة لحوار هادئ هادف، بعيد عن كل تشنج وكل انفعال، على أن يكون هذا

الحوار مفتوحاً لكل من أراد أن يحضره، ومفتوحاً لمراسلي وكالات الأنباء الإسلامية وغيرها؛ لنقل وقائه إلى القراء، وأن تنقله إذاعة صوت القرآن بمكة المكرمة، والتلفزيون السعودي، ويسمح لكل إذاعة في العالم ولكل محطة تلفزيون في العالم بنقله عبر الأقمار الصناعية؛ ليكون النقاش تحت سمع العالم ويصره، فأجابني: بأن هذا إشاعة للبدع، وهذا أمر لا يجوز. قلت له: لا، إن هذا قضاء على البدع، فإن البدعة عندما تتضاءل شبهتها أمام حجة الحق، لا يبقى لأي أحد عذر في التعلق بها، فقال: لا، فقلت له: رأيت أن لو جاءك يهودي أو نصراني أو صاحب مبدأ آخر، وجادلك في الإسلام أما كنت توافقه على النقاش العلني؟ قال: نعم، لأن في ذلك دعوة إلى الإسلام. قلت له: وفي هذا أيضاً دعوة إلى الإسلام النظيف الخالي من البدع والشبهات. فقال: إن أصحاب البدع لا ينفكون عن بدعهم مهما كان الأمر. فقلت له: لقد تبين ذلك من موقفكم الآن الذي وقفتموه، وأخيراً بعد أخذ ورد، أصرَّ الشيخ إصراراً على موقفه الراض لما دعوته إليه، فقلت له: إن هذا الإصرار لا يمكن أن يفسر إلا أنه إفلاس من الحجة، وعجز عن إقامة البينة، فإن صاحب الحق لا يكون هيأباً ولا جباناً، بل صاحب الحق يجرؤ على إظهار الحق الذي يعتقد، وخرجت من عنده وهو غضبان، فأعجب لماذا يصبر سماحته على الرفض، إن كان يعتقد ما عنده هو الحق، وما عند غيره هو الباطل؟ ولماذا يشع من وراء الجدر؟ إن حجة الحق يجب أن تكون ظاهرة جلية لا تواربها الجدر، والمناظرة في

مثل هذه القضايا يجب أن تكون ظاهرة؛ لأن المستمع والمُشاهد هو الحكم إذا ما سمع حجة الحق تدحض شبهة الباطل.^(١)

٨. الثواب والعتاب؛

تقدّم أن الله سبحانه وتعالى هو المربي الحق لعباده، وقد وعد الموجهين لسلوكهم في الحياة الدنيا وفق أحكام الشرع الشريف بجنات عرضها السموات والأرض، كما توعدّ المتفلتين من قيود أوامره سبحانه بنار تلظى لا يفنى عذابها، ولذا يعيش المؤمن راجياً من ربه الثواب، خائفاً من العذاب، فبذلك يصبح الرجاء حافزاً على عمل الخير، والخوفُ زاجراً عن عمل الشر^(٢) ويقول سماحته في جواهر التفسير:

"في الآيات القرآنية الواصفة للمؤمنين بالخوف والأمر به، وفي أحاديث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام ما يكفي دليلاً على أن الخوف من الله كرجائه تعالى، من أهم واجبات الدين، فبهما يستقيم أود النفس، وتنزجر عن المعاصي، وتسابق إلى الخيرات وإذا كان النيون أشد خوفاً من الله - كما ثبت في الحديث - فما بالكم بسائر المؤمنين، على أن خوف كل أحد إنما هو بقدر علمه وإيمانه"^(٣)

(١) الرد على فنوى الشيخ ابن باز، محاضرة بجامعة السلطان قابوس، بثها التلفزيون العماني، وهي محاضرة متداولة.

(٢) لقاء المؤلف مع الشيخ أحمد الخليلي

(٣) جواهر التفسير ١٥٨/٣

إن النفس الإنسانية وهي تشقُّ غمار هذه الحياة تعترضها الكثير من العقبات الموهنة عن السير قدماً في طريق الاستقامة، فكان لزاماً على الإنسان مجاهدة نفسه، وتربيتها تربية تثبت بها على طريق الإيمان ماضيةً إلى رضوان الله، ولا شك أن الإنسان بعد تربية نفسه، وتعهدا باستمرار، يمدُّ يده إلى إخوانه المسلمين فيعينهم على الطاعة باتباع هذا الأسلوب من الترغيب في الثواب والتخويف من العقاب، فإنَّ عباد الله تعالى "بمحااجة إلى تربيتهم بالترغيب والترهيب، وإيقاظ الشعور بالخوف والرجاء في نفوسهم، لينشطوا للأعمال الصالحة يباعث الرجاء، وليحاذروا الأعمال السيئة لداعي الخوف"^(١) وبالتالي يعم الصلاح في المجتمع، فإن صلاح المجتمع معين على صلاح الأجيال وعلى استمرارهم في الاستقامة على أمر الله تعالى.

ينبه الشيخ إلى أن أسلوب الترغيب والترهيب متفاوت الأثر في نفوس الناس، وذلك لتباين طبائعهم يقول "والناس متباينون في طبائعهم، فمنهم من هو أسرع تأثراً بالتشويق، ومنهم من يتأثر بالتخويف، ومنهم من يدفعه التشويق إلى المسارعة إلى الخيرات، ويمنعه التخويف من ارتكاب الموبقات"^(٢) ويستفاد من ذلك أن على المربي مراعاة الأسلوب الأجدي في التربية، فقد ينفع الترغيب أحياناً ولا يجدي الترهيب، وقد يكون العكس، ومن الناس من لا يشعر بأهمية ما يخاطب به إلا إذا اقترن بالعقاب، ومنهم من يتغير سلوكه جذرياً إذا ما أثيب على ذلك السلوك ولو بكلمة طيبة، وهذا يدعوننا بإلحاح إلى

(١) جواهر التفسير ١/٢٣١

(٢) السابق ٢/٢٦٣

الحديث عن الثواب والعقاب بوصفهما أسلوباً تربوياً في تقويم السلوك الإنساني، في الحياة الدنيا.

١ - العقاب: ويكون حسياً كالضرب والحبس وما أشبه ذلك، أو معنوياً كالتهديد، والحرمان من المكافأة وما أشبه ذلك، والجامع بين النوعين الأثر النفسي الحاصل منهما، فإن العقاب الحسي لا بد أن يكون له أثر نفسي، وربما كان أبلغ في الزجر من العقاب الحسي، وذلك مما هو معلوم لكل أحد، غير أن العقوبات إنما تأتي بعد فشل محاولات الإصلاح التربوي، يقول سماحته: "ولم تشرع العقوبات المتنوعة في الإسلام إلا لردع الذين يشذون عن منهج الحياة الإسلامية السليم، وهؤلاء هم الذين لم يُجد فيهم الإصلاح التربوي؛ بسبب شذوذ طبائعهم عن الفطرة الإنسانية السليمة"^(١)

وهي مؤدية حتماً إلى صلاح المجتمع الذي يعين الإنسان على إصلاح نفسه، واستمرار استقامته، حين يرى استقامة المجتمع الذي يعيش فيه، يقول سماحته في مشروعية العقاب: "لثلا يجد المجرمون الباب مفتوحاً أمامهم للعبث في الأرض وسفك دماء الأبرياء ... كما شرع لأجل صون الأعراس"^(٢) ويقول: "وليس هو مجرد سياط لازعة، وسيف صارم - كما يحلو للبعض - وإنما هو تربية للضمير الإنساني"^(٣)

(١) جواهر التفسير ٩٢/١

(٢) السابق ٩٣/١

(٣) السابق ٩٨/١

هذا وتتفاوت درجة العقاب بتفاوت الذنب، ويقدر عظم المخالفة، ثم حسب نفسية المعاقب، ومنزلتها من الصفاء والشفافية، فقد يكون العقاب بسيطاً لإنسان سريع التأثر، سهل الازدجار، نادر الخطأ، وقد يكون قاسياً لمن كانت طباعه خلاف ذلك، وكما يقول المتنبي:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضراً كوضع السيف في موضع الندى

ويشير سماحته في معرض حديثه عن تربية الأولاد إلى كيفية استخدام أسلوب الضرب، قائلاً: "الضرب ليس في كل شيء، يوجه أولاً، فإن أصرَّ على موقفه يزجر، ثم بعد ذلك يضرب ضرب الأدب، وهو الضرب الذي لا يبرح ولا يبرح"^(١)

ولا ينحصر الترهيب في العقاب وحده، بل يكون بالموعظة الحسنة، سواء ما يتعلق بالدار الآخرة والموقف العظيم أمام رب العالمين، أو ما يجره سلوك العبد من النتائج السلبية عليه، وعلى أسرته ومجتمعه، وبيان العواقب الوخيمة، وما سيحقيق به من الجزاء من قبل أولي الأمر إن فعل هذا، أو امتنع عن ذلك، وسألت سماحته عن العقاب المالي، كالأخذ من أموال المعاقب فأجاب قائلاً: "لا.. فمال المسلم له حرمة"^(٢)

(١) دور الآباء في تربية الأبناء، رقم ١٨١/أ

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

٢. الثواب: ويكون حسياً كالمكافآت المادية من الجوائز أو الرتب ونحوها، ويكون معنوياً كالثناء ونحوه، فقد يكتفي الطفل الناشئ بقول أبيه له أحسنت، يا بطل، أو يثني عليه أمام أخوته، أو يريت على كتفه.

وقد سألت سماحته عن أخذ الجوائز التشجيعية، أيقده ذلك في إخلاص العبد؟ فأجاب: "الناس يتفاوتون في هذا، فمنهم من يتخذ هذه وسيلة للوصول إلى الخير، ومنهم من يجعلها غاية، فالناس يتباينون بحسب مقاصدهم"^(١)

وإذا اقترن الترغيب بالترهيب كان أبلغ في التأثير لأن الضد يظهر حسنه الضد، وهذا الأسلوب يبدو كثيراً لدى سماحته. ومن شواهد ذلك هذا النص الوارد في جواهر التفسير، يقول:

وما أعظم خسارة من لم تسعه جنة عرضها السموات والأرض، وكان قراره في عذاب لا ينتهي، في نار حامية ليست لأحد طاقة بعدابها، وأما في الدنيا فإنهم لا ييارحهم فيها القلق ولا يفارقهم الاضطراب، فلا يذوقون فيها طعم الطمأنينة، ولا يعرفون راحة الاستقرار، بخلاف المؤمنين المتقين المطمئنة قلوبهم بذكر الله " أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ"^(٢)(٣)

(١) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

(٢) سورة الرعد، الآية ٢٨

(٣) جواهر التفسير ٥١١/٢

٩. الإعلام:

لا ينكر أحد دور وسائل الإعلام المعاصرة بشتى صورها المرئية والمسموعة في توجيه الناس، وتغيير الكثير من أفكارهم، بشتى الأساليب، ولذا كان دوره عظيماً في تربية الناشئة، يقول سماحته: "الإعلام له دور خطير، فإنه الآن - كما يقال - يتجاوز جميع السدود، ويدخل إلى الناس في بيوتهم بدون استئذان، فالإعلام وسيلة خطيرة، هو سلاح ذي حدين يمكن أن يستغل في الخير، ويمكن أن يستغل في الشر، وإن لم يستغل في الخير استغل في الشر، وكانت عاقبته عاقبة سيئة."^(١)

ويقول: "إن الصحافة ملزمة في وسائلها بالموضوعية والجدية، فإن زللها يترتب عليه زلل أفكار لا تحصى، وضلالها يقفوه ضلال عدد كبير من رواد الثقافة ومحبي الوعي"^(٢) ونتيجة لهذا الدور عني سماحة الشيخ في مستهل عمره في إيجاد مجلة إسلامية تبث الفكر الإسلامي، فبعدهما عين الشيخ مديراً للشؤون الإسلامية في عام ١٩٧٥م في وزارة الأوقاف، اقترح على المسؤولين أن تكون هناك مجلة تعنى بالقضايا الإسلامية، فتأسست مجلة الوحي^(٣)

ويضرب الشيخ أمثلة للتربية الفاسدة التي يقدمها الإعلام، والمفارقة الواضحة في مواد برامجها، بل قلبه للحقائق في كثير من الأحيان يقول:

(١) دور الآباء في تربية الأبناء ١/١٨١

(٢) مجلة الوحي العدد ٣٤ الصادر في شهر صفر ١٣٩٩هـ / يناير ١٩٧٩م ص ٧

(٣) لقاء المؤلف مع الشيخ أحمد بن سعود السيابي

١. "قد تفتتح بالقرآن برامج الإذاعة المسموعة والمرئية وتختتم، وما يدور بين الافتتاح والاختتام معظمه حرب على القرآن، وهدم لما شيده"^(١) بل يجمع الإعلام بين تلاوة القرآن والأحاديث، وما بين مسلسلات الإجرام ومسلسلات الفساد بمختلف أنواعها.^(٢)
٢. "ولقد رأيت بعيني رأسي غير مرة في إحدى المجلات، صُوِّرت فيه المرأة عارية وبجانبها راديو سانيو، وقد صُوِّرت تستحم وتستمع إلى الموسيقى الهادئة من ذلك الراديو، بينما صورت راقصة على نفس الصحيفة على صورة شاشة تلفزيون لأجل دعاية لذلك التلفزيون، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب، بل صُوِّرت المرأة وهي مستلقية وكلب أعلاها، وتوحي تلك الصورة أنه يمارس الجنس معها."^(٣)
٣. "هناك ترويج بإعلانات ظاهرة مكشوفة، ثم يأتي سطر صغير دقيق لا يكاد يبصره من يبصر، فيه تحذير من التدخين، ومن الأمور الفاضحة أن تحارب المخدرات إلى حد إعدام من يتجر بها، وفي الوقت نفسه يتم تداول الخمور والتبغ ونشر هذه المفاسد، وضرر التدخين لا يقلُّ عن ضرر المخدرات، فإن ضحايا التدخين أضعاف أضعاف ضحايا المخدرات."^(٤)

(١) جواهر التفسير ١٠/١

(٢) تربية النشء ٢١ / أ

(٣) تشريعات الإسلام للمرأة، الشيخ الخليلي، ص ٣٦، ٣٧

(٤) منهج إصلاح المجتمع، رقم ١٠٤/ج

٤. ومن الأمثلة على سخافة بعض وسائل الإعلام، وسعيها لهدم صرح العقيدة الإسلامية، نشر بعض الصحف في بعض الزوايا ركناً ثابتاً هو "ما تقوله لك النجوم" أو أنت والحظ، وغيره من العناوين، وهي تربية للأجيال بلغت الذروة في الإفساد، يقول سماحته: "نحن نأسف كثيراً أن يكون هذا في بلاد الإسلام، في البلاد التي أكرمها الله تعالى بأن تستظل بظل القرآن، وأن تستظل بمظلة الإسلام، وتستضيء بنور الإسلام وهدايته، فالفروض أن تكون هنالك مراقبة على هذه الصحف لئلا تشر هذا الهراء الباطل الذي ييئث سموماً بين الناس، فتتلفه تلك العقول الحائرة المظلمة البعيدة عن الحق، من أين لهذا الإنسان أن يعلم ما يأتي به اليوم من خير أو شر؟ أو سعد أو نحس؟ أو نفع أو ضرر؟ اليوم محكوم بأمر الله، وما من يوم إلا وفيه الخير وفيه الشر، ما من يوم من الأيام إلا وفيه السعد وفيه النحس، وفيه النفع وفيه الضرر، فلا معنى لتخصيص يوم بسعد ويوم آخر بنحس، وهل هذا اليوم المخصوص بالسعد لا يصاب فيه الإنسان بمرض ولا يموت فيه، بحيث يكون آمناً من الموت أو أن يصاب فيه بمصيبة، ثم إن النظر في هذه البروج والتعلق بذلك، وربط حركة الإنسان بحركة هذه الأجرام الفلكية، بحيث تعدّ مؤثرة على طبيعة الإنسان، هذا قول باطل لا أساس له من الحق، وإنما هو من الأوهام التي زاغت بها هذه العقول الحائرة، وذلك - لا ريب - من تأثير المعتقدات الباطلة، معتقدات المجوس الذين كانوا يعبدون هذه النجوم، ويعتقدون لها تأثيراً في حركات الإنسان

وطبيعته^(١). ويقول مرة: "إنَّ مما يؤسف له حقا أن نرى الإسلام ومثله وعقائده وقيمه وأخلاقه في واد والصحافة التي تصدر في البلاد الإسلامية في واد آخر، هذا يدعوننا إلى البحث: هل هناك خطة مدروسة لشن هجوم على الإسلام من خلال الصحافة التي تصدر في البلاد الإسلامية نفسها؟ أو أن القائمين على مثل هذه الصحافة جاهلون بالإسلام، لا يفرقون بين حلاله وحرامه؟ إنَّ كلا الأمرين محتمل، ولا يبعد أن يكونا جميعا مجتمعين"^(٢)

لذلك يدعو سماحته إلى "أن يكون بجانب الإعلام الغازي من الخارج المخالف في قيمه قيمنا، إعلام مواجه له، لا يعنى إلاً بالتربية الصحيحة"^(٣)، يقول في كلمته بمناسبة افتتاح موقع "المجرة الإسلامية" على الشبكة العالمية للمعلومات: "ولا ريب أن هذه خطوة بناءة في سبيل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وما أحوجنا إلى استغلال جميع الوسائل الحضارية المعاصرة لإيصال كلمة الحق إلى جميع العالم الذي هو أحوج ما يكون إلى من يرشده إلى سواء الصراط، وينقذه من الترددي في هوة الهلاك السحيقة، وهو اليوم على شفا جرف منها.. إنَّ نعمة هذه الوسائل يجب شكرها بتسخيرها لدعوة الحق وإرشاد الخائر، وتبصير الجاهل وإمطة اللثام عن وجه الحقيقة التي يجهلها السواد الأعظم من الناس، وما من ريب بأنَّ ترك استغلالها

(١) سؤال أهل الذكر، تلفزيون سلطنة عمان

(٢) مجلة الوحي العدد ٣٤ الصادر في شهر صفر ١٣٩٩هـ / يناير ١٩٧٩م ص ٧

(٣) تربية النشء، ٢١١ / أ

في الخير يؤدي بأهل الشر أن يشيعوا بها الفساد في الأرض ، وتلك هي الطامة الكبرى والعياذ بالله ، ألا فليتبه أرباب الحجى ^(١) كما يحذر سماحته الآباء من إهمال أولادهم في مشاهدة التلفاز ، يقول : "أما أن يقف الأولاد أمام هذه الشاشة لينظروا ما فيها من خير وشر ، والشر أكثر من الخير ، وما فيها من نفع وضر ، والضر أكثر من النفع ، فإنّ في ذلك تدميراً للأولاد ... فعلى الآباء أن يحذروا على أولادهم من هذه الشاشة بكل ما فيها من غث وسمين" ^(٢)

١٠. اعتقاد السؤال

لقد رسخ في المذهب الإباضي قديماً مبدأ وجوب "اعتقاد السؤال" وهو وسيلة تربوية فاعلة إلى أبعد الحدود في إرساء دعائم الاستقامة في النفس ، والسعي الذاتي إليها ، وقد أولاه سماحته عنايته ، وجلّاه بما سيأتي تفصيله في فصل الحياة العقلية ، ويعينني هنا التنبيه إليه من حيث هو أسلوب تربوي فريد ، بوصفه حركة ذاتية من النفس في طلب الاستقامة على منهج الله تعالى ، فعندما يعتقد الفرد بوجوب السؤال عليه في طلب الحكم الشرعي ؛ فإنه لا يقر قراره إلا بالسعي إلى المعبر أو قل الموجه والمرشد والمربي ، سالكاً أي طريق توصله إليه ، ليعلم ما يجب عليه اعتقاده ، وما يفترض عليه تصوّره ، وما ينبغي عليه أن يقوم به فكره وسلوكه ، إنه تفعيل دائم لدافعية النفس إلى طلب المعرفة ،

(١) موقع المجرة www.almajara.com

(٢) حقوق الأبناء على الآباء ، ١٠٠/أ بمعهد العلوم الشرعية

وتقويم السلوك ، إنه سعي دائم إلى الاستقامة في الدين ، يقول سماحته : " إن معرفة الله سبحانه وتعالى إذا قامت حجتها على العبد لم ينفس له لحظة واحدة ، لأن الإنسان لا يسعه أن يرجع إلى الشك بعد اليقين ، أو يرجع إلى الكفر بعد الإيمان " (١) ويقول في موضع آخر : " حجة الله قد قامت ببعثه الرسل ، وإنزاله الكتب ، وبالسماح الذي وصل إلى آذان الناس بأن هناك ديناً ، فعلى هؤلاء الذين علموا بأن هناك ديناً أن يبحثوا عن الدين ، ومعرفة الله سبحانه وتعالى تقوم عن طريق العقل ، أما جزئيات الأحكام الشرعية فهي لا تقوم إلا بالسماح ، فمن لم تبلغه هذه الجزئيات ، ولم يكن في وسعه الوصول إلى من يبلغه بها ويعرفه بها ترجى له المعذرة " (٢) وعليه من استطاع إلى ذلك سبيلاً فلا يعذر بحال من الأحوال .

بعض التشرية

يولد الطفل عاجزاً محتاجاً لا يقدر على شيء ، مفتقراً إلى أبسط أنواع الرعاية . محتاجاً إلى أرقى أنواع العناية ، وأحوج ما يمكن إلى الإعانة ، فتبدأ أول مراحل التربية ، وهي التربية الجسدية ، لينمو وترعرع عضواً جديداً في مجتمع متكامل بقيمه وأخلاقه ومعتقداته ، ولا شك أن أول بيئة يتلقى فيها الناشئ تربيته هي الأسرة التي كانت السبب في وجوده ، ولذا كان تأثيرها عليه بليغاً عظيماً فهي التي تحافظ على صلاح فطرته أو تفسدها ، وأي أثر أعظم من ذلك ؟

(١) الجملة وتفسيراتها ، ص ٥

(٢) خلاف الأمة في القدر ، ٤٥ / ج

تأتي بعد ذلك البيئات الأخرى التي يعدد سماحته بعضها في قوله: "إن المسؤولية في تربية النشء على مقومات الحياة الإسلامية تقع على عاتق الآباء والمدرسين والمجتمع ، فليبيت دوره، وللمدرسة دورها وللمسجد دوره، وللشارع دوره، فيؤدي الكل وظيفته من أجل تحقيق هذه الغاية وهي استقامة النشء على تقوى الله وعلى العمل الصالح"^(١) وأبدأ بالحديث عن أهم هذه البيئات التي أشار إليها، وهي المحضن الأول للطفل الناشئ، وقد أولى سماحته عناية كبيرة في وضع أسس بنائها، ومنهجية تشكيلها، وأصول تكوينها، لأنها المؤثر الأول والأهم في نفوس الناشئة، والعناية بهذه المؤسسة في حقيقته عناية بمستقبل الأمة؛ لأن مستقبل الأمة معقود بحالة ناشئها، فبقدر ما تكون هذه الناشئة على خير وصلاح واستقامة وِبر وإيمان، يكون هذا المستقبل سعيداً"^(٢)

الأسرة

يرى سماحته أن كل إنسان يرى وجوده مستمراً في عقبه، فيحرص أن يكون هذا الامتداد امتداد خير وبركة، يقول: "ومن أجل ذلك نجد أن الصالحين يحكي الله تبارك وتعالى عنهم أنهم يضرعون إلى الله عز وجل لأن تكون ذريتهم ذرية صالحة مستقيمة على درب الخير، فالله تعالى عندما ذكر عباد الرحمن، ووصفهم بما وصفهم به من الصفات الكثيرة، حكى عنهم فيما حكى قولهم "رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا"^(٣) ويمكن

(١) التحذير من آفات المجتمع ص ٥٧ ، ٥٨

(٢) حقوق الأولاد في الإسلام ٩١/ج

(٣) سورة الفرقان ، الآية ٧٤

بعد ذلك وضع مراحل تأسيس الأسرة المثالية في حياتها الراقية في تربية أبنائها في النقاط التالية:

اختيار الزوجة: ويعد ذلك من أهم الأمور؛ لأن الأم هي المحضن الأول

للطفل. ^(٢) يقول سماحته في بيان تأثير الأمهات: "تأثير الأمهات في الأولاد تأثير بالغ، فرمما انتمى الولد إلى آباء غير صالحين، فسلكت به الأم مسلك الاستقامة، وأقرب مثال إلى ذلك عمر بن عبد العزيز، وأمّه بنت عاصم بن عمر بن الخطاب" ^(٣) وعاصم بن عمر قد تزوج تلك الفتاة التي رفضت بشدة الانصياع لأمر أمّها حين أمرتها ليلاً أن تقوم لتمدق الماء باللبن، فقالت لها: يا أمّاه، إن أمير المؤمنين عمر نهى عن ذلك، فقالت: أين عمر منا الآن؟ إنّه لا يرانا، فقالت الفتاة: إن كان أمير المؤمنين عمر لا يرانا فإن رب أمير المؤمنين يرانا، فلما سمع عمر - رضي الله عنه - كلامها وهو في عسسه الليلي، خطبها لابنه، فكان من نسلها عمر بن عبد العزيز، وآباؤه هم بنو أمية.

وسمعت قصة أخرى رواها الشيخ في إحدى محاضراته، حكى أن رجلاً طلق امرأته وله ابن منها، وبعد سنتين طلب الأب ولده، فرفضت الأم ذلك؛ فشكاها إلى القاضي الذي كان فقيهاً نبيهاً، فسألها عن امتناعها، فقالت: خير الطفل، وانظر من يختار، فقال: إنني اختار أبي، فقالت المرأة: سله، لماذا اختار أباه؟ فسأله، فقال الطفل: إن أبي يتركني ألعب، وأمي تحملني إلى المعلم

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧ / ١

(٢) تربية النشء ٢١١ / ١

(٣) أسس التربية الصالحة ٢١٧ / ١

يدرّسني، فقال القاضي: اذهبي به، فأنت أولى به من أبيه. ذلك هو أثر الأمهات البالغ.

وعليه يرى سماحته أن تربية الأولاد تبدأ من قبل ولادتهم، وذلك باختيار أمهم، يقول: تبدأ العناية بالأولاد من قبل وجودهم، ذلك لأن الرجل يومر بأن يختار المحضن الصالح لأولاده، بحيث يختار المرأة الصالحة التي تكون شريكة عمره، والقائمة على توجيه أولئك الأولاد، في بداية تنشئتهم، إلى طريق الخير والساد، فالحديث "اختاروا لنطفكم فإن العرق دساس" ^(١) أما المقاييس التي يتم على أساسها اختيار شريك الحياة فقد أوردتها الحديث الشريف "تنكح المرأة لأربع" وهذه المقاييس حق للمرأة أيضاً في اختيار شريك عمرها. ويمكن الحديث عنها على النحو التالي:

(١) المال: وقد غزت هذه الشهوة الجامحة قلوب الناس في العصر الحاضر، وتحكمت في عقولهم ومشاعرهم، بعد أن دخلت المرأة سوق العمل، فرغب كثير من الشباب في الوظائف ولو على حساب الدين والخلق، ما دامت تدرّ دخلاً على الأسرة، وإن كانت على أقل التقديرات ستقوم بشراء حاجاتها ومستلزماتها من مالها الخاص، ولذا يحذّر الشيخ من الانغماس في أحوال الجشع في شتى صورته، يقول: "الواجب على الإنسان أن لا يندفع وراء شهواته، وأن لا تغره المظاهر، وأن لا يتحكم به حب الماديات، ولكن يضع

القيم الدينية نصب عينيه ، فيختار المرأة الصالحة التي تعينه على دينه ودنياه ،
وتربي أولاده على الخير" (١)

وهذا الإرشاد يوجّه إلى المرأة أيضاً في اختيار زوجها ، وموجّه إلى
أولياتها للنظر في الوسط الذي يلقون فيه بكرماتهم ، حين يحرصون على تزويج
الأثرياء دون رعاية للكفاءة في أدنى مستوياتها ، فلربما انزلت عجلة الحياة
الزوجية إلى غير قرار.

(٢) الجمال : وهو مخدّر خفي يسري في أوصال الإنسان فيستجيش
مشاعره ، ويصاول اتزانه ، ويناوش رسيس مبادئه ، وربما حاول جاهداً أن يعلل
الكثير من الأمور التي توهم الإقدام على الزواج على أساس مقياس الجمال ،
بعد أن خضعت لسلطته مشاعره ، واستسلمت لقهره إرادته ، وانحنت لجبروته
هامات عزائمه ، مدعياً طلب العفة وصون العرض ، وسلامة الدين ، فعندما
يحبوه الله بهذه الغانية الفاتنة ، لن يمتد طرفه إلى ما متّع الله به أزواج الآخرين ،
قاذفاً وراء ظهره صرخات العقل المدوية ، إنها خضراء الدمن ، حتى إذا نال
منها وطره بدرجة فوق الإشباع ، تاب إلى رشده ، ورجع إلى وعيه ، فرأى جلياً
واضح الملامح ما كان يغشيه قبل من غبش التصور للحقيقة ، من هنا ينبّه
سماحته إلى ذلك بقوله : "لقد حذّر ﷺ من خضراء الدمن ، وعندما سئل ﷺ
قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء" (٣) داعياً الإنسان إلى أن لا يتدفع وراء
شهواته ، فإنّ الجمال زائل لا محالة ، ويبقى الدين والخلق ، وقد أسلفت أنّ

(١) تربية الأولاد ١٠٦ / أ

(٢) أسس التربية الصالحة ٢١٧ / أ.

الخطاب موجّه إلى الجنسين، فكما يحرص الرجل على أن يختار امرأة جميلة تحرص المرأة كذلك على أن تختار الرجل الوسيم، وربما أوقعها ذلك في مغبة عظيمة قاست فيها الوليات مدة حياتها، وتجرّعت فيها الغصص طول عمرها، فقد تتعرف على شاب وسيم، يتسم لها بمحبّ حتى يوقعها في شرائكة المعقدة، فإذا به يستحوذ على قلبها دون أن تعرف خلقه ودينه، ونسبه ومن أي الأصقاع، فتجد نفسها بواقع تلك النظرة العجلى قيد الأسر، ولا غرابة حينذاك أن تلقي له بقصاصة قد كتب عليها "لفت أنتباهي، أرجو الاتصال على الرقم التالي " فسبحان الله الخليم الكريم .

(٣) الحسب والنسب: وهو كل ما يحسب للمرأة، ويعدّها لها مع نسبها الرفيع، ويعتنى بهذا المقياس - في كثير من الأحيان - رغبة في المباهاة والتفاخر، وذلك عند أولئك النفر المتّيمين بحب المظاهر، المفتونين بحب الظهور والتقدمة، فيقال: تحته ابنة فلان، ولو كانت ابنة فلان هذه لا توازن فتيلاً، ولا تعادل نقيراً، وحقيقة الأمر أنّ الشأن كل الشأن في ذلك هو رغبة الأولياء أو رغبة الفتيات حين يخطب فلان من الوجهاء لابنه، أو علّان من الأعيان لنجله، وإن كان ذلك الوجيه وجهه كقفاه، أو تلك العين دمعها سرب، وإن كان الولد لا في العبر ولا في النفير، كالوتد في خمول ذكره، لا يعبا به كاللقا، لا يحرك ساكناً ولا يغني فتيلاً، وصوت الحق سبحانه يصخّ مسامعهم "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ"^(١). وماذا يجدي النسب مع عدم الاستقامة على أمر الله، يقول سماحته في أحد أجوبته: "إن العبرة بالاستقامة على

التقوى لا بالأنساب والأحساب ، فالله تعالى يقول : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم " والنبي ﷺ يقول : " لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى " ^(١).... والنبي ﷺ تزوج من غير العرب ؛ فقد تزوج صفية بنت حيي الإسرائيلية وكانت سبية في غزوة خيبر، ومن هو أعرق نسبا، وأرفع حسبا من النبي ﷺ الذي هو سيد العرب والعجم؟ ^(٢) وذلك لا يعني أن لا يرعى المتزوج أن تكون شريكة حياته، ورفيقة عمره من أسرة أصيلة في الفضل والعلم والصلاح والنسب ، ولكن ليس النسب وحده بمجدد مع فقدان الدين والصلاح.

(٤) الدين: من المعلوم أن النبي ﷺ أوصى أمته حال اختيارهم أزواجهم أن يقدموا الدين على غيره، وعد ذلك ظفراً، ودعا لصاحبه خيراً، لأن صلاح المرأة يعني صلاح الذرية، وصلاح الذرية يعني صلاح المجتمع فالأمة فالإنسانية يقول سماحته : " لا ريب أن استقامة المرأة من أسباب استقامة المجتمع ، فبقدر ما تكون عليه المرأة من استقامة وصلاح واتباع لأمر الله وتجنب لما نهى عنه ، تكون النتيجة في المجتمعات التي يتربى فيها الذكور والإناث نتيجة إيجابية، لأن الأم هي المدرسة الأولى، وإذا كانت تربية الأم تربية سلبية فإن تربية الجيل كله سوف تكون سلبية." ^(٣)

وتستطيع المرأة التي تربت نفسها تربية حسنة، وأدركت أبعاد مسؤولياتها في مملكتها الضخمة أن تسير بقافلة الحياة الزوجية سيراً سليماً، تنأى

(١) رواه أحمد رقم ٢٣٥٣٦

(٢) فتاوى النكاح، الشيخ أحمد الخليلي، دار الجيل، ط١، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م ، ص ٤٧، ٤٨

(٣) تشريعات الإسلام للمرأة ، ص ٩

بها عن المخاطر المحدقة، والمهددات الخطرة، بل باستطاعتها إن فرض عليها الزوج إرادته المناهضة لإرادة الشرع أن تحول حياة الأولاد عن مجرى حياة أبيهم، وحياة ذويهم كذلك إذا كانت حياتهم غير مرضية، فتلك لعمري مسؤوليتها أمام أولادها قبل ربها، يقول سماحته: " والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته، فهي مسؤولة عن تربية أولادها في بيتها، وإسعاد الأسرة فيه"، فإذا عُلِمَ ذلك بدت أهمية حسن الاختيار على درجة كبيرة من الأهمية، ويات عنصر الدين هو الأهم بالنسبة إلى غيره؛ لأنه باق مستمر - بمشية الله - بقاء حياة الزوجين، أما الحطام والجمال، فظلّ زائل، وفقايق تتلاشى، وبهارج تضمحل.

وتجدر الإشارة هنا إلى قضية معاصرة مهمة، تتلخص في مخادعة الصالحين والصالحات أنفسهم في تسويغ اختيارهم في الاقتران بمن لا يتحقق فيه شرط الدين بمفهومه الصحيح، فترضى الفتاة بفتى وسيم، أو ثري أو نحو ذلك، متجاهلة الدين، حتى إذا وضع الصبح لعينيها، وافترقت الخلايا إلى باعث الشهوة المتدفقة، وبدأت الأحلام تتبدد شيئاً فشيئاً، قالت: ياليتني قلّمت لاختياري، فيومئذ لا تنفعها ياليتني، ولا تغني عنها واحسرتاه على ما فرطت، وضرر اختيار المرأة أكثر بكثير من اختيار الرجل، فهي ليس لها أن تستبدل زوجاً مكان زوج ولو آتته قنطاراً إلا ياذنه ورضاه، وقد يقع الشاب الصالح أحياناً فريسة شهوة جامحة، ودغدغة جمال فاتن، وإحداق حسن باهر، فينسى أنه طالما كان جائعاً فشيح حتى لا مزيد، وعطشان فارتوى، ومرهقاً فاستراح، وهكذا تسكن عاصفة الشهوة بعد هيجانها، وتخمّد نارها بعد

اشتغالها، هناك يتذكر الزوج الأولاد، وسعادة الحياة، ولذا يطلق الشيخ التحذير من الانسياق وراء نداء الرغبات الجامحة، ويدعو الإنسان أن يؤثر الدين على كل شيء، فإذا وجد الفتاة المتدينة الجميلة الحسبية الثرية فيها ونعمت، فتلك خير متاع الدنيا، وإلا فلا تفرط في الدين، وليس المقصود هنا الحديث عن الزواج بالمتدينة مع غض الطرف عن باقي الصفات، وإنما المعنى بالكلام أن يؤثر الدين ولا يفرط فيه، وكم هن جميلات أولئك المتدينات جمالاً داخلياً نفسياً وخارجياً، فجمعن أطراف الحسن، وتدثرن برداء الجمال، فتعيش الأسرة في سعادة وهناء لا يعرفها إلا أولئك الذين اقترنوا بمن أذقنهم الويلات بتفريطهن في دينهن

بعد أن يتم اختيار الزوج وزوجه، وينتقل إلى مرحلة التحول من العزوية إلى التأهل، فلا بد من إشهار زواجه، فتأتي مرحلة العقد فالعرس.

الأعراس:

بعد أن يتم العقد ولو بحضور شاهدين يكون الإسلام قد أباح للرجل من امرأته ما لم يبحه له من قبل، من الخلوة وغيرها، ولكل مجتمع عاداته في الاحتفال بهذه المناسبة، غير أن الإسلام يضع ضوابط لسلوك المجتمع بأسره، فضلاً عن الزوجين في احتفالهما بعقدتهما، وقد انتشر في أوساط الكثير من الناس عادة سيئة دخيلة هي لباس الدبلة، بحيث يُلبس الرجل المرأة، والمرأة الرجل، يقول سماحته: "إلباس الرجل للمرأة والعكس في الخنصر اليسرى من يده كل ذلك إنما جاء من الغرب، وهذا مبني على خرافة وهمية لا أساس لها

من الصحة، فالغربيون كانوا في عهود الرومان يعتقدون أن القلب ينبض في الخنصر اليسرى وكانوا يعتقدون أن المرأة إن ألبست الرجل في خنصره خاتماً من حديد أسرت قلبه، وإن ألبسها خاتماً من حديد أسر قلبها، ثم تطوّرت العادة مع مرور الزمن من خاتم الحديد إلى خاتم الذهب، وعندما رمتنا أوروبا بكل عاداتها السيئة ومفاسد أخلاقها تأثرنا بذلك، وإذا بالناس يقلّدون الأوروبيين في هذه العادة، مع أنها خرافة لا أساس لها من الصحة، مع أن كثيراً من الزواج الذي يكون بهذه الطريقة ينتهي إلى الفشل الذريع، وكثير من الزواج الذي لا يكون بهذه الطريقة ينعم الزوجان فيه بالاستقرار والطمأنينة والحياة السعيدة الوادعة الآمنة، وكذلك إحضار الكعكة، وإقام الرجل لزوجته وإقامها له، كلها عادات لا تمت إلى ديننا الإسلامي بصلة^(١) وقال في موضع آخر عن هذه العادات: "وقد فتن بها كثير من مرضى القلوب في بلاد الإسلام (وتعظم في عين الصغير صغارها) وأصبحت من عناوين التقدم، وشارات الرقي، وما هي لعمرى إلا من دلائل التأخر، وشواهد الاغطاط"^(٢)

ومن العادات القبيحة المخالفة لمنهج الإسلام ما يكون عند البعض في تحديد موعد عرسهم، وذلك بأن "يحرص الإنسان أن يسأل عن المنزلة عندما يريد أن يتزوج، فإنّ البحث عن هذه المنزلة أهي مناسبة أو غير مناسبة؟ إنما هو من تأثر هذه العقول بهذه الأوهام والخرافات التي هي موروثه عن هؤلاء الذين كانوا يعبدون هذه النجوم ويقدمونها"^(٣)، أو أنه لا يكون عرسه في صفر أو

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ، إصدار مكتبة مشارق الأنوار.

(٢) كتاب فتاوى النكاح، ص ١١

(٣) سؤال أهل الذكر، حلقة في لتلفزيون سلطنة عمان

بين العيدين الفطر والأضحى، وقد حذر الشيخ من هذه العادات جميعها، قولاً وتطبيقاً فكان عرسه ما بين العيدين، وما هي حياته تسير بحمد الله - على منهج الله سعيدة مطمئنة.

ومن العادات التي بدأت تنتشر في أوساط الناس إلباس العرس ثوباً يعرف عند الناس باسم (فيلي) وهو ثوب أبيض واسع الأطراف، ضيق على الجسم، يقول سماحته عن هذا الثوب: "الثوب الذي يصف لا يجوز للمرأة لبسه، وإرخاء الذيل أكثر من ذراع لا يجوز للمرأة المسلمة"^(١)

وبعد انتقال المرأة إلى بيت الزوجية، فلتعلم ما لها على زوجها من الحقوق، وما لزوجها عليها، ويتصدر ذلك حفظ دينه وعرضه بشتى الوسائل من الزينة وغيرها، يقول سماحته: "تصنع المرأة من الزينة ما تشاء إذا كان ذلك للزوج لا لغيره"^(٢) وحقوق الزوجين مبثوثة في كتب الفقه، ولا حاجة لذكرها هنا.

تربية الأولاد

ليست تربية الأولاد مسؤولية الأم وحدها، ولا الأب وحده، وإنما هي مسؤولية مشتركة بينهما، والدور الأكبر خصوصاً في المراحل الأولى من عمر الطفل يقع على عاتق الأم، يقول سماحته: "ومسؤولية إصلاح البيوت وتربية

(١) سؤال أهل الذكر، حلقة في لتلفزيون سلطنة عمان

(٢) محاضرة لسماحته بنادي الطلبة العمانيين بالأردن

الأولاد يشترك فيها الرجال والنساء، ودور المرأة في هذه المسؤولية دور كبير، فالولد أول ما ينشأ، ينشأ في حضن الأم^(١) ولكن تربية الولد في بعض مراحل عمره تقع على عاتق الأب أكثر من وقوعها في عاتق الأم، وعلى الأب بذلك عدم الاشتغال عنهم بجمع ما يزيد عن حاجتهم في حياتهم الزوجية من حطام الحياة الدنيا، يقول سماحته: "ولكن الولد يخرج إلى أماكن لا تعرف الأم عنها شيئاً، فماذا عساها أن تصنع، فالأب عليه تربيتهم فيما لا يستطيعه الأم، وإن كان الكسب زائداً على الكفاف فعليه أن يهتم بهذه الثروة وهم الأولاد"^(٢)

متهجئة تربية الأولاد حتى سن البلوغ

يمكن تلخيص توجيهات سماحته في تنشئة الطفل وتربيته التربية الصالحة منذ ولادته حتى سن البلوغ في الملاحظات التالية:

- ١- الأذان في مسامعه : يقول سماحته : "بعد الولادة ينبغي أن يقرع مسامعه صوت الحق، صوت الأذان، فيستيقظ ضميره على الحق وأفضل عبادة"^(٣) فيؤذن على أذنه اليمنى وتقام الصلاة على أذنه اليسرى، ليسمع بكلتا أذنيه

(١) لقاء الصحفي الكويتي جراح الشمري مع سماحته بدولة الكويت

(٢) تربية الأولاد ١٠٧/١

(٣) تربية الأولاد ١٠٦/١

صوت الحق، يسمع الله أكبر ولا إله إلا الله، حتى تنفوس في نفسه معاني هذه الكلمات" (١).

٢- حسن اختيار اسم المولود، يقول "ومحسن أن يكون كأسماء الأنبياء والصالحين" (٢). ونبه الشيخ إلى ذلك حين شاع في أوساط المسلمين تسمية أبنائهم بمن يسمونهم نجوم الفن من المغنيين والممثلين، وذلك بواقع تأثير الغزو الإعلامي في بيوتهم، كما تعشق الناس اليوم تسمية أبنائهم بالتسميات النادرة الغريبة، فنجدهم يبحثون، هل سمّي أحد بهذا الاسم من قبلنا، وإن كان ذلك الاسم يثير الشوم، أو ربما استحى منه الطفل وخجل بين أقرانه، وربما نشأ على استقامة فيخجل من اسمه حين يوافق اسماً من أسماء المنحطين خلقياً في التاريخ القديم أو الحديث، أو اسماً يبعث دلالة تغزّل كأسماء البنات، نحو "ناهد" مثلاً، وما أشبه ذلك، لذا كان - حفظه الله - يوصي الناس بحسن اختيار الأسماء لأبنائهم.

٣- تقديم النسيكة في اليوم السابع أو بعيدة، يقول سماحته: وهي أن ينسك الإنسان للمولود بعد بلوغه سبعة أيام، ثم من بعد لا بأس ما بين سبعة أيام وخمسة عشر يوماً، ينسك للذكر بشاتين وللأنثى بشاة واحدة، ذلك من السنة، وقد فعل النبي ﷺ ذلك في السبطين الكريمين" (٣).

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ، وانظر حقوق الأولاد ج/٩١

(٢) حقوق الأولاد ٩١ / ج

(٣) تربية الأولاد ٢١١ / أ

٤ - تعليمه معرفة الله وغرس العقيدة الصحيحة في نفسه ، يقول سماحته :
 " فعندما يعي ويبدأ التمييز ، يولم الوالدان بأن يعرفاه بأن له إلهاً معبوداً خالقاً ،
 رازقاً واحداً فرداً صمداً ، يدبر الكون ، ومنه المبدأ وإليه الرجعى " (١) .
 ثم يعرفانه بنبيه محمد ﷺ ويعرفانه بكتابه القرآن الكريم ، ويعرفانه الإخوان الذين
 يرتبط بهم ، وهم المسلمون ، وعندما تنمو مداركه يعلمانه أركان الإسلام
 الخمسة ، ثم أركان الإيمان الستة " (٢) . ويفرسان فيه العقيدة الصحيحة وصفات
 الله تعالى ، ويعلمانه الصلة بالله ، بحيث يرد كل شيء إلى الله ، لأنه هو الذي
 صرف هذا الوجود ، وهو الذي يمن بالخير على عباده ، وهو الذي يرفع الشر
 عنهم ، ويذكرانه بكل نعمة إنهما من عند الله ، وأنه يجب عليه أن يشكر الله على
 نعمه " (٣)

٥ - تعليمه القرآن الكريم ، ويكون ذلك في سن الدراسة ، يقول سماحته :
 " تعليمه قبل كل شيء القرآن ، وتلاوته وحفظه ، وتفهمه ما يفهم من معاني
 القرآن ، كما يدل على ذلك حديث رسول الله ﷺ علموا أولادكم القرآن ، فإنه
 أول ما ينبغي أن يتعلم من علم الله هو " (٤) ويقول : " خيركم من تعلم القرآن
 وعلمه " (٥) ويفهم معانيه بما يستوعبه ويحتمله فهمه ، ويسعه إدراكه " (٦)

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ ، وانظر حقوق الأولاد ج ٩١/

(٢) تربية الأولاد ١٠٦/أ ، تربية النشء ٢١١/أ

(٣) لقاء الصحفي الكويتي جراح الشمري مع الشيخ الخليلي

(٤) الجامع الصحيح ، الإمام الربيع بي حبيب ، رقم ٣

(٥) رواه البخاري رقم ٤٧٣٩ ، وابن حبان رقم ١١٨ ، وأبو داؤد رقم ١٤٥٢ والترمذي

٢٩٠٧ ، وابن ماجه ٢١١ ، وغيرهم



٦ - اجتناب هجر الكلام: يقول سماحته: " على الوالدين أن يسعيا جهدهما أن يجنباه هجر الكلام - أي قبيحه " (٢) فلا يسبانه ولا يشتمانه بالكلمات البذيئة " (٣) كأن يقولوا له: يا حمار، وأنت حمار لا تفهم، وأنت كلب لا خير فيك، ومالك غبي هكذا، أو أيها الخسف، بمعنى البليد الذي لا يحسن التدبير، فإنه يتعلم منهما هذه الشتائم، ثم يقوم بدوره بإسقاطها على الآخرين، فضلاً عما تركه من أثر سيء في نفسه، فيشعر بالإحباط، ويحسّ بنوع من الاشمئزاز من أسرته، فيكثر الخروج، وهنا تتلقفه الفئات الضالة، ويجرفه التيار. إن للكلمة لأثراً لا يدرك كثير من الآباء مداه، ومن ذلك دعاء الوالدين المتكرر عليه؛ حين يضيق ذرعهما بتصرفاته، وعند العمانيين نسمع العوام وأشباههم

(١) حقوق الأولاد ج/٩١، أسس التربية الصحيحة ٢١٧/١، تربية النشء ٢١١/١.

(٢) حقوق الأولاد ج/٩١

(٣) تربية النشء ٢١١/١

يوجهون الكثير من الدعوات إلى أبنائهم، مثل: الله يقرعك قرعة - الله يصرفك - طفر من قبالة وجهي - علك ما تشاف... الخ

٧ - غرس العادات الحميدة والقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة ليتربى عليها، ويعتادها، حتى تصبح سجية من سجايها، وخصلة من خصاله، ويحث سماحته الآباء في مواطن كثيرة على "غرس الأخلاق الفاضلة، والمعاملة الحسنة، ففي الحديث: إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبفضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون، وقد كان خلقه ﷺ القرآن كما أخبرت السيدة عائشة بذلك" (١) وفي لسؤال وجهه إليه صحفي من الكويت عما يحرص سماحته على زرعه في أبنائه، أجاب سماحته: "أنا دائماً أحرص على نصحهم بالأخلاق الفاضلة، وأن يوقروا الكبير، ويرحموا الصغير، وأنصحهم بأن يحرصوا على طلب العلم، وأن يسعوا من أجل السباق فيه، قدر المستطاع." (٢) ومن أهم هذه القيم التي ينبغي غرسها في الطفل:

- عادة الصدق في الحديث، واجتناب الكذب فقد سمع النبي ﷺ امرأة تقول لولدها: تعال، فقال لها: ماذا تريدان أن تعطيه؟ فأخبرته، فأخبرها بأن لو لم تعطه لكانت في حكم الكاذبين (٣)
- توقير الوالدين والبر بهما، وحقوق الأرحام (٤).

(١) أسس التربية الصحيحة ٢١٧/أ،

(٢) لقاء الصحفي الكويتي جراح الشمري مع الشيخ الخليلي

(٣) تربية الأولاد ١٠٦ / أ ، حقوق الأولاد ٩١/ج

(٤) تربية النشء ٢١١ / أ

- الأمانة، وعلى الوالدين أن يعظّما من شأنها^(١).
- الرحمة بالمساكين، والرفق بهم، والرفق بكل المستضعفين.
- الرفق بالحيوان.
- الإحسان إلى الجيران، وأن لهم حقوقاً بالغة، ولو كانوا على غير الإسلام.
- إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم^(٢)
- التقزز من معاصي الله ظاهرها وباطنها^(٣)
- السخاء في سبيل الله، وحب الخير للإنسانية كلها، والأمة الإسلامية على الخصوص^(٤)
- القناعة وعدم الطمع فيما بأيدي الناس^(٥)
- الحياء والعفة، فإنه شعبة من الإيمان، كما جاء في الحديث، ومن لا حياء له لا إيمان له. ويفرس به الحياء من الله فلا يعصيه، والحياء من حرمات الناس أن ينتهكها، والحياء أن يأتي بشيء من المعاييب.
- إن سُلّم القيم كبير، وتجدد الإشارة هنا إلى أهم وسائل غرس هذه القيم، حيث يشير سماحته إلى ثلاث منها:
- تحديثه عنها وتحبيبها إليه.

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ

(٢) تربية النشء ٢١١ / أ

(٣) تربية النشء ٢١١ / أ

(٤) تربية النشء ٢١١ / أ

(٥) أسس لتربية الصالحة ٢١٧/أ.

- القدوة العملية في الوالدين.
- وضع المسائل العلمية فيها^(١) بعد ذلك تأتي المتابعة الحثيثة لمدى التزامهم بهذه الأخلاق ، يقول سليمان ابن الشيخ أحمد الخليلي : إن الشيخ يتابعنا كثيراً ، ويراقب سلوكنا بدقة متناهية ، وكثيراً ما يستدعينا ، فإذا طلب أحدنا رأينا في وجهه الغضب ، فجميعنا يسترجع ماضيه كله ، ويتهياً للنقاش ، وحتى عمي حمود لما استدعيه والذي يحسب حساباته كلها ، أما نحن فقد يصل الحال بنا إلى بعض الضربات الساخنة الشديدة أحياناً ، ولا يقتصر المقام على مجرد القول أو التوجيه.^(٢) ، ولا أدل على ذلك من قصة ابنه الذي غير ذلك الطفل عند سكونه بعد مرحة الزائد ، فعزّر الشيخ ولده وطلب منه التوبة.

وسأخصّ وسيلة التربية بالقدوة بالحديث - فيما بعد - نظراً لأهميتها من ناحية ، ولتأكيد سماحته عليها كثيراً من ناحية أخرى ، يقول سماحته : "على الآباء والأمهات ، وعلى المدرسين أن يهتموا كل الاهتمام أن يكونوا هم القدوة لهؤلاء الأولاد إلى الأوج الشامخ"^(٣)

ويقول : ومما يجب على الأبوين في تربية الأولاد أن يحرصا دائماً على طهارة اللسان ، بحيث لا يتعرّضان لأعراض الناس ، بحيث ينعتان الناس ويذكران مساوئهم ، حتى لا يتأثر الأولاد بذلك فيقلّدوا آباءهم ، وكذلك

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ.

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن أحمد الخليلي.

(٣) تربية الأولاد ١٠٦/أ ، أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ.

النعيمة أو احتقار الناس وما هو فساد من القول^(١) ومن الأمثلة على ذلك، أن يدخن الأب أمام ابنه، فإنه يتعلم منه السلوك السيء، ومن ذلك أن يرنّ جرس الهاتف؛ فيقول الأب لابنه رد عليه، وقل له: أبي غير موجود، بل يحترز الآباء أن يعدوا أولادهم بشيء لا يحققونه لهم، إذ يتصور الطفل أن أباه يكذب عليه، أو يخدعه إلا أن يبدي لهم عذره في تقلب رأيه، وما اعترضه من الظروف التي تحول بينه وبين تنفيذ وعده؛ حتى لا يسجلوا عليه خيانة أو إخلاقاً للوعد.

٨ - تعليمه الصلاة وما لا تتم إلا به من الطهارات، وآداب قضاء الحاجة والغسل من الجنابة، ومن الحيض للصبيّة، كما يعلمانه التفرقة بين الأركان والسنن في الوضوء، ويكون ذلك في سن السابعة، وعندما يتوانى عن ذلك يزرجه من غير ضرب، حتى يبلغ عشر سنوات، فعندما يقصّر في الصلاة بعدها يضربانه، ففي الحديث "مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع" وهذا الأمر للوجوب، والطفل إن لم يتعود على الصلاة قبل الحلم وجد مشقة فيها بعد الحلم^(٢)

٩ - المحافظة على العبادات: وفي مقدمتها إقامة الصلاة، فيأخذ الوالد أولاده إلى المسجد، وعليه أن يخبرهم وهم صغار أنه ذاهب إلى المسجد للصلاة، فتتعلق قلوبهم بالمساجد.^(٣)

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ

(٢) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ، تربية النشء ٢١١/أ، تربية الأولاد ١٠٦/أ، حقوق الأولاد ٩١/ج.

(٣) تربية الأولاد ١٠٦/أ، حقوق الأولاد ٩١/ج.

١٠ التفريق بينهم في المضاجع: وذلك عندما يبلغ الأولاد عشر سنين، يقول سماحته: "التفريق في المضاجع لعشر سنوات بين الذكور والإناث؛ بحيث لا ينامان في غرفة واحدة، وقال بعض أهل العلم يفرّق بين أفراد الجنس الواحد، بحيث يكون بينهم فاصل^(١) وقال في موضع آخر: هذا التفريق على قسمين بالنسبة إلى الجنس الواحد، الذكور وحدهم، والإناث وحدهن، ثم التفرقة بينهم في المضجع الواحد، بحيث لا يُترك الذكر مع الذكر، ولا الأنثى مع الأنثى^(٢) أمّا بالنسبة إلى الذكور والإناث فإنهم يفرّق بينهم في الغرف التي ينامون فيها، فلا ينام الذكر والأنثى معاً في غرفة واحدة بعد بلوغ عشر سنوات، لأنّ هذه المرحلة مرحلة استيقاظ الغرائز في الأولاد، وهي مرحلة صعبة جداً، وقد يدفع كل من الذكر والأنثى إلى ما لا تحمد عاقبته.

وقد ذكر الشيخ - حفظه الله - دليلاً واقعياً من حياة الناس يبيّن خطورة عدم المبالاة بهذا الخلق الإسلامي الرفيع، يتلخص في قضية رفعت إليه عن أخت تنام مع أخيها في غرفة واحدة، مما أدى الأمر إلى أن تحمل الأخت من أخيها، فكم هي الفاجعة أن تفقد الأم فلذتين من كبدها، ثم تستمر ذكرى المأساة في حفيدها، ابن ابنها وابن بنتها، تعاني تربيته بدموع تذرف، وقلب يتفطر، وكبد تحترق، وتستمر الذكرى ما بقي شاباً وكهلاً، حتى يرحل عن الحياة الدنيا، فكم هي المأساة في فجاعتها، وما يتصل بهذا أن يحرص الآباء

(١) تربية الأولاد ١٠٦/أ

(٢) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ

على الابتعاد التام عن كل ما من شأنه أن يثير غرائز الأولاد يقول سماحته :
على الآباء الابتعاد بالأولاد في هذه المرحلة عن كل ما من شأنه أن يثير الغرائز،
ويؤجج الشهوات ^(١)

ويجب الاحتراز من تأثير وسائل الإعلام عليهم ^(٢) لما تنفته من سموم،
فتتك بالأخلاق، وتدعو إلى هتك الأعراض، خصوصاً بهذا الزمن الذي
تعددت فيه القنوات الفضائية، إضافة إلى شبكات الإنترنت ذات المواقع الخليعة
المالئة، وكم شاهدت صغاراً في سن المراهقة يتهافون على هذه المحطات، دون
رقابة من أولياء أمورهم، ولا من المجتمع الذي يسعى فيه تجار الفساد إلى ضرب
أساسات صروح الأمة بمعاولهم القاسية، حين يذرون بذور الفساد في نفوس
الناشئة الصغار، وهم في عفويتهم لا يدركون خطورة الأمر، ولا النتائج
البعيدة لهذه السلوكيات الخاطئة، إلا بعد أن يكون قد فات الأوان، ويتجرع
الناشئ العظائم، فله الأمر من قبل ومن بعد.

١١ - تعليم الأولاد العلوم النافعة التي تقرهم إلى الله تعالى زلفى، والعلوم
التي تنفعهم في حياتهم الدنيا ^(٣) ويعرف الناشئ بسير الصالحين من الصحابة
والتابعين، وقادة المسلمين المستقيمين، ليتعلق بسيرهم ويحذو حذوهم، ومن
الناحية التخصصية يوجّه إلى التخصص الذي يتلاءم مع ملكاته ورغباته، ولا
يهمل الجانب الفقهي، فإن الإنسان مهما كان تخصصه العلمي، واختصاصه

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/١

(٢) حقوق الأولاد ٩١/ج

(٣) حقوق الأولاد ٩١/ج

العملي، عليه أن يعبد الله على بصيرة، ولا تكون العبادة مستقيمة إلا بالفقه مع دين الله.^(١)

١٢ - تعويدهم على الصيام، مع تعليمهم حكمته وأحكامه ونواقضه^(٢) ويقول سماحته: "عندما يكون قادراً على الصيام، فعلى أبويه أن يعوّده على الصيام في السابعة، أو الثامنة، أو التاسعة."^(٣)

١٣ - تعويدهم على تحري الحلال في مطعمهم وملبسهم، فالغذاء الحلال عنصر مهم في تربية الولد التربية الصالحة التي تسير على منهج الله. يقول سماحته:

١- أن يحرص الأبوان على الغذاء الحلال في أنفسهما؛ لأجل أن يقتدي الولد بهما في ذلك، وأن يفرسا في الأولاد كره الحرام والاستهزاء منه، حتى لا يطمعوا في شيء من المحرمات"^(٤)

٢. أن يعوّده على الحلال الطيب، ويعلماه أن البقاء على الجوع والظماً خير له من أكل الحرام،^(٥) فيختار الطعام الحلال، ويبيّن له أن الحرام يفضي به إلى النار^(٦)

٣ - فللغذاء الحلال دور مهم في استقامة الطفل على السلوك الحسن، وذلك حين يترى على القناعة وترك الطمع، خاصة عندما يرى أبويه على

(١) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ

(٢) تربية النشء ٢١١/أ، حقوق الأولاد ٩١/ج

(٣) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ

(٤) أسس التربية الصالحة ٢١٧/أ

(٥) تربية النشء ٢١١/أ

(٦) حقوق الأولاد ٩١/ج

ذلك يقول سماحته: "لقد كانت المرأة في السلف تمسك بتلابيب الرجل

وتقول له: اتق الله في مكسبك؛ فلا تطعمنا الحرام" (١)

١٤- تجنب الأولاد رفقاء السوء، يقول سماحته: "على الآباء أن يجنبوا أولادهم رفقاء السوء، وهي من أهم الواجبات، وعلى الأب أن يتابع ذلك ويراقبه" (٢) وما ذلك إلا للأثر البالغ من القرين على قرينه، فكيف إذا كانت الرفقة في مجموعها سيئة، فمهما يكن الولد صالحاً، فإن إدمان الطرق الخبيث على قلبه لا شك أنه سيوهنه، فيفتح أبوابه للشرور، ولو كان شيئاً يسيراً منها سرعان ما تستفحل؛ فتصبح جحيماً لا يطاق.

١٥- الاستئذان: وهو سياج منيع للأسرة المسلمة، يحميها من الكثير من الشرور، يقول سماحته: "وقد أحاط الإسلام الأسرة المسلمة بسياج يمنع تسرب أي تلوث إليها، مثال ذلك نظام الاستئذان وهو يضبط الحياة الأسرية ضبطاً محكماً" (٣) ويقول في موضع آخر: "على البالغين أن يستأذنوا في مطلق الأوقات، الاستئذان العام... فإن رؤية الطفل لأبويه في بعض الحالات التي تكون بينهما قد تسبب ردة فعل نفسية وعصية وخلقية في نفسه، كما يقرر ذلك علماء النفس... ودخول الناس فجأة من غير استئذان في بيوت غيرهم، مما يسبب الريبة، ويجرّ إلى الفساد، فقد تسلط أبصارهم على عورات النساء، والنظرة وإن كانت عابرة، فإنها قد تترك أثراً لا يستهان به في النفس، فيجرّ إما

(١) تربية الأولاد ١٠٧/أ،

(٢) حقوق الأولاد ٩١/ج.

(٣) جواهر التفسير ١٠١/١

إلى الانطلاق من قيود الفضائل والأخلاق، أو إلى آلام نفسية وأمراض عصبية^(١)

١٦- تعويدهم على معالي الأمور، يقول سماحته: " من الأمور التي تجب على الآباء خاصة، تعويد الأولاد على معالي الأمور.^(٢) كما يعودونهم الترفع عن السفاسف، وكل ما لا يليق بالأبي الحر الكريم، ويضربون لهم المثل من أنفسهم، فالرجل لا يخلو بالمرأة الأجنبية، ويغضُّ بصره، والمرأة تجتنب كل ما من شأنه إثارة الرجل بالحلي والطيب ونحوه، فينشأ الولد في كنفها عالي الهمة، مترفعاً عن السخافات، نائياً بنفسه عن التفاهات، ومعاني السمو تجوب في دمائه.

١٧. العدل بينهم، وذلك من الفروض على الآباء^(٣) يقول سماحته: " يجب على الوالدين العدالة بين الأولاد بحيث لا يؤثر الوالد ولداً على آخر، ولا يقدم ذكراً على أنثى في العطاء، بل يعدل بينهم حسب الميراث، فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال: إني نخلت ولدي كذا، وأريدك أن تشهد على ذلك؛ قال له ﷺ: أكملْ ولدك نخلت مثله، فقال: لا، فقال: لا تشهدني في جور" وقال بعضهم: يعدل حتى في القَبَل، وتفضيل بعضهم على بعض يربي الحسد والبغضاء

(١) السابق ١٠٣/١

(٢) تربية الأولاد ١٠٦/١

(٣) حقوق الأولاد ٩١/ج.

والتشقي^(١) وإذا أراد الأب إهداء أبنائه، فإنه يبدأ بالبنت ثم بالابن حتى يجبر خاطرهما... أما العطاء فللذكر مثل حظ الأنثيين؛ لأن الذكر ينفق في الجهاد والديات والأروش، ويتحمل تبعات الحياة الأسرية، ودفع الصداق، ويوفر المسكن والضيافة. ^(٢)

١٨- تجنيبهم الترف، وتعويدهم على خشونة العيش، يقول سماحته: "إنّ هذا الجيل هو الذي يعقّد عليه الأمل بأن يكون جيل الإسلام والإيمان، جيل المسجد والقرآن، جيل العمل الصالح والخلق الفاضل، جيل الاستقامة على طريق الخير، طريق الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان، حتى يكون ما تصبو إليه الأمة من العز والتمكين، أمراً ميسراً - بمشيئة الله تعالى." ^(٣)

فإن عاش هذا الجيل عيشة ترف لا شظف، وليونة لا خشونة، فماذا هو صانع في آمال أمته وفاعل في دفع آلامها. بل يعود على الملابس الخشن وعلى الطعام الخشن، وأن يبعده والداه عن الرفقاء المترفين، لما لذلك من أثر على نفسيته " ^(٤) فلم يذكر الله الترف إلا مقروناً بالشرّ، والترف يفضي غالباً إلى الميوعة والانحلال، فعلى الآباء أن يربّوهم على التحرر من قيود المدنيّة، ويربّوهم على الشدائد ومواجهتها " ^(٥)، ويقول: "إنّ الترف هو مصدر كل

(١) تربية الأولاد ١٠٦/أ، حقوق الأولاد ٩١/ج.

(٢) تربية الأولاد ١٠٦/أ

(٣) تربية الأولاد ١٠٦/أ

(٤) حقوق الأولاد ٩١/ج

(٥) تربية الأولاد ١٠٧/أ

بلاء ، ومنشأ كل ضلالة ، وسبب كل انحراف ، فالترف مقرون بالتلف ، تلف الأخلاق ، وتلف القيم ، وتلف الفضائل ، وتلف العزة ، ولذلك لم يذكره الله تبارك وتعالى إلا مقرونا بالشر... والمترفون هم الذين يقفون في وجوه المصلحين في كل عصر من العصور ، فإن الله تبارك وتعالى ذكر معارضة الإصلاح ومحاربة المصلحين ، وأشار أن منشأ ذلك من الترف ، فقد قال سبحانه: "فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ" (١) (٢) وكم يجهل الآباء أو يهملون تربية أولادهم على هذه الصفة الراقية ، والسمة الرفيعة ، فجد الأب أو الأم على السواء لا يكاد يبكي طفلهما رغبة في شيء حتى يسارعا إلى تلبية رغبته ، بأكثر مما يحلم أو يتمنى أو يرغب ، فتطمح نفسه إلى المزيد ، حتى يبكي على ما في أيدي الآخرين ، وتتأصل في نفسه صفة الطمع و الأنانية ، وربما أشفق الوالدان على ابنتهما أو بنتهما أن تقوم بما في مقدورها من الأعمال في المنزل ، وربما كانا مشغولين بما هم فيه من شواغل الحياة الدنيا ؛ فيكثران من شراء الألعاب يشتى أنواعها وأشكالها ، فيعيش الطفل عيشة كسل وخمول ، بل إن كثيراً من ألعابه أحياناً لا تجدي ولا تنفع غير قتل وقته وإلهائه عن مضايقتهما ، إن التربية الخشنة تنفع ولا تضر ، وتصلح ولا تفسد ، وهكذا كان شأن الأبطال في التاريخ ، ما تربوا على الخنوع والاستكانة ، والترف الذي يفت الأعصاب ، ويقتل العزائم ، ويخمد الشكايم ،

(١) سورة هود ، الآية ١١٦

(٢) تصحيح مفاهيم خاطئة ، ١١٨ / ١

ويورث النفوس الجزع من مفارقة النعيم، ولله در أسماء فيما روي عنها حين كانت تترك ولدها عبدالله وحيداً في الصحراء بعد الغلس، ليعود بمفرده إلى البيت، أو لم يقل النبي ﷺ "أخشوئنا فإن النعم زائلة لا تدوم".

- المربي أنيق الحيات

قد تكون في البيت مربية أجنبية، بسبب اشتغال الوالدين بوظائفهما، وقد يكون ذلك ترفاً وتنعماً، ويوكل إلى هذه الخادمة مهمة تربية الأولاد مع سائر الأعمال الأخرى عند ذوي الدخل المحدود بالنسبة إلى أولئك الذين يجعلون لكل مهمة في البيت خادمة خاصة، إن ذلك في حقيقة الأمر تخلٌ كبير من الأبوين عن رعاية أولادهما، لعرض زائل، وأهم ما تركه هذه التربية على الأولاد ثلاثة آثار سلبية:

١- الأثر النفسي في الطفل: إذ ينشأ مفتقداً بدرجة كبيرة حنان أمه، يقول سماحته: "ليس حنان الأم كحنان المربية،" ^(١) بل كثيراً ما تقسوا عليه فتزول به العقاب لأنفه الأسباب، وربما لما تركته الغربة في نفسها من ضيق لا تكاد تحتمل معه أذى الأطفال ومعاكستهم لإرادتها، أو سوء معاملة الأسرة لها، فينال الطفل جزاء والديه، إن تلك المعاملة السيئة تترك أثرها البالغ في نفس الطفل، فينشأ مفتقراً للحنان، يعامل الناس على ما نشأ عليه من الغلظة والقسوة، وقد أصبحت جبلةً في نفسه يستعصي علاجها.

٢- الأثر الديني: يقول سماحته: إن كثيراً من المربيات غير مسلمات ويفرسن في الأولاد المفاهيم والقيم غير الإسلامية، فينشأ بعيداً عن طاعة الله^(١) ولا تؤمن أن تغذي الطفل بمعتقداتها وأفكارها، وعندما تكون مسلمة يحذر منها أيضاً، فقد تكون غير مأمونة في دينها، فليس كل من انتسب إلى الإسلام يكون مأموناً في دينه^(٢) ومن الآثار الخلقية المناهضة للدين، التبذل والاختلاط، والملابس الفاضحة، وعدم الاحتشام، وربما استدرجت الخادمة الأولاد الذين يشارفون سن البلوغ إلى الرذيلة، والعياذ بالله.

٣- الأثر اللغوي، يقول سماحته: "من حيث اللغة قد تعود الخادمة الطفل على أن يتحدث بلغة مكسرة عندما تكون أعجمية، وهذا هو الغالب^(٣) مضافاً إلى أن العرب كانوا يخرجون أولادهم إلى البادية لتعلم الفصاحة واللغة.^(٤) والأمر المضحك المبكي، وشرّ البلية ما يضحك، أن تترك هذه الخادمة أثرها اللغوي على الأبوين أنفسهما، على مسمع ومرأى من الطفل، فيرضى الوالدان أن يكسراً لغتهما، ويقبلان لها المحل الدون، دون محاولة النهوض بمستوى الخادمة إلى الفصاحة؛ فلا تعجب أن تسمع منهما "ثلاثة

(١) تربية الأولاد ١٠٦/١

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

(٣) لقاء المؤلف بالشيخ الخليلي

(٤) تربية الأولاد ١٠٦/أ

يوم- ما فيه موجود- أو أنا فيه روح بعدين أنت فيه تعال- أنت ما فيه معلوم- أنت فيه كلام... فأى عار حلُّ بالأمة؟! ١١

النزواج المبكر

من الحقوق التي تجب على الآباء لأبنائهم تعجيل زواجهم، وتبكير إحصانهم، والمسارة إلى إعفاف نفوسهم، وإعانتهم على إكمال نصف دينهم، بكل ما أتوه من استطاعة، وعليهم أن لا يتعللوا بعلل أوهى من خيوط العنكبوت؛ ليستروا على أطماعهم بما يقدر في عقيدتهم، ومن ثم يلقون بأولادهم في أحوال الفساد، أو جحيم الأمراض، لذا كان من حق الأولاد على آباءهم تزويجهم عندما يبلغون الحلم، وإلا أدى ذلك إلى أمراض نفسية وعصبية، أو تحطيم الأخلاق^(١)

ويمكن إجمال الحديث في ذلك في النقطتين التاليتين :

١- ضرورة الزواج المبكر: يقول سماحته: "إن الزواج المبكر استجابة للفطرة، فالرجل والمرأة إذا بلغا سن الرشد وجدا ميلا في نفسيهما إلى الزواج، فضلا عن الغريزة الجنسية، وهو وسيلة لإكمال النقص الذي يشعر به أحد الجنسين في نفسه، وتكميل للنوع الإنساني؛ فالرجل يكمل نقصان المرأة، والمرأة تكمل نقصان الرجل، والزواج مودة ورحمة، ففيه

(١) حقوق الأولاد ٩١/ج

بذلك استجابة لمطالب الروح وراحة للنفس، وراحة الجسم، واستجابة لمطالب الجسم من الغريزة" (١)

ويقول سماحته أيضا :

" إن الإسلام حثُّ على الزواج والتيسير فيه ، يقول تعالى : " وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ " (٢) فالقضية قضية عقيدة ، فالإنسان يعتقد أن الله هو الرزاق ، ومع تقوى الله ، والاتجاه إلى الله تُحلَّ كل المشكلات . ولقد أطلعت على الكثير الكثير من القضايا التي لا تحصى ولا تعد ، من قبل فتيات غرر بهن ، فلم يتزوجن زواجا مبركاً ، أدى الأمر إلى وقوعهن في الفاحشة ، وغير واحدة اتصلت بي وهي تبكي ، لأنها فقدت عذريتها وهي تخجل من الزواج لذلك ، فضلا عن اطلاعي على الفظائع والفواحش والأمور العجيبة ، وعلى الشذوذ والانحراف في الجنسين ، فالقضية خطيرة والعفة تكون بالزواج الشرعي " (٣)

٢ - دعوى تأمين المستقبل : يكون أحيانا من شدة حب الآباء للأولاد ، وأحيانا من غزو الفكر المناهذ للعقيدة الإسلامية لعقول الشباب ، يقول سماحته : " إننا نسمع كثيراً من الشباب العازفين عن الزواج يقول أحدهم : أنا لا أتزوج الآن حتى أؤمن حياتي ، هل يستطيع أحد أن يؤمن حياته وهو لا يدري متى يأتيه الموت ؟ هل يستطيع أحد أن يؤمن حياته وهو لا يدري متى يجتاح ثروته الفقر ؟

(١) تربية الأولاد ١٠٦/أ ، وبه حديث إذاعي في الرد على الباحثة الاجتماعية

(٢) سورة النور ، الآية ٣٢

(٣) تربية النشء ٢١١/أ

هل يستطيع أحد أن يؤمن حياته وهو لا يدري متى يقضي على صحته المرض؟
هل يستطيع أحد أن يؤمن حياته وهو لا يدري متى اللحظة التي تلي اللحظة
التي هو فيها كيف يكون فيها؟ وماذا يصيبه فيها؟

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم^(١) وربما
كان المستقبل هو إكمال الدراسة التي ربما كانت وبالا على المرأة حين يفوتها
القطار، ويلوِّح لها المسافرون. حينها ترتفع حرارتها فتقوم بتبريد وهجها بهواء
تلك الشهادات يقول سماحته: "هذه مناشدة إلى كل الآباء، إلى كل أب يؤمن
بالله واليوم الآخر، ؟ إلى كل أب يخشى أن يمثل بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم
القيامة، وقد حمل أوزار ابنته التي جاءت بما جاءت به من الفحشاء بسبب سوء
تصرفها، هذه مناشدة إلى كل الآباء أن يتقوا الله سبحانه وتعالى في ذلك، وأن
يسارعوا إلى تزويج بناتهم بأيسر الصدقات"^(٢) ويقول في موضع آخر:

"أكرر بأنه يجب على الآباء أن يراجعوا أنفسهم، الذين يعضلون بناتهم
عن الزواج، فإن ذلك ليس من الإسلام في شيء، فالله تبارك وتعالى يقول في
المطلقات: "وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"^(٣)

هذه موعظة من الله توجه إلى من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا
تنحصر هذه الموعظة في المطلقات، بل الفتيات غير المطلقات عندما يردن الزواج

(١) ندوة الفقه الإسلامي ص ٦٥٩

(٢) دور الآباء في تربية الأبناء ١٨١/١

(٣) سورة البقرة، الآية ٢٣٢

ويعنهن أبواهن من ذلك، يكون هولاء الآباء غير مستجيبين لداعي الله، وغير مؤمنين بالله واليوم الآخر، لأن ذلك ليس من شيمة المؤمن بالله واليوم الآخر، والله تبارك وتعالى عندما وعظ عباده هذه الموعظة، أكد وجوب المسارعة إليها بقوله تعالى: "وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"^(١) ففي ذلك الصلاح وفي غيره الفساد"^(٢) ويقول أيضاً منفراً من عضل الفتيات: "ولكن قارفن آية معصية فإن إثم ذلك يعود عليهم معهن، لأنهم الذين دفعوهن إلى المعصية"^(٣)

ترويج الكفء

فإذا جاء الخاطب الكفء لا يردّ أيّاً كان العذر في ذلك، يقول سماحته: "من الأمور التي يجب مراعاتها هو عدم رد الخاطب الكفء، تحت تأثير الطمع"^(٤) ويتشكل هذا الطمع بأشكال مختلفة، ويلبس لبوساً متنوعاً، فمن ذلك مثلاً: حبس الفتاة المعلمة لاستغلال راتبها في مصلحة الأسرة، بل أحياناً لمصلحة الأب وحده، وربما أنفق أموالها في مخازيه ومبازله، فيجمع العار من ناحيتين، لأنه عاجز وفاسد، وكم فتاة تجاوزت سن الفتوة والجمال، وكتب الدهر على وجهها خطوط الذبول، وكم من فتيات متراكمات في بيت واحد، هذه مديرة مدرسة، وهذه معلّمة، وتلك ممرضة، فلا تلك تقدر على إدارة

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٢

(٢) دور الآباء في تربية الأبناء، ١٨١/أ

(٣) وفتات حول الزواج المعاصر، محاضرة لسماحته، تسجيلات مكتبة مشارق الأنوار

(٤) تربية الأبناء ١٠٦/أ

شؤونها ، ولا تلك أنقذها علمها ، ولا الأخرى استطاعت تطيب نفسها
وعلاج مشكلتها ، فمن لهن يا ترى!؟ .

ومن جشع الآباء المغلاة في المهور ، ووضع الشروط القاسية أمام الخاطبين
، البيت وما أدراك ما البيت!؟ فيه كيت وكيت ، وتتحاشاه لعل وليت ؛
ولأمها كذا ، ولإخوانها كذا ، ولأخواتها كذا ، فمن للكفاء يعينه على
النفقات!؟ .

من حقوق النساء الحرة في اختيار أمرواجهن:

مما يدركه كل أحد اختلاف العصور ، ودوران عجلة التطور في العصر
الحاضر بسرعة ، حتى يكاد أن تلحظ بوضوح مدى التباين بين فكر هذا الجيل
والجيل الذي قبله والذي بعده ، حيث تفرز القوى المتصارعة على قيادة العالم
وتوجيه البشرية الكثير من الآراء والنظريات والأفكار التي تكاد أن تطال كل
شيء في حياة الناس ، تزعزع ثوابتهم ، وتزلزل قيمهم ؛ فتختلط عليهم الأمور ،
إنه عصر بالغ التعقيد ؛ لذا كان لزاماً على المسلم الواعي أن يدرك مدى ما
أفرزته هذه التقلبات من نتائج في الحياة العامة ، بحيث لا يمكن أن يسيطر رأي
أب عاش عصراً مختلفاً له ظروفه وأحواله على رأي الابن الذي عاش عصراً
مختلفاً تماماً ، ومن ذلك اختيار الأب زوجة ابنة حسب مقياسه ، ورفض تلك
التي اختارها الولد بنفسه ، وارتضاها لتكون شريكة حياته ، وكذلك الفتاة
يفرض عليها أبوها الزواج برجل ما قد يكون ابن عمها أو ابن خالها ، أو
مقايضة شغاراً . أو أنها حُجِرَت له منذ ولادتها ، وقد حظر عليها الزواج بغيره
، أو غير ذلك من المقاييس التي لا تكاد تعدُّ ولا تحصى ، ولذا يحذر الشيخ

الآباء من هذا السلوك بقوله : "ليس للآباء منع أولادهم من اختيار أزواجهم ، كما ليس لهم منعهم عن الجهاد ، أو طلب العلم ، أو تكليفهم ما يدفعهم إلى العقوق"^(١). وقد عمل بذلك الشيخ مع أبنائه ، يقول ولده أفلح : إن أبي لا يتدخل في مسألة اختيار أزواجنا ، ولا يفرض رأيه علينا"^(٢)

وإذا خالف الأولاد آباءهم في هذه القضية فليس ذلك من العقوق في شيء ، يقول سماحته : "مما ينبغي تفاديه من قبل الآباء والأمهات أن يفرضوا على أولادهم أن يتزوجوا نساءً معينة ، هذا الشيء كثيراً ما يؤدي إلى سوء معاملة تلك المرأة ، وتكون هي الضحية التي يتزوجها المرء بإكراه ، فينبغي أن لا يفرض على الولد إلا من اقتنع بها بنفسه ، كما أن البنت لا يفرض عليها أن تتزوج إلا من اقتنعت به بنفسها ، فعندما يُفرض عليها زوجاً لا تحبه ، كثيراً ما يشقى بها الزوج وتشقى هي به ، وهذه من أخطاء الوالدين في حقوق أولادهم ، ونظراً إلى أن تزوج الرجل بالتي لا يرغب فيها ولا يجبرها يؤدي به إلى التقصير في حقوقها ، والتقصير في الحقوق أمر غير جائز ، فإن مخالفة الأبوين في ذلك . لا تعدّ معصية ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا يكلف الإنسان مالا يستطيع"^(٣)

(١) حقوق الأولاد ٩١/ج

(٢) لقاء المؤلف بالشيخ أفلح بن أحمد الخليلي

(٣) حقوق الأولاد ٩١/ج ، وانظر فتاوى النكاح ص ٤١٣ ، ٤١٤

الصدّاق للفتاة وحدها:

إن الفتاة التي تعاني عضل أبيها قد يكتب الله لها النجاة من بين برائن أطماعه، وعتمات أفكاره، وما تكاد تلامس قلبها تباشير فرحة موافقته على زواجها حتى يقذف بأحجار العثرات في طريقها، غلاء المهر، وتعدد الطلبات، فإن صمدت لصمود خطيبها في وجهه، وشدت من أزرها في تجاوز هذه المحنة، حين تعده برجع معظم المهر، حتى تصطدم بجشعه الفظيع، وطمعه في التهام مهرها، إلا ما يتساقط من فتات قليل من بين أصابعه، وما حيلتها، وهي الضعيفة المسكينة؟ وهو حاميا وحارس مصالحها، وراعي منافعها، ما حيلتها وهو صاحب الأمر والنهي؟! والحل والعقد؟ إلا أن ترفع أكف الضراعة إلى القاهر الجبار، الودود الرحيم، الجواد الكريم سبحانه، أن يجعل حياة أسرتها كفافاً، وأن يخفف وطأة الهموم على قلب زوجها حتى لا ينظر إليها نظرة شوم، نظرة من أدخل الفقر والهموم في حياته، ديون تتراكم، وغموم تتعاضم، والأب يسرح ويمرح، ولا يختلج في خلدته إحساس بذنب، ولا تأنيب ضمير، أن يرى ابنته تحت مستوى الفقر، تكابد شظف العيش؛ لأن زوجها دفع الطارف والتلديد، ولم تنل منه زوجه إلا اليسير، وربما تبدد الحلم السابق في سماء مطاعم الأهل، حلم عودة بعض الشيء من الصدّاق إلى الزوجين الذين كابدا الأمرين في سبيل إنجاح حياتهما، فهل يسأل الآباء أنفسهم، أحلال ما أكلوا أم حرام؟!

لذا يطلق الشيخ صرخة مدوية، تصك أذان الأولياء أن ليس لهم من

الصدّاق شيئاً، فليتقوا الله في وليّاتهم، وليقللوا من مهرهن. يقول :

لا يأخذ الأب من مهر ابنته شيئاً إلا إن سمحت له ، كلُّ أولى بماله ، لا يأخذ الوالد من مال ولده إلا عندما يحتاج ويضطر ، أما إذا لم يكن مضطراً فلا يأخذ من مال ولده إلا إن سمح له الولد ، والصدّاق أولى به البنت ، فالله تبارك وتعالى يقول : " وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً " (١) ولم يقل آتوا أولياء النساء... فما للأب من مهر ابنته شيء " (٢)

إن الإسلام لم تفرط أحكامه في شيء ، " مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ " (٣) وما يكسبه العبد من كسب يجزبه " فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ " (٤) ومما يدعو إلى العجب حقاً ، أن يبيح الإنسان لنفسه الأخذ من مهر ابنته ، لكونه ربّاه منذ صغرها وأنفق عليها ، فيما تحتاجه من مطعم وملبس ، أيذهب ذلك كله هباءً ؟ عجا لأولئك الذين انحصر همهم في الحياة الدنيا ، وانحسب تفكيرهم في إطار محيطهم الضيق الفاني ، إلى أي مدى أصبحت نظرات الناس متعلقة بالمادة ؟ ! وإلى أي مدى بلغ بهم انحطاط الفكر ، وضعف الإيمان ، وقساوة القلوب ؟ يقول سماحته : " ولئن كانت العرب في جاهليتها ترى من العار أن يثري الرجل من وراء الدية التي ينالها

(١) سورة النساء ، الآية ٤

(٢) دور الآباء في تربية الأبناء ١٨١ / أ

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٣٩

(٤) سورة الزلزلة ، الآيتان ٨ ، ٧

بسبب العفو عن قاتل قريبه ، فإن هذا العار أعظم وأعظم أن يحرص الرجل على أن يثري من وراء تزويج ابنته ، كأنما يبيعها بيعاً وهي بضعة منه " (١)

عنوس الفتيات:

هذه المشكلة تتحول في الواقع المعاصر إلى معضلة تستعصي على الحلول ، ما دمنا نرفض تقبل الرضا المطلق لتشريعات الإسلام ، والاستسلام التام لأمره وأحكامه ، كنت أود قبل شروعي في مناقشة هذه القضية من وجهة نظر الشيخ الخليلي وما يفكك به معضلات هذه القضية من حلول تتأصل جذورها ، كنت أود القيام بدراسة بيانية لفئة عشوائية من الفتيات غير المتزوجات اللاتي بلغن بوابة العنوسة أو دونها ، بسؤال بسيط في إجابته عميق في دلالاته ، وهو هل تقدم لخطبتها أحد من الرجال حتى الآن؟! لأصل إلى نتيجة معروفة قبل الاستبانة ، وهي الإجابة بنعم ، إذ يبدو أن كل الفتيات تقدم لهن خاطب ، ولكن العوائق التي تصطنعها الفتيات أو أولياؤهن هي التي حالت دون انتقالهن إلى رياض الزوجية ، ليصلن إلى قاعة الانتظار المفتوح.

إن الذي يشعر بعمق المأساة بالدرجة الأولى هن الفتيات العوانس ، ثم من وهبه الله قلباً فطرياً سليماً ، وإدراكاً واسعاً ، ووعياً عميقاً ، وإحساساً مرهفاً ، وغيره شديدة على دين الله ، وحباً للآخرين كما يحب الخير لنفسه ،

(١) وقفات حول الزواج المعاصر ، محاضرة لسماحة الشيخ الخليلي ، إصدار مكتبة مشارق

وقد رأيت من الأنسب في مناقشة هذا الموضوع أن أجعله في علاقات ثنائية بين مصطلح العنوسة وسببها الذي يبطلانه يكون حلها.

١- العنوس وجشع الآباء: لا شك أن جشع الآباء في تحديد المهور يتصدر قائمة الأسباب المفرزة لهذه الظاهرة، يقول سماحته: "من أسباب العنوسة حب المادة والجشع في نفوس الآباء في المهور، والمهر خاص بالمرأة، لقوله تعالى: "وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً"^(١) ولم يقل وأتوا أولياءهن، والمهر ليس مقياساً لقدر المرأة علواً ومخطاطاً، بل عليه أن يزوج الكفاء عندما يأتيه خاطباً"^(٢)

من الواضح أن النص المتقدم يشخص السبب الأول في غلاء المهور، وعندما يبحث عن الدافع إلى هذا الغلاء نجد من ذلك:

١- طمع الأولياء: حين يستولي الأب على النصيب الأكبر-غالباً- من مهر ابنته، ليعيش في لذة ونعيم، بينما تعيش ابنته في شقاء ونكد على الأكثر، فإن الحالة الاقتصادية للسواد الأعظم من الناس تتراوح بين المتوسطة والضعيفة. ولذا ينبه الشيخ إلى أن الآباء ليس لهم من مهور بناتهم شيئاً إلا عن طيب نفس منها، وأجر تربيتها مدخر له عند الله، ليوفيه إياه في يوم هو في أشد الحاجة فيه إلى الثواب، يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، يوم يعرض الظالم على

(١) سورة النساء، الآية ٤

(٢) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ، إصدار مكتبة مشارق الأنوار.

يديه ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء توذّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً.

٢- جعل المهر مقياساً لمكانة المرأة وعلو قدرها ، والحق خلاف ذلك ، ولو كان مقياساً لكانت بنات النبي وزوجاته أولى النساء بذلك ، مع أنه ﷺ لم يتزوج نساءه ، ولم يزوج بناته إلا بأيسر الصدقات ، فمن هذه التي تنافس في علو قدرها أمهات المؤمنين؟ وبناته ﷺ؟ وقد يكون ذلك لبيان مكانتها الاجتماعية ، فهي ابنة شيخ القبيلة أو أحد رجالها المعدودين ، أو ابنة الثري الغني فلان ، الذي بسط نفوذ المادة وقهرها على الفقراء والمعوزين ، فهل يقبل المجتمع زواج ابنة فلان الفلاني بمهر يسير؟! كلا... فرضاء المجتمع مهم جداً ، لأنّ الإنسان اجتماعي بطبيعته ، أمّا الله خالق الخلق ، وباسط الرزق ، جبار السموات والأرض ، فرضاه أمر موجل ، بل يفكر فيه الرجل الجشيع بعد إرضاء غروره وجشعه ونهمه ، فسبحان الله الحليم الكريم.

٣- مباحاة الآخرين في صدقات الفتيات ، إذ كثيراً ما نسمع في أوساط الناس ، لا أزوّج ابنتي ، أقل من فلانة بنت فلان ، أو ليست ابنتي بأقل من فلانة ، أو أريد أن أعرف بني فلان حين رموا ابنتهم بذلك المهر ، أو ابنتي ليست رخيصة حتى أرميها بهذا المهر ، وكلها أقوال أوهى من خيوط العنكبوت ، نسجت على عقول عشش فيها

الجهل ، وفرخ فيها الغرور ، وحين تترسّخ في أوساط الأولياء مثل هذه الترهات فماذا ستكون النتيجة؟ وفي أي حال يكون المجتمع؟ إن الذي يدفع الثمن هو المجتمع نفسه ، والثمن سيكون باهضاً ، من محق البركات ، وشيوع الفساد ، وانتشار الكراهية والبغضاء ، فضلاً عن الأمراض النفسية والعصيبة.

٤- تأمين مستقبل الفتاة ، وذلك على افتراض أن الأب عفيف من حيث أخذ صداق ابنته ، فإن الدعوى المرفوعة هنا هي أن الرجل غير مأمون ، فقد يطلق الفتاة ، ولذا عليها أن تستثمر هذه الأموال أو تحتفظ بها في أي شكل من أشكال المحافظة على الثروة ، فإذا خانها وقذف بها دون مبالاة كانت قد احتاطت لنفسها ، ويومن سير حياتها سيراً مرفهاً ، ولكن الآباء هنا لم يدركوا أنّ غلاء المهر هو أحد أهم الأسباب التي تولد كراهية الزوج لزوجته في مستقبل الحياة ، ولذا يتولد لديه شعور داخلي بالكراهية لها ، والنفور منها ، بعد أن يشبع غريزته منها ، ويشعر بالعجز عن سداد ديونه ، وها هي تذكره بين الفينة والفينة بكارثته ، وكلما مدّ بصره إليها وجدها ترفع شعار " أنا السبب " ، ولربما فقد صوابه فقال لها " اغربي عن وجهي .. كنت فبنت . أو ليس الأولى تيسير المهر لتسعد حياتها؟ وهل الأفضل لهذا الفتاة أن تؤمن مستقبلها بالمال أو بالاحتفاظ بعرش الزوجية ؟ هل الأفضل أن تعيش بعد ذلك عانساً وجيوبها

متمثلة بالنقود أو تملاً جيوبها وخلاياها بحب زوجها لها، وتعيش هانئة مستقرة؟.

لهذه الدوافع - من وجهة نظري - غلت المهور، ولذا عجز الشباب عن خطبة الفتيات، وجاوزت السن المرغوب، ودخلت إلى ساحة العنوسة، تنتظر الفارس المتقد، حينها ربما قدّمت التنازلات، كل التنازلات، ورضيت بمن هو أقل من ينتظر لمثلها.

العنوسة

كثيراً ما يكون مهر الفتاة منفصلاً عن ملحقاته، أو شروط إتمام الزواج؛ وغالباً ما تكون الشروط الملحقة قصصاً لفقر ظهور الأزواج، وربما كانوا هم أنفسهم يسعون إلى حتفهم بظلفهم، إنها متطلبات الحياة المترفة؛ الحياة التي ينبذها الإسلام، ويدعو المسلم إلى تنزيه نفسه عن التورط في شباكها، والتلطيخ بأحوالها، يقول سماحته: "من أسباب العنوسة، المباهاة والترف، ومتطلبات الزواج، وكثرة الشروط: منها المسكن المترف، والأثاث الفاخر، والسيارة الفاخرة، والكثير الكثير من ذلك"^(١)

ومما يؤسف له كثيراً أن تصدر مثل هذه الشروط ممن يتمسحون بسيرة السلف الصالح، ويلبسون لبوس الاستقامة، ويعدون أنفسهم من قادة الإصلاح الاجتماعي، والمنافحة عن دين الله، وإن تعجب فعجب صنيع بعض

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ، إصدار مكتبة المشارق.

هؤلاء النفر مع إخوانهم الصالحين، ممن يدعون أنهم على شاكلتهم، وقد يكون ذلك الشاب في مستهل حياته الوظيفية، بعد أن أفنى طرفاً من شبابه يبحث عن مصدر كسبه، في حياة اختلط فيها الحابل بالنابل، وفقدت أدنى معاني التكافل الاجتماعي، ومقومات الحياة المستقرة، ولديه إخوة وأخوات، ينفق عليهم جزءاً كبيراً من دخله، يشترط عليه صاحبه المخلص، وأخوه الوفي، الذي أكل معه الخلو والمر، أن يكون لوليته، لأخته أو ابنته بيت فيه كذا وكذا، ويخاطبه بلهجة الممتن عليه، لا تحسب أننا نقبل بأي بيت، كما لا تحسب أننا نوافق على الزواج بتسكينها مع أهلك، هيهات ثم هيهات، نريد بيتاً يكون على مقدار أختنا أو بنتنا، أو على قدرنا، نعم على قدر البيت الذي تربت فيه، مسكين ذلك الخاطب أتي من مأمنه وكان حذراً، لذا يناشد في أخيه معاني الأخوة، ويستعطف فيه الضمير الذي قد كبر عليه العقلاء أربع تكبيرات، ولكن، على من تقرأ زيورك يا داود؟! ومن العجب الذي يضحك الشكالي، ويُطرب الحزاني، أن يدعي أولئك النفر الوعي الإسلامي، والاهتمام بالدعوة وشؤون المسلمين، وينعتون زيدا وعمراً بمن تشرت نفوسهم معاني الإسلام بضيق الأفق، وانعدام الوعي، أو ليسوا حقاً قد انقلبت في أدمغتهم المفاهيم، واضطربت في عقولهم حقائق الأشياء، وتبدلت عندهم الأصول؟ سبحانك تفعل ما تشاء، وتصنع ما تريد.

وليت البيت وحده، إنها قائمة طويلة، من أنواع الأثاث والسيارة، والهدايا التي تعم جميع أرحامها، من يصلها في حياته ومن لا يصلها، إنها فرصة العمر، فإياكم ثم إياكم أن تفوت.

قد يكون هذا من ناحية أهل الفتاة ، وربما كان أحياناً من ناحية الزوج نفسه ، الذي يرى أنه لا بد من توفير مسكن راقٍ يليق بمقامه ، إنه خاطب فلانة ، أو إنه فلان صاحب البيت الفلاني ، ألا توافقين عليه يا فلانة؟ إنه صاحب البيت الذي فيه وفيه ، ترف ويزخ ، ونسيان للأخرة ، يقول سماحة الشيخ عن الترف: "إن الله تعالى ما ذكر الترف إلا مقروناً بالشرّ، فعلى المسلمين أن يقنعوا؛ فإن الدنيا دار زائلة، والدار الآخرة هي دار البقاء والخلود، فالاستكثار من حطام هذه الحياة الدنيا، والحرص على مباحة الآخرين، ولو كان ذلك على حساب القيم والفضائل والأخلاق يؤدي بطبيعة الحال إلى الانغماس في المهالك والخطر وتعقيد الحياة"^(١)

ومما يزيد القضية تعقيداً ما انتشر في أوساط من يشكّلون القدوة للناس ، حسب نظرات البسطاء من الناس ، وهي التفاخر والمسابقة في فخامة المسكن وسعته ونقوشه ، وإن كانت دعوى التوسعة في المسكن ، والنظرة المستقبلية عند تزايد عدد الأولاد مقبولة ، فهل النقوش والفسيفساء وما وراء ذلك مما قد يبيّن شيئاً متواضعاً لرجل مستقيم لا تسمح له الهيموم الليلية أن ينام إلا قليلاً ، هل ذلك أيضاً ينسجم مع هذا التعليل ، إن ذلك يلقي بظلال كثيفة على نفوس الآخرين الذين قدّر الله عليهم أرزاقهم ، ويولّد الغيرة في نفوس أزواجهم وأولادهم ، مما يدفع بالكثير منهم تحت وطأة هذا الشعور إلى الانجراف في هذا التيار ، وتعمُّ بذلك البلوى ، فيصبح أمر بناء البيت بهذا المستوى شاقاً على الكثير من ذوي الدخل المحدود ، فيقع بين ناري الإقدام والإحجام ، والإقدام

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ ، إصدار مكتبة المشارق.

هنا يستهلك مدخراته لمدة سنين، مما يعني عزوفه عن الزواج لتأمين هذا البيت، وعزوف الشباب عن الزواج مفضى إلى العنوسة بلا ريب، وليت هؤلاء تصدقوا بشيء من هذه المبالغ التي ينفقونها في زخارف بيوتهم على خاصتهم أو أشقاء أرواحهم من ذويهم الراغبين في الزواج؛ فساهموا بذلك بشيء عظيم عند الله في القضاء على هذه الظاهرة، ولا يحقرها من المعروف شيئاً، ولكن أين نحن من ذلك، واحسرتاه.

ومما يستطرف من وقائع بعض الشباب فيما يتعلق بزخارف البيوت، أن أنهى تعمير بيته ولم يرغب في الزخارف والنقوش، واكتفى بتحقيق الهدف الأساسي من بنائه، وهو المأوى والستر، مهما طال به العيش فإنه راحل لا محالة، فجاءه الهندي المختص بتركيب النقوش يعرض عليه ذلك، وزين له الصفقة، وعدد له أسماء الناس الذين زخرف لهم في بلده، فشكره الشاب ورده بالحسنى، وأخذ ذلك الهندي يتردد عليه، يعرض له بأسعار منافسة كما يقولون، قال الشاب: فاضطرت أن ألقى على الهندي محاضرة باللغة العربية المكسرة، بدأت فيها بمآسي الهند، وما يعانيه المسلمون هناك، معرّجاً على مآسي المسلمين في أفريقيا السوداء، وهجمات التنصير بسبب الفقر، وما يكابده الفلسطينيون من هجمات اليهود الشرسة، ناهيك عن الفقر المنتشر في البلاد العربية، والهندي يردد بين الفينة والأخرى: صحيح صحيح، فلم يعد إليه بعدها، فليت أولئك سلكوا مسلكه.

ومن النوادر الطريفة في عدم الاغترار بالأثاث الفاخر، وفي نقد الواقع أن أحد الشباب المستقيمين ذهب مع زوجته لزيارة صاحبه من الشباب

المتدينين، فلما دخلت الزوجة الصالحة إلى داخل البيت، واستقبلتها صاحبتهما، أدخلتها إلى المجلس النسائي، بأثاثه الفاخر وستائره الأوفر، وبقية المرأة مندهشة لما ترى حولها من أعاجيب الحياة التي يعج بها البيت، وبقية شاردة في ذهولها، أفي حلم أنا أم يقظة؟ أهد رجل مستقيم أم ماذا؟ في أي مكان أنا؟ وما كادت تنتهي الزيارة وتركب في سيارة زوجها، صرخت في وجهه، أهذا الشاب الذي زرنه مستقيم حقاً؟ فقال زوجها: هدني من روعك، ما بالك؟! قالت: أنتم تحدثون الناس عن الزهد والتقشف، وعن القبر وما بعد القبر؟ كيف أجمع بين هذا الكلام وما أرى؟ قلت هيناً لها ولزوجها حين أكرمه الله بخير متاع الحياة الدنيا، المرأة الصالحة، ولم يتليه الله كما ابتلى بعض الشباب الذين كلما زار أحدهم صاحبه خرجت زوجته بطلباتها، نريد ستائر مثل ستائرهم الحريرية، وإذا زار آخر، قالت: نريد خزائن كخزائن المنقوشة، ومثل كذا وكذا... ف سبحان الله الحكيم.

إن ذلك هو ما يساهم به الترف في تعقيد قضية العنوسة، ولو كانت الأمور على غير ذلك لأصبح أمر الزواج ميسوراً، ولاستراح الشباب والمجتمع والأمة.

العنوسة وولائم الأعراس

ومن الأسباب التي ترهق كاهل الشباب، وتؤخر إقدامهم على الزواج وبالتالي عنوس الفتيات ما يمارسه الكثير من الناس في أعراسهم من الإسراف في الولائم التي تنهكهم وتعب من بعدهم، حيث ينجل أمام مجتمعه أن يكون

أقل من أولئك، وربما دخلت المباهاة بين بعض البيوتات التي تعتدّ بنفسها ، وقد تکرّست هذه العادة في بعض القرى والمدن، حتى أضحى خلافها متعذراً، والخروج عليها في عداد المستحيلات السبع" ولذا يحذّر من ذلك سماحته ؛ فقد ذكر في تعداد أسباب العنوسة، قائلاً : من أهم أسبابها "نفقات الزفاف، مع أن الله تعالى نهى عن الإسراف ، وجعل المبذرين من إخوان الشياطين"^(١) فهناك قطعان من الأغنام، وقطعان من الأبقار تساق إلى المذبحة، وشحنات مترادفة من الفاكهة، وأخرى من الحلوى في ليلة الزفاف، ذلك إن لم يكن في إحدى الفنادق الراقية التي تعادل نفقات الصلاة منها مع الحفلة صداق المرأة، والأمر الشرعي خلاف ذلك كله، أولم ولو بشاة، فالقصد الإشهار للزواج، ولكنها العادات التي ما أنزل الله بها من سلطان، والتقاليد الزائفة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولو ملك الشباب شجاعة التحدي ؛ لغيروا سير المجتمع إلى الخير والصلاح، كما غيره أولو الأهواء والنزعات إلى الشرّ والفساد، وإن يكبر المرء جهود المصلحين فإنه يكبر جهود أولئك المتضامنين من الذين ابتكروا العرس الجماعي ، في يوم واحد، نسأل الله أن يبارك في جهودهم.

العنوسة وتأمين المستقبل

لقد تقدّم الحديث في هذا الموضوع في حال الحديث عن الزواج المبكر بوصفه حقاً للأولاد على آبائهم ، ويؤكد الشيخ أن من أسباب العنوسة هو عزوف الشباب عن الزواج بحجة تأمين المستقبل، والمستقبل ليس بيد أحد من

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ ، إصدار مكتبة المشرق.

البشر، يقول سماحته: "من أسباب العنوسة شيوع نظرة تأمين المستقبل أو إكمال الدراسة، والمستقبل بيد الله، لا بيد الرجل ولا المرأة، والأرزاق من عند الله وهذه النظرة تقليد للذين يقيسون الأمور بمقياس المادة."^(١)

يضع الشيخ يده على موضع الداء لدى كثير من الشباب، فهم في الحقيقة وإن أكدوا أنهم يؤمنون أن المستقبل بيد الله، وأن الأمور بقضاء وقدر، وقد تجري المقادير بغير ما يتصورون، بل بما لم يدر في خلدكم، غير أن سلوكهم في الواقع خلاف ذلك، وهو في حق المرأة - وعلى ما يبدو - أوضح منه في الرجل، فمن أين للشباب بالصدقا إذا كان يعتمد فيه على نفسه؟ ومن أين له بتلبية تلك القائمة من متطلبات الزواج، حتى يطمئن على مصدر رزقه، ولو وعى الآباء ووعت الفتيات أن الله يعين كل من طلب التقوى والعفاف، لما وجدوا غضاضة أن تسير أمور الحياة في أبسط حالاتها، فإن الحياة في أصل وجودها بسيطة عقدها الإنسان، سهلة صعبها الإنسان، ميسورة عسرهما الإنسان، وماذا عليهم لو تركوها على بساطتها، أيخافون غضب الرب عليهم سبحانه وتعالى؟! كلاً، وها هم يودعون كل يوم حبيبا إلى المقابر، وينقلون عزيزاً من بين أهله وذويه إلى بيت الوحدة، مفارقاً نعومة الأرائك إلى خشونة التراب، إن في ذلك للذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولتحليل كلام الشيخ وبيان بعض أبعاده، يمكن القول، إننا لو سرنا مع هؤلاء الذين آمنوا مستقبلهم، أيقدرون على تأمين بقائه على حاله، ودفع الكوارث عنه؟ إن التاريخ القريب والبعيد يشهد على تقلب الأيام، وتبدل

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ، إصدار مكتبة المشارق.

الحالات، فكم من الملوك أمسوا في السجون، هذا إن سلموا من القتل، وكم من أصحاب الجاهات المخدّمين أصبحوا يتكفّفون الناس، وكم من الأثرياء أضحووا عالة على غيرهم يعيشون على نوال المحسنين، فهل أمن المستقبل عند هؤلاء مما حاق به؟ أو لا يحرص العقلاء على تأمين مستقبل الدين والعرض والشرف بإحصان أنفسهم عن الانحراف؟ أو ليس تأمين الدين من الأذى أولى من تأمين مستقبل الحياة الدنيا الفاني؟ لا محالة أن الذي حافظ على دينه، واتقى ربه، كفاه الله أمر دنياه.

والله تعالى يأخذ عباده بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، ولكن قست القلوب، فأتى لبصيص الذكرى أن يتسرّب إليها، وقد جعل الله في القصص والحوادث عبرة لأولى الألباب، فمن حوادث الدهر، ما صنعه القدر بالمعتمد بن عبّاد ملك إشبيلية، فقد كان مترفاً أيام ملكه، وذات مرّة أطلّت امرأته الملكة من شرفة قصرها في يوم ماطر، فرأت بنات الفقراء، حافية أقدامهن يمشين على الطين، وبأيديهن القرب يستقين الماء، فاشتتت أن تمشي على الطين مثلهن، فأمر المعتمد من يعجن المسك والكافور والعنبر بأنواع الطيب، ويملأ فناء القصر بتلك العجينة، ووشّيت لها قرية بالحرير والذهب، وخرجت حافية مع بناتها، يطأن على طين العنبر والكافور، فلما ذهبت دولته وأصبح سجيناً في أغمات، وحلّ بأهله الذل بعد العز، والفقر بعد الغنى، فأصبحت بناته يغلزن للناس، مقابل دريهمات يعشن بها، فعندما جئن لزيارته في السجن، ورأى من حالهن ما رأى قال قصيدته:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسوراً

ترى بناتك في الأطمار جائعة	يغزلن للناس لا يملكن قطميراً
برزن نمحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كانها لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خذ إلا ويشكو الجذب ظاهره	وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
قد كان دهرك إن تأمره ممثلاً	فردك الدهر منهياً ومأموراً

وقد سمعت عن شاب غرته بهارنج الحياة الدنيا وزخارفها، وأراد أن يؤمن مستقبله قبل الزواج، فبنى له بيتاً فخماً أنفق فيه الكثير الكثير من النقود، ثم خطب امرأة وعقد عليها، وأخذ هو وهي يجهزان ذلك البيت بأحدث الأثاث وأفخره، وقضوا في ذلك شهوراً، حتى إذا أنهوا التآيث أراد أن يكون العرس ليلة الجمعة في منزلهم الجديد الفخم؛ ليرى الناس المهنتون قصرهم المشيد، وشاء القدر أن يمنح الناس عبرة ما بعدها عبرة، فبعد صلاة المغرب من ليلة الجمعة وهي ليلة العرس، كان ذلك الشاب الذي أنفق ماله وشبابه في إعداد هذا المسكن يقاسي سكرات الموت، وزفّ هو إلى القبور، وسكن رسمه، وتوسد التراب، وبقيت زوجه في بيت أهلها، وأغلقت الدار، وسكت المغنون، وصاح النائحون، كما يقول صالح بن عبد القدوس:

وإذا الجنّازة والعروس تلاقيا ورأيت دمع نوائح يترقرق
سكت الذي حمل العروس مبهتاً ورأيت من حمل الجنّازة ينطق

ويشير سماحته إلى طرف آخر للقضية، وخاصة ما يكون في جنب الفتيات اللاتي يتقدم لهن الخاطبون، فيرفضن بحجة إكمال الدراسة، وكثير من ذلك لم يكن تقديراً للعلم أو حباً له، بل تأمين المستقبل، فالشهادة لأجل

الوظيفة، والوظيفة تأمين للمستقبل، وليس كل طالبة منهم بحاجة إلى العمل، عدا الفقيرات اللاتي يزرع أهاليهن تحت مطارق العوز والحاجة، وبعضهن يطلب الشهرة، وبعضهن لجلب الراقين من الخاطبين، قد يكون لبعضهن الحق عندما يرتبطن بمن فسدت ضمائرهم وتعفنت فطرهم، وتلك مسؤوليتها حين يتقدم لها الكفاء الصالح فترفض بحجة الدراسة، ثم يتقدم لها غير الكفاء فتكون النتيجة على غير ما تحمد، فتكون على نفسها جنت براقش، ولعل تلك إحدى الدلالات التي تستوحى من الحديث الشريف "إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير" وكم من الخريجات من الجامعات رغب عنهن الشباب، بل انتشر في أوساطهم عدم الثقة بهن، وغدت ظاهرة العزوف عن الزواج بالجامعيات واضحة، وإن تزوجت فبأقل مما كانت تتمنى أو تنتظر، أما خوف الطلاق فهاجس شيطاني، نعم عندما تقذف المرأة بنفسها مع رجل لا خلاق له، لا يرعى في أحد إلا ولا ذمة، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، ومع هذا فإن المرأة الذكية تستطيع بلباقتها كسب قلبه، حتى يصبح بين أصبعين من أصابعها تقلبه كيف تشاء، بحسن المعاملة، وكظم الغيظ، والعفو، وامتصاص الغضب، والتجيب إليه، والتزيّن له، والقيام بحقوقه على أكمل وجه، وإظهار المودة له، والشفقة عليه، وإعانتته في تحقيق مصالح الأسرة، إلى ما راء ذلك مما تفعله النابهات من النساء

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فرما استعبد الإنسان إحسان

مع أن الفتاة - فيما أرى - يمكن أن تصيد عصفورين بسهم، فتزوج وتكمل دراستها، فتلبي نداء فطرتها، وتحصن دينها، ويتحقق لها الاطمئنان النفسي

الذي هو أمر مهم في طلب العلم، وتتفادى الحمل بالطرق الشرعية، من مثل ما يطرحه الطب الحديث من حساب وقت إنتاج البويضة وتوقع الحمل، ومعرفة الأوقات التي لا يتم فيها الإخصاب.. وهذا ما يوجّه إليه سماحته، فقد سألته فتاة تقدّم لها خاطب وتريد أن تكمل دراستها، فماذا تفعل؟ فأجابها بقوله: ولم لا تجمعين الحسينين؟^(١)

وما تدري الفتاة بعد أن تكمل دراستها أتزوج أم لا؟ وإن تزوجت أينعها زوجها من العمل أم يبيح لها؟ وهي تستطيع الجمع بين المهمتين؟ غير إن الواقع يشير إلى فئة كبيرة لا يستهان بها من الخريجات غير المتزوجات، اللاتي يصرخن خذوا الشهادة، وأعطونا زوجاً.

ينبّه الشيخ إلى عدم تقليد الماديين في نظراتهم، فالمسلم له مبادؤه وله عقيدته التي تميّزه عن الآخرين، نظرة شاملة ودقيقة للكون والحياة، فعلينا أن لا نقيس الأمور بمقياس المادة، ولنعلم أنه من كان مع الله كان الله معه، ولكن ليأخذ مع ذلك بالأسباب، وليتوكل على الله، ولو أننا توكلنا عليه حق التوكل لرزقنا كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً، كما أخبر بذلك الحديث الشريف، وفي الحديث الآخر "ثلاثة حق على الله عونهم، ذكر منهم والناكح يريد العفاف" ويقول سبحانه "إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"^(٢). وإذا أصابتنا مصيبة فيما كسبت أيدينا.

(١) شريط سمعي في الإجابة على أسئلة طالبات الجامعة ..

(٢) سورة النور، الآية ٣٢

العنوسة والحملات الإعلامية

لقد مضى الحديث - بحمد الله - عن دور الإعلام في التوجيه السلوكي، وأقصر الحديث هنا عن دوره في ظاهرة العنوسة، يقول سماحته: "من أسباب العنوسة" الحملات الإعلامية من المتأثرين بالأفكار الدخيلة على المجتمع الإسلامي، وتقليد الغربيين في كثير من سلوكهم"^(١) فلقد غزت وسائل الإعلام كل بيت تقريباً، - القنوات الفضائية والانترنت تصدران القائمة - ومن هذه الحملات ما هو صريح ومنها ما هو مبطنٌ يحمل سمّه في دسّمه، ويمكن الإشارة إلى بعض تلك المظاهر التي تجلت فيها هذه الحملات.

- ١- عقد الندوات لمناقشة مسألة الزواج المبكر وتغيير الناس منه، لتحقيق هذا الهدف تستدعي القناة الفضائية أو المحطة الإذاعية من يخدم غرضها مهما كلفها ذلك من التكاليف المادية، ومن ذلك على سبيل التمثيل ما قامت به إحدى الباحثات الاجتماعية من الحديث عبر إحدى وسائل الإعلام عن ظاهرة الطلاق، وقامت بتضخيم الموضوع وهو نادر قليل، وذكرت الباحثة أنّ من أسبابه هو الزواج المبكر، وقد قام سماحته بالرد عليها عبر الوسيلة الإعلامية نفسها.
- ٢- المسلسلات التي تنقل نمط الحياة سواء عند الغربيين أو المتأثرين بهم في نمط حياتهم، حيث تبدو الفتاة حريصة على تأمين مستقبلها،

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ، إصدار مكتبة المشارق.

والبحث عن شريك حياتها، وخوض التجارب المتنوعة معه، وتقديم ذلك بأسلوب عصري يظهر فيه نجاح الحياة رغم فشلها الذريع.

٣- الدعايات الإعلامية المتنوعة التي تجلب لب الفتاة والشاب معا إلى زخرف الحياة، فيؤثران الاستجابة لتلك الدعايات، التي تعنى بكماليات الحياة، وبالتالي تأخير مسألة الزواج إلى حين، وإن ما يحدث من هزات عنيفة لقيم المجتمعات الإسلامية عن طريق هذه الوسائل، مؤد حتما إلى اشتغال الشباب جميعا عن الزواج، وتلبية نداء الفريزة بالمحرم.

العنوسة في شتى التعدد

قد تنشأ العنوسة أحيانا من تجاهل الفتاة للخاطبين حتى يجاوزها قطارهم، وقد تترمل أحيانا، أو تطلق أحيانا أخرى، بله أن النساء أكثر من الرجال عادة كما تدل على ذلك الإحصائيات العلمية، ذلك في حالة السلم، وفي حالات الحروب - نسأل الله السلامة منها - تصبح العوانس عددا هائلا، وبالتالي يكون التعدد هنا أمرا لازما، فهل الأفضل للفتاة أن تبقى على تلك الحالة المريرة، أو ترتبط مع شريكة لها أختا في العقيدة، وتتوحد معها في الشعور والآمال والآلام، حتى يعبر الجميع جسر الحياة الدنيا إلى الآخرة سالمين من المعاصي، غائمين بالثواب. ولذا يرى سماحته أن التعدد من ضمن حلول مشكلة العنوسة، يقول:

١- لقد أباح الله تعدد الزوجات، بشرط تحري العدل، والمرأة بطبيعة فطرتها لا تريد أحدا يشاركها في شريك حياتها، وهو مطلب لا تلام عليه، ولكن

عليها أن تفكر في بنات جنسها، هل الأولى لبنات جنسها أن ينشأن على الرذيلة والفحشاء؟ هل الأولى أن يكبتن أنفسهن وأن يغالبن الفطرة حتى يؤدي الأمر إما إلى أمراض نفسية وعصبية، وإما إلى الانفجار، الذي تتلاشى معه القيم، وتتحطم معه الأخلاق؟^(١) والشباب الراغبون في التعدد لحل مشكلة العنوسة عليهم تنقية ضمائرهم، وصقل نياتهم من الشوائب أولاً، ثم الاتجاه إلى خندق العنوسة لتخفيف وطأتها على المجتمع، وبالتالي عليهم خطبة العوانس من النساء، بذلك يتحقق الهدف، أما الاتجاه إلى الصغار من النساء فذلك مما يعمق من حدة المأساة، ويروّي جذورها، ويشد هيكلاها، ويرسي دعائمها، إذ الشاب البكر في العادة يجد عروضاً كثيرة من الفتيات الأبيكار الصغار اللاتي من سنه أو أصغر منه، فيحصل التنافس على تلك الفئة من الفتيات، وتبقى العوانس كما هن، على أن عدد الراغبين في تعدد الزوجات قليل، والداخلات من بوابة العنوسة كثيرات، فأين الحل؟ إذن بالله عليكم؟ نعم يمكن الحل عند شيوع مبدأ التعدد شيوعاً كبيراً، ويقتنع الكثير من الشباب القادرين على العدالة بذلك، يقول سماحته: "إن النساء توجد منهن كثرة كاثرة أكثر من الرجال، وبماذا تحمل هذه المشكلة، إذا كانت النساء الصالحات للزواج الراغبات فيه، أكثر من الرجال الصالحين للزواج الراغبين فيه؟ هل تترك المرأة الصالحة للزواج الراغبة فيه - إن لم يوجد لها زوج إلا وهو مقترن بزوجة أخرى؟ - هل تترك وشأنها حتى تكبت غريزتها؟ أو يباح لنفسها التفسخ والميوعة

(١) عنوس الفتيات / محاضرة لسماحة الشيخ، إصدار مكتبة المشارق.

والامحلال؟ ولها أن تخادن من نشاء أو أنها تتزوج بزواج، ولو كان هذا الزوج ذا زوجة أخرى؟ إلا أنه يستطيع العدل بين هذه المرأة والمرأة الأخرى، على أنه مما لا ريب فيه أن فترة الإخصاب مع الرجل أطول منها في المرأة... وإذا كانت امرأة الرجل القادر على القيام بأداء الوظيفة الفطرية عاجزة عن القيام بهذه الوظيفة، فهل يؤمر بطلاقها حتى يتيسر له ضم زوجة أخرى لديه، أو أنه يباح له أن يتزوج زوجة أخرى بجانب تلك الزوجة الأولى؟ أو يباح له أن يخادن من شاء من النساء؟ إن الزواج بأخرى يحفظ التوازن بين أفراد النوع الإنساني، وقد دعا فيلسوفان ألماني وإنجليزي إلى تعدد الزوجات حفاظاً على المجتمع، وقطعاً للفساد وخراب المجتمع^(١)

المسجد

يعدُّ المسجد المؤسسة التربوية الثانية في الإسلام بعد الأسرة، فقد كان المسجد مكاناً للعبادة والتعليم وعقد الرايات وانطلاق الجيوش، وما يزال المسجد يؤدي دور التعليم والتربية - والحمد لله - مهما كانت مكائد الكائدين، وتربية المسجد - حقاً - تربية متميزة عن سائر المؤسسات والبيئات الأخرى، بما يضيف على مرتاديه من صفاء روحي، ونقاء نفسي، فضلاً من الله ونعمة؛ لذا يحرص الجميع على أن يفترف من معين بركاته، ويتعرض للطائف نفعاته، يقول سماحته: "فجدير بكل أحد أن يحرص بأن يربي أفلاد كبدته في بيوت الله سبحانه وتعالى، من أجل دراسة كتاب الله، ومن أجل تلقي المعارف الربانية

(١) تربية الأولاد ١٠٦/١ - الرد على الباحثة الاجتماعية حديث إذاعي

بين جنباتها، ومن أجل التكيّف وفق مقتضيات هذا الدين الخفيف؛ من خلال الانتظام في صلوات الجماعات، حيث يشاهدون ليل نهار صفوف عباد الله تمثل بين يديه، خاضعة خاشعة^(١) ويقول أيضاً "فلليبت دوره، وللمدرسة دورها وللمسجد دوره"^(٢)

وتتجلى المهمة التربوية في بيوت الله تعالى في مظاهر متعددة، وأهمها:

١- التربية الروحية: فالمسجد مكان الصلاة والاعتكاف، تتراص

صفوف عباد الله تعالى في صلاة الجماعة متألّفة متآخية، فتصفوا

من أكدارها، ويزكو إيمانها، يقول سبحانه: "إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ

اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ

يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ"^(٣)

٢- التربية العقلية: فالمسجد في وقتنا هذا هو مؤسسة تعليمية مهمة

تعقد فيه حلقات العلم، والمواظب الحسنة، ويتدارس فيه المسلمون

كتاب الله، ويتلقى فيه الطلبة دروساً علمية بجانب أمور دينهم،

من العقيدة والفقهاء واللغة، فتسدّ الخلل الناتج عن التعليم

الرسمي، كما يحفظون- من خلال المراكز التي تعقد فيه - كتاب الله

تعالى، ويتعلمون تفسيره، ويتلقون دروساً متنوعة في الخلق والفكر

وغيرهما.

(١) مكانة المساجد، محاضرة مسجد الدعوة بالمواخ/٧/صفر/١٤١٩هـ

(٢) التحذير من آفات المجتمع، ٥٨/٥٧

(٣) سورة التوبة، الآية ١٨

٣- التربية السلوكية: ولو لم يكن سوى التقاء المسلمين ومعرفة أحوال بعضهم بما يوطد أواصر الود والألفة والمحبة، فتحسن بذلك أخلاقهم، وتسمو سلوكياتهم، أضف إلى ذلك ما تتلقاه الأجيال الناشئة عن الكبار من تجارب حياتهم، فيرون معاملة الكبار لأقرانهم فيتشبهون بهم، وينشأ الفرد اجتماعياً دمثاً محباً للخير، عدا أن الناشئة تتلقى فيه التربية السلوكية على أيدي المعلمين والمرشدين.

المدرسة

يقول سماحته: إن المسؤولية في تربية النشء على مقومات الحياة الإسلامية تقع على عاتق الآباء والمدرسين والمجتمع... فللبيت دوره وللمدرسة دورها^(١) وقد نشأت المدارس بعد أن ضاقت المساجد بالمتعلمين لكثرتهم، وظهرت أصناف التخصصات التي تحتاج إلى التقنيات التعليمية، ووسائله الثابتة أحياناً، ولا يجهد أحد الدور المهم الذي تؤديه المدرسة في تربية الأجيال من الناحية الجسدية والنفسية والفكرية... ولذا كانت الأهمية بالغة في وضع المنهاج المدرسي في عناصره المتعددة.. وسأخص ذلك بالحديث، بمشيئة الله.. في باب المنهاج الدراسي في التربية العقلية.

ومن المعلوم أن اختلاط الطالب بأقرانه ومن هم في سنه يولد في نفسه الانشراح النفسي، وحب المناقسة الشريفة في طلب العلم، كما يوطد علاقاتهم

فيما بينهم، ويحسُن أخلاقهم، تحت إشراف مربيهم من المعلمين، كما تقوم المدرسة ببناء متكامل للطفل من الناحية العلمية والعقلية والسلوكية والجسمية، وهو إعداد متكامل إن أحسن المربون تطبيقه، فإن الناشئ يسير في طريق النشأة السليمة، وتشكّل المدرسة وسطاً للتقويم السلوكي، حيث ينظر المربي كيفية تعامل الطالب مع أقرانه، ومعلميه وسائر العاملين في المدرسة، وكيف يتعامل مع مرافق المدرسة المسخّرة له... إضافة إلى إمكانية تدريس علم الأخلاق نظرياً، بجانب التطبيق العملي. فهل تؤدي المدرسة دورها فعلاً؟!

المرافق العامّة

هناك الأندية والملاعب والحدائق والمهرجانات، والمجالس العامة، والعادات والتقاليد في المجتمع، وطبيعة البيئة الجغرافية، كل ذلك يدخل في مفهوم البيئة التي يتربى فيها الإنسان، وجميعها مؤثرة على تربيته وتنشئته، كل عنصر بحسبه، ويقدر اتصال الناشئة به.

إن البيئة العامة، بما فيها من العادات والتقاليد التي قد تكون قريية أو بعيدة عن أحكام الدين، فلاشك أنها تترك آثاراً واضحة في النفس البشرية قد يصعب محوها، ولذا كان على المربين عدم المهادنة في تنشئة الأجيال على المبادئ التربوية والإسلامية، ومقارعة العادات الباطلة التي هي أحسن، من الحكمة والموعظة الحسنة، وبين لنا سماحته أثر البيئة قائلاً: "ومن أهم المؤثرات الاجتماعية البيئة، فإنها ذات أثر كبير على من ينشأ فيها، ويتربى في محيطها، ولذلك تختلف أفكار الناس استحساناً واستهجاناً بحسب اختلاف بيئاتهم،

بمحيث تجد أمراً يعدُّ عند أهل بيئته من أحسن الأمور ، بينما يعدُّ عند غيرهم من أقبحها ، والكلُّ معدودون من العقلاء ، ولذلك كان الواجب الاحتكام إلى الشرع المنزَّل من السماء لا إلى عقول الناس المتغيِّرة الأطوار ، المختلفة الأحوال.^(١) ويقول أيضاً "ما أصعب التغلب على العادات عند من لم يتسلَّح باليقين ، ويتدرَّع بالصبر"^(٢) ويقول أيضاً : "إنَّ العقول متباينة باختلاف المؤثرات النفسية والاجتماعية على أصحابها ، فالتربية والتثقيف والبيئة والمحيط لها أثر في تكوين الفكر وتوجيه العقل ، بينما الدين فوق ذلك كله ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، يخضع له العقل والقلب وتستسلم له الروح والجسد"^(٣) وإذ ينبِّه سماحته على إدراك أثر البيئة في توجيه السلوك ؛ فإنه يدعو بإلحاح إلى أن يكون المناخ الذي تتربى فيه الناشئة مناخاً صالحاً ، معيناً على الاستقامة ، وبالتالي يتحمَّل كل فرد من أفراد المجتمع بلا استثناء دوره في تهيئة هذا المناخ للصلاح ، والمحافظة على استمرار الاستقامة ، ولتحقيق ذلك لا بد - في نظري - من طريقتين :

١- التمسك من الجميع بمبادئ الدين ، وتحقيق القدوة للجيل بذلك

التمسك .

٢- تهيئة البيئة الصالحة ، بالمساهمة المستطاعة في تربية الجيل فكراً

وسلوكياً ، ولا يحقر الإنسان جهده مهما كان صغيراً ، فإنه عند الله

كبير ، والجهد كبير بأثره لا بحجمه .

(١) جواهر التفسير ٣ / ٤١

(٢) السابق ٣ / ٢٣٥

(٣) جواهر التفسير ٣ / ١٥٥

فالكل يساهم في توجيه الناشئة إلى الحق، وتأصيل العقيدة الصحيحة في نفوسها، وتربيتها على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ يقول سماحته: "ولذلك كان من الضرورة بمكان أولاً، وقبل كل شيء، إصلاح المناخ، حتى لا تكون هذه السموم واجدة مناخاً يمكن أن تعشش فيه وتستشري، فيجب أن يكون المناخ صالحاً صالحاً مهيئاً للإصلاح والخير، ويكون ذلك بتوجيه الناشئة إلى الحق، وتأصيل العقيدة في نفوسها، وتربيتها تربية سليمة تقوم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ" ^(١) ويقول سماحته أيضاً: "على المجتمع بأسره أن يكون في تمسكه بمبادئ هذا الدين واعتزازه بموارده الفكرية والسلوكية بيئة حسنة لهذا النشء" ^(٢)

بهذا - والله الحمد والمنة - ينتهي الجزء الأول من معالم الفكر التربوي لدى سماحته ويليهِ - بمشيئة الله - الجزء الثاني وأوله الفصل الثالث في الحياة الروحية، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(١) منهج إصلاح المجتمع، ج / ١٠٤

(٢) التحذير من آفات المجتمع، ص ٥٨

ملحق (١)

جزء من رسالة كتبها الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري ، المفتي السابق للسلطنة ، يذكر فيها نبوغ سماحة الشيخ الخليلي .

الاسرى فانتهاه من ذلك الاوان عند من امور ذكرها لنا الامير اجروا من مواز تعدد هاهنا والامر بالجموع
 يحذر هاتين هبت الانغزال المحذور فابتدئوا العمل بما رأوا واثقوا المشايخ الجماعية رجموا الله وكذلك يتعارض
 بعض فقهاءنا في جعلنا الجمعة خطبتين كما كان يفعلها الصدر الاول من سلف هذه الامة وروى فعله من
 النبي صلى الله عليه وسلم وبما الجلستنا الخفيف . بين الخطبتين . يأتين ان الامة وثمان ما كانوا يفعلون ذلك كجوابه هؤلاء
 فقد كفل به شيخنا العلامة حافظ احمد بن محمد الخليل وقد افاض في ذلك الحجج والامانة الادلة بالم بسبب المية ورسالة
 سميت ما انا مسارا للمبين فيما جاء في الجلستين من الخطبتين وروى ذلك ككتابة اطال الله حياتها وجزءا عما
 خيل وكذلك يبحث بعضهم عن الصلاة والجامع بعد التسليم من صلاة الجمعة هل هو من الامور ام من شيئا جازيا
 لان الله يقول فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض والنجواب ان هذا الامر لا يخرج من اجابها امر اباحة
 والاباحة تقتضي النهي عن الصلاة بعد ما كانت الركعتان بعد صلاة الظهر من الروايات التي لا يتركها
 المسلمون بعد صلاة فالحاضر وكذلك ينبغي ان لا يترك بعد صلاة الجمعة وان قيل ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصل
 شيئا للمسلمين بعد ما سلم من صلاة الجمعة فانه كان عليه السلام يعرض اليه فيصلي فيه وهكذا كان اكثر تغفلنا
 في بيت صلوات الله عليه وسلم وقد ذكر ابو بكر المعروف بابن النضر في كتاب الاشواق ان النبي صلى الله عليه وسلم
 قال من كان منكم مصليا بعد الجمعة فليصل بعدها اوقيت عنه انفقان يصلي بعد الجمعة كعتين قلت
 وقيل انه كان يصل بعدها ربيعا قال الامام ابو سعيد الكدري فيما يعلقه على كتاب الاشواق ان يخرج انه يؤمر بعدها
 بركعتين وقد قيل انهما سنة وقيل ما موردها والناس على شعبة الاجام فيها فلا يتبع تركها بعد الجمعة ولا ظهر
 وكذلك كان الامام يتقبل بعد صلاة الجمعة في المسجد والناس يستنقون وهذا ما اردنا بيانها للحاقا بما كتبه الشيخ
 العلامة احمد بن محمد الخليلي وقد اثار كرامة من الاعراضات فخرجوا من ههنا ان يحسنوا بنا الظن بان لا يتوجهوا الى
 نفوسهم اننا نريد بها الفعنة بمنى الاشرفين وعلمنا اننا العاملين المهتدين رضوان الله عليهم ولنا ندعي
 اننا اكثر منهم اطلاقا واتساع السننة والادري فلو الحجة وبن النسخة وكننا لما وجدنا جميع ما صنعناه
 عنهم ما نزلوا وقت منهم . ذكر كرامة انهم لا يرون شيئا من ذلك في حججنا ونحن بسلفنا الصلاة معتدرون
 وهردي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مهتديون وقولنا في هذا وغيره قول المسلمين وانما يريدون العمل
 بسلطانهم فاعلم اننا الانبياء والمرسلين وعلمنا انه وصحبه من الاولين مما اقره من حسناته ولهم التوكيل
 ابراهيم بن محمد العبري
 مفتي السلطنة

ملحق (٢)

مقال نشر بمجلة الشرطة بسلطنة عمان

الشيخ الخليلي حجة فكيرية وعربية وتأريخية إسلامية

للأستاذ الدكتور : مصطفى عبد القادر النجار

المستشار الأكاديمي بوزارة التعليم العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ظاهرة عمانية حضارية، تجمع ما بين التراث والمعاصرة، حبا لله بها سلطنة عمان؛ فأصبح يعبر عن همومها السلفية من جهة، وحياتها اليومية من جهة أخرى، فيشرح ويفصل، ويحكي ومحاضر، ويخطب ويكتب في كل مجال يتهيأ له وتصل إليه يده، فأعطى لوطنه أجدية الروح في هذا الزمن العائر، فلا ينكر أحد سعة اطلاعه، وشدة تواضعه، وفتح قلبه وعقله، وأبواب ضميره لكل سائل، صغيراً أو كبيراً، مثقفاً أو أمياً، يتبادل معهم الفكر والفقه بكل تفاصيله، ولا يمل لهم مجلساً، ولا يشعر بضيق أو يرفض سؤالاً .

وقد حدثنا التاريخ عن شخصيات أعطت لأوطانها غذاء روحياً لا يمكن أن ينضب على مدى السنين، عربياً وإسلامياً وعالمياً، والشيخ الخليلي يظهر عملاقاً في هذا الجانب بمقولاته وفتاويه، واجتهاداته وآرائه، ليسد فراغاً ليس بالسهولة ملؤه في زمن كثرت فيه الاجتهادات، وتعددت التأويلات، واختلفت الرؤى، وأصبح من العسير على المؤمن أن يطمئن إلى هذا الرأي أو ذاك في تفسير أمور دينه ودينه، وصار يسبح في بحر متلاطم الأمواج من

تناقض الأقوال، ولا يدري أين يرسو بسفينته للاطمئنان إلى شاطئ السلامة، حيث أصبح المسلم في ذلك الجو الملبد حائراً منهدلاً في كيفية ارتشافه لرحيق الحقيقة، فجاء الخليبي ليعالج ذلك الفراغ، ويعطي أبناء قومه عصارة فكره الخلاق، المبني على أحكام الإسلام الحنيف، بتجرد وتعفف تنحني له الهامات، وسوف تعتربه الأجيال عبر القرون، فامتد فكره إلى ماضي التاريخ ففهمه، وإلى حاضر الأيام فهضمها، وإلى مستقبل الحياة فأدرك معانيها؛ فمزج بين الأصالة والحداثة؛ ليحتل مكانة متميزة في نفوس أبناء وطنه.

ليس لك الخيار إلا سماع حكمه، وتكتشف عمق تفكيره، وصفاء ذهنيته، وصواب آرائه، وعلميته حديثه، وليس بالسهولة أن تجرد بين أقرانه في هذا الزمن الصعب من يسد الفراغ الذي ملأه بذات الطريقة المشبعة بالتواضع، والتراكم العجيب من المعرفة، ما يعجز أصحاب شهادات عليا من النطق بها، فيحلق بك إلى عالم، وينقلك إلى أجواء الصحابة الكرام، وعصور الإسلام الأولى، لتتعاش مع قيمها ومبادئها بطريقة مثلى، متشلا إياك من واقعك المتردي الذي تحمله كابوساً ثقيلاً على كتفك، فتجد نفسك معه متألقاً متعففاً عن كل مبتذلات وهموم الحياة الرخيصة، تتعاش مع روح الإسلام الحنيف، وسيرة المسلمين الأوائل، وأحكام الشريعة السمحاء، محلقة في سماء المثل العليا التي جاء بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ ليرسوك إلى عالم الإيمان بواقعيته وحسه الوطني، وأجوائه الخلاقة، التي ترتشف من مكونات الحياة الصالحة، والتي تستند إلى كتاب الله وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه

وسلم كل هذا وغيره من فلسفة الدين والحياة تتعلمها من هذا الزاهد العماني، الذي وهب نفسه لعمل الخير وفلاح البشر .
 وسماحة المفتي يعيش عصره الذي تزاومت فيه التحديات والانحرافات، وهو يدرك أن ذلك العصر ليس من اليسير إدراك مיתافيزيقيته، ولكنه استطاع أن يخاطب الناس بلغة مبسطة، وأن يعبر عن عمانيته الأصلية بالدفاع عن اللغة العربية التي هام في جها من محاولات اغتيالها، وهي لغة القران الكريم، إلى جانب الحفاظ على الأطر البلاغية فيها.

وحقا نقول: إن سماحته صار عملاقاً في زمنه، فمن أين يستطيع الإنسان أن يخاطب بما ملك من مواهب وصفات قلما تجتمع في إنسان، فأصبح ملكة ابتكارية مولدة للتصورات الحسية .

وقد قيل: إن العلماء ورثة الأنبياء، وهم الذين يغارون على الحق، ويتبحرون في تفاصيل العلوم، وهمهم سرد الحجج حول المسائل المثارة لإقناع البشر، وهو بلا شك منهم وإليهم، لقد لخص سماحته صفحات التاريخ العربي عبر عصوره بآراء وأقوال واجتهادات بلغ بها الذرى، أفلا يحق للمؤمنين أن يعطوه صفة (مفتي العروبة والإسلام) ويسلطوا الضوء على قدراته الخلاقة، وأفكاره النيرة، وأقواله الماثورة التي عجزت عن النطق بها مؤسسات علمية ومراكز بحثية .

ومراجعة دقيقة لكل الفتاوى التي نطق بها ذلك الطود الشامخ، والتمعن بعمق ومقارنتها بما كان عليه السلف الصالح، تجد أن القلم يعجز عن تقويمها أو إصدار الحكم بشأنها، لأنك ستجد نفسك أمام السهل الممتنع الذي لا

تستطيع بسهولة أن تدلي دلوك فيه، فهو يوضح لك أسس العقيدة الإسلامية كما جاءت عند نزول الوحي، والتعريف بما نقله الصحابة الثقات الذين سلكوا الصراط المستقيم واتبعوا تعاليم الدين الصحيح، ونقلوها إلى الخلف دون تحريف.

وهو يهدي المؤمنين إلى الأسانيد التي يجب الاعتماد عليها لتجنب الوسوس التي تضلل السذج من الناس، وهو في كل هذا لا يظعن مذهباً أو يسفّه ديناً أو ينال من أي فرقة إسلامية.

وإذا التفتنا إلى دراسة شخصية هذا الرمز الإبداعي يمكن أن نحدد صفات تميزه عن غيره، وذلك في اتساع مداركه، وغزارة علمه، والاقتصار في مقولاته، والإيجاز في عباراته، فهو يبتعد عن التفصيل الممل إلا إذا استدعى الأمر ذلك، مراعيًا عقلية السائل وغموض وتعقيد المسألة المطروحة، فبحذاقته وقدرته الذاتية يستطيع أن يكشف عن خصوصية السؤال، وما يتطلبه من إجابات إن كانت مفصلة أو مختزلة دون أية مبالغة أو حشو في الكلام.

وهو في كل الأحوال يعطي المسلمين على اختلاف مذاهبهم ودون تمييز مكانتهم وقدراتهم مبتعداً عن التعصب الأعمى .. ساعياً إلى بعث روح السلف الصالح ليكشف عن الصورة المشرقة لهم، مؤكداً على عدم الانغلاق وحبس العقل وجمود النص وفتح الأبواب على مصراعها للنقد الذاتي، منتشلاً الأفكار مما علق بها من تراكمات تاريخية باتت بحكم المسلمات في وقت هي في أشد الحاجة إلى التنقية ورفض التقليد الأعمى المغلف بالحق، والذي يحمل في طياته جوانب عديدة من الانحراف والباطل المنمق، فبحسه المتميز وقدراته

الخلاقة التي وهبها الله له يستطيع أن يكشف زيفها بلا أية مجاملة، وعليه اعتبرت مهمته التي يقوم بها أمام الناس بأنها تكليف إيماني أمام الله والشريعة والدين .

وعمان التي لم تُنصَف في الكشف عن كنوز فكرها الخلاق تحتاج في عصر العولمة الألفية الجديدة من يسلط الضوء على مبدعيها ، ويأتي على رأسهم سماحة الشيخ الخليلي الحجة الفكرية العربية والتاريخية الإسلامية، الذي تجاوزت أعماله حدود وطنه عمان إلى العالمية، ليأخذ على عاتقه الدفاع عن الإسلام وشرح أصوله، ومنهجه وفكره وفلسفته، وعمل على تنقية الأجواء العقلية لوطنه عمان ، مبتعداً عن العواطف الهوجاء التي تبعد الحقيقة عن ذاتها وتستسلم إلى رقة الكلام المنمق .

ومجد الصحافة اليومية والأسبوعية تتسابق لأن تبني نشر فتواه التي لا تحدها أسطر، وتوظفها الدوريات الشهرية أو الفصلية، مما يثير الدهشة، إن الذي دعاني لكتابة هذه الأسطر بحقه هو ما شاهدته في الوطن العربي عندما كنت رئيساً لمنظمة عربية - للاحتفال برجالته المتميزين - ففي كل عام نسمة أن مؤسسات ومنظمات وجامعات ودول تحتفل بواحد من أبرز الرجال الذين قدموا عطاءهم لأوطانهم، بحيث يتسابق العلماء بأقلامهم في إبراز الجوانب المضيئة من تلك المسيرة وذلك العطاء .

إنها دعوة صادرة من قلب عربي لا هدف له إلا إعلاء كلمة العلم والعلماء في بلد التاريخ عمان، كما أنني أدعو هذا الرمز الإسلامي لأن لا يحرم جيله من تجاربه، فيكتب لنا (يومياته أو مذكراته) كما فعل رموز وعباقره العالم عبر

من معالم الفكر التربوي ← { ٣١٧ } → عند الشيخ أحمد الخليلي

حقب التاريخ، والواقع إنها دعوة واجبة لا بد أن يحققها لنا، فهو مدرسة من
حق طلابها أن ينتفعوا وينهلوا من معينها

من مجلة الشرطة . سلطنة عمان

ملحق الصور التذكارية لسماحة الشيخ الخليبي



صورة للقرية التي كان يسكنها الشيخ بزنجبار



الشيخ الخليبي يقف على يسار الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري المفتي السابق لعُمان
الصورة أخذت من كتاب الشيخ العبري لحمد بن محسن العبري



الشيخ الخليلي الشخص الثالث على يسار جلالة السلطان المعظم في تأدية الصلاة بمسجد الخور



صورة للشيخ في عام ١٩٧٧م

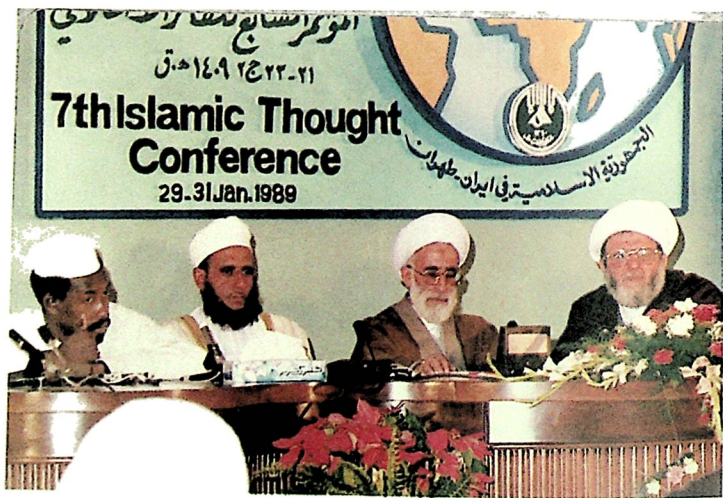
عند الشيخ أحمد الخليلي

{ ٣٢٠ }

من معالم الفكر التربوي



صورة أخرى للشيخ في عام ١٩٧٧م



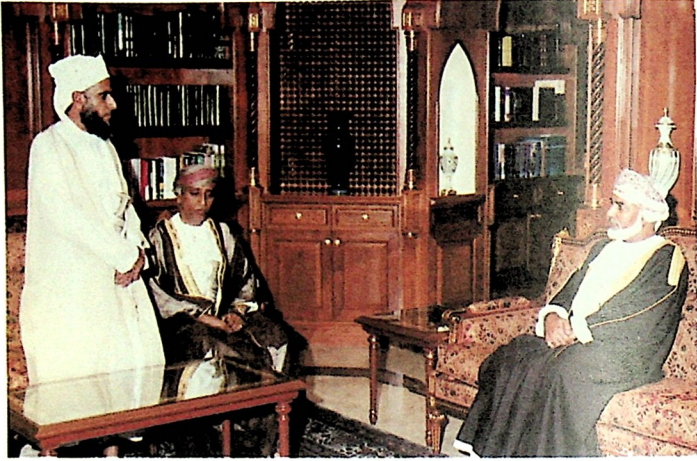
سماحة الشيخ يشارك في مؤتمر بالجمهورية الإسلامية الإيرانية



سماحة الشيخ في صورة جماعية مع مجموعة من العلماء في أحد المؤتمرات



سماحة الشيخ يترأس الجلسة في أحد الاجتماعات



الشيخ الخليلي يلقي كلمة أمام جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم



الملك الراحل الحسين بن طلال ملك الأردن يستقبل الشيخ الخليلي



الشيخ الخليلي مع حاكم زنجبار ومجموعة من الشباب هناك



الأمير الحسن بن طلال ولي عهد الأردن سابقا يستقبل الشيخ الخليلي



الأمير حمزة ولي عهد الأردن يسلم الشيخ وسام الاستقلال



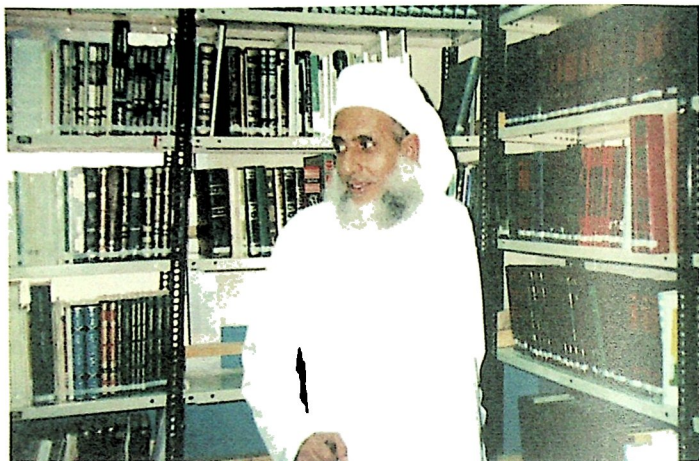
الشيخ الخليلي يصافح جموع مستقبليه في إبرا



سماحة الشيخ في جلسة مع بعض العلماء المشاركين في مؤتمر الفقه الإسلامي



الشيخ الخليلي في دولة الإمارات العربية المتحدة



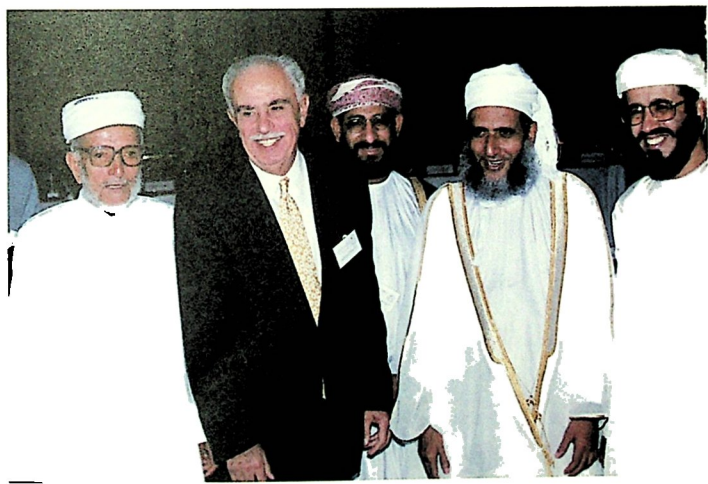
الشيخ الخليفي في زيارته لمكتبة الندوة الأهلية ببهلا



الشيخ الخليفي في بهلا يجيب على أحد السائلين



الشيخ يتصفح مجلة المعالم





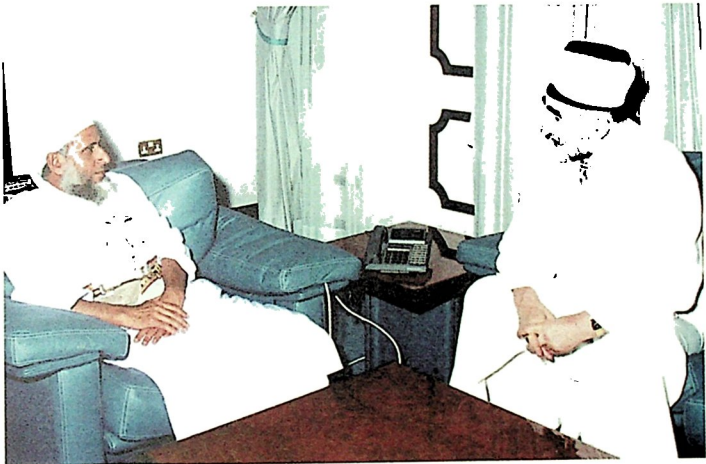
الشيخ يتفقد مشروع نسخ المصحف الشريف بالمعهد العماني لتعليم الخط العربي ١٩٩٥م



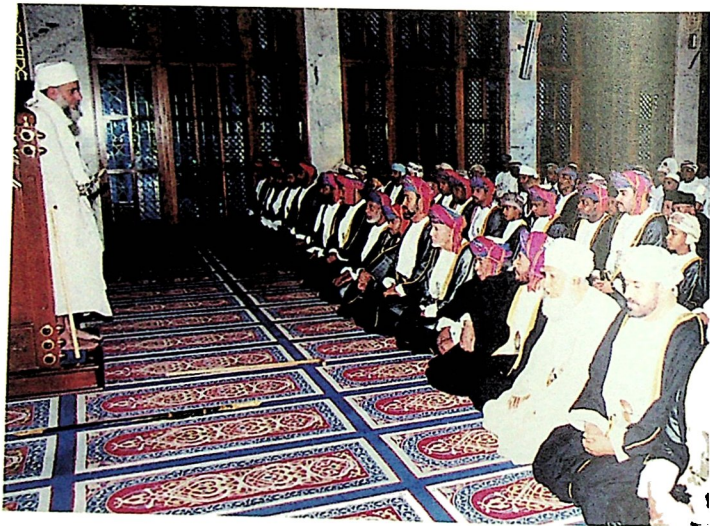
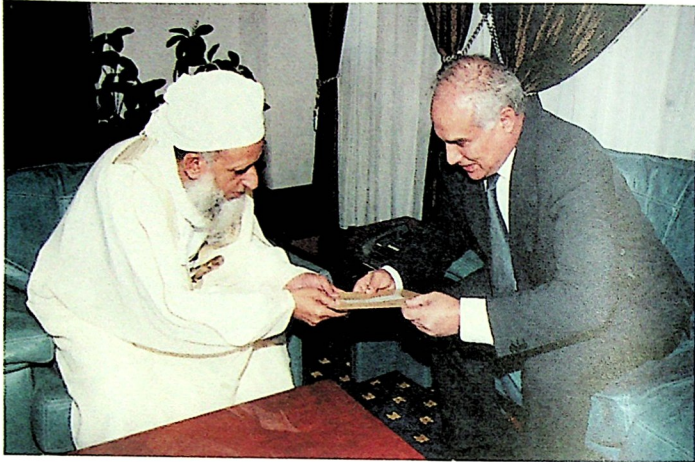
الشيخ الخليبي يتفقد معرضاً في بلدة «يتي» بمسقط في اختتام المركز الصيفي



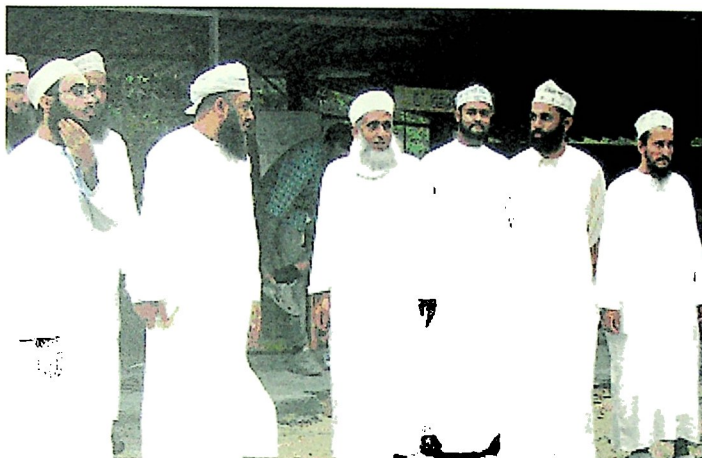
الشيخ الخليلي في جمهورية مصر العربية



الشيخ الخليلي يستقبل الشيخ حمدي مفتي يوغسلافيا



الشيخ الخليلي يلقي خطبة العيد في مسجد الخور بمسقط



الشيخ في زيارة لماليزيا يقف مع مجموعة من الطلبة العمانيين هناك



سماحة الشيخ يجيب كتابيا على المستفتين



الإفتاء لكل إنسان في جميع الأحيان بأي مكان



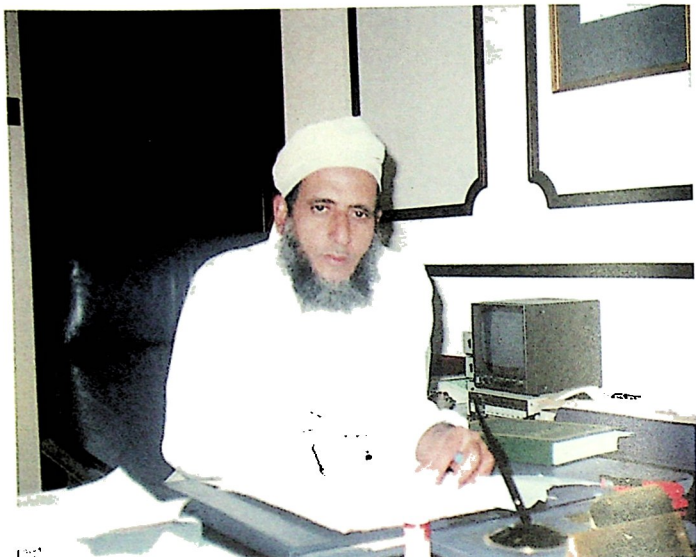
سماحة الشيخ أثناء مشاركته في أحد المؤتمرات



سماحة الشيخ يتفقد مكان نشأته في زنجبار



سماحة الشيخ مع جمهور مستقبليه بالمنطقة الداخلية



سماحة الشيخ في مكتبه السابق بوزارة الأوقاف



سماحة الشيخ يزور مع بعض العلماء سفينة فلك السلامة

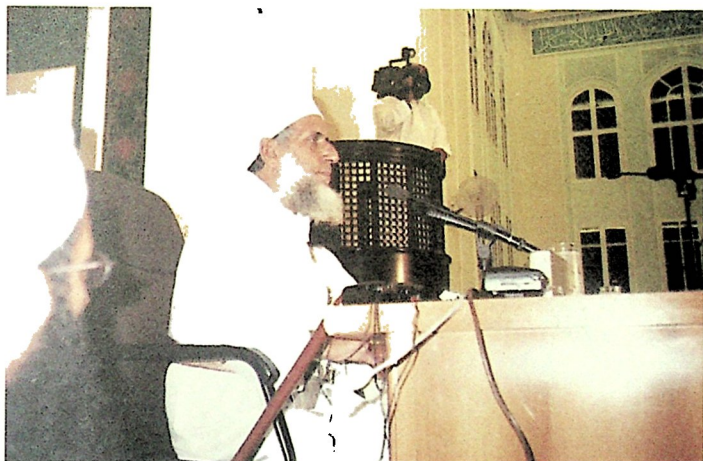
عند الشيخ أحمد الخليلي

{ ٣٣٦ }

من معالم الفكر التربوي



مسجد الرفيع بمحلة الخضراء بولاية بهلا حيث كان يسكن الشيخ



سماحة الشيخ يلقي محاضرة بدولة الإمارات العربية المتحدة

المراجع

أولاً : الكتب والدوريات

- أصول الفكر التربوي في الإسلام ، عباس محمود ، ط ١ ، ١٩٨٧م
- إعادة صياغة الأمة ، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي ، ط ١ ، مكتبة الجيل الواعد ، سلطنة عمان ، ٢٠٠٣م
- أهمية العلم ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الضامري ، السيب ، سلطنة عمان
- التحذير من آفات المجتمع ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الضامري ، السيب ، سلطنة عمان
- تحفة الأعيان ، الشيخ نور الدين السالمي ، مكتبة الاستقامة
- التحذير من كذبة إبريل ، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مكتبة الغبيراء ، بهلا ، سلطنة عمان ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م
- التربية الإسلامية ، عبد الوهاب طويلة ، ط ١ ، ١٩٩٧م
- تشريعات الإسلام ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الضامري ، السيب ، سلطنة عمان
- جريدة عمان ، العدد ٦٧٨٣ ، الثلاثاء ٣٠ رمضان ١٤٢٠هـ
- الجملة وتفسيراتها ، الشيخ أحمد بن حمد الخليلي
- جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار ، سعيد بن علي المغيري ، وزارة التراث القومي ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦م

- جواهر التفسير ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الاستقامة ، ط ١ ، ١٩٨٤م ،
الجزء الأول

- جواهر التفسير ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الاستقامة ، ط ١ ، ١٩٨٦م ،
الجزء الثاني

- جواهر التفسير ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الاستقامة ، ط ١ ، ١٩٨٨م ،
الجزء الثالث

- جواهر التفسير ، الشيخ أحمد الخليلي ، ج ٤ ، مخطوط

- الحق الدماغ ، الشيخ أحمد الخليلي ، مسقط ، ١٤١٩هـ

- حقيقة الإسلام ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الضامري ، السيب ، سلطنة
عمان

- الرد على أحد السائلين ، الشيخ أحمد الخليلي ، مخطوط

- رسالة الشيخ الخليلي إلى أهل ميزاب ، الشيخ أحمد الخليلي ، مخطوط

- عمان أيام زمان ، مرشد بن محمد بن راشد الخصيبي

- فتاوى النكاح . الشيخ أحمد الخليلي ، الأجيال للتسويق ، ط ١ ، ٢٠٠٢م

- القيادة في الإسلام ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الضامري ، السيب ،
سلطنة عمان

- مجلة أفكار اللبنانية ، لقاء الصحفي وليد عوض بالشيخ الخليلي

- مجلة مواقف ، لقاء الصحفي علي مهدي هاشم بالشيخ الخليلي

- مجلة الوحي العمانية العدد ٣٤ صفر ١٣٩٩هـ / يناير ١٩٧٩م

- مدخل إلى التربية ، عبد الرحمن الباني ، المكتب الإسلامي ، ط ٢ ، ١٩٨٠م

- مقدمة ابن خلدون ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٩٣م
- مناهج التشريع الإسلامي ، الشيخ أحمد الخليلي ، دار الجيل ، مسقط ، ط ١ ، ٢٠٠١م
- ندوة الفقه الإسلامي المنعقدة في مسقط عام ١٤٠٨هـ ، ط ١ ، ١٩٩٠م
- وسقط القناع ، الشيخ أحمد الخليلي ، مكتبة الضامري ، السيب ، سلطنة عمان ، ط ١ ن ١٩٩٨م

تأليفه في المسحورحة لسماعته ❁❁❁

- آثار الانحراف الفكري : ١٠١/ج
- أسس التربية الصالحة : ٢١٧/أ
- الإسلام ومكارم الأخلاق ، ٩٨/ج
- الإخلاص : ٢١/أ
- الإيمان باليوم الآخر : ٢٢/ج
- الإيمان مفهومه وتطبيقاته ، ج ١ : ٦٥/ج
- الإيمان مفهومه وتطبيقاته ، ج ٢ : ٦٦/ج
- الدعوة إلى الله ، ج ١ ، ٨/أ
- الدعوة إلى الله ، ج ٢ ، ٩/أ
- الصحوة الإسلامية : محاضرة بكلية الشريعة ، مكتبة مشارق الأنوار

- الطريق إلى الأقصى ، ٣٢٥ / أ
- أنت تسأل والمفتي يجيب ، رقم ٥ / مكتبة المناهل
- تربية الأولاد في الإسلام ، ج١ : ١٠٦ / ج
- تربية الأولاد في الإسلام ، ج٢ : ١٠٧ / ج
- تربية النشء : ٢١١ / أ
- توضيح مفاهيم خاطئة ، ١١٨ ، أ
- حاجة الفكر والسلوك إلى العقيدة : ٦٤ / ج
- حقوق الأبناء على الآباء : ٩٠ / ج
- حقوق الأبناء على الآباء ، ١٠٠ / أ
- حقوق الأولاد في الإسلام ، ٩١ / ج
- دور الآباء في تربية الأبناء : ١١٧ / أ
- سلوك المرأة المسلمة : محاضرة بولاية المصنعة ، مكتبة الهلال ، ومكتبة المعهد برقم ٢٧٦ / أ
- طريق الإصلاح : ١٠٤ / ج
- عنوس الفتيات : مكتبة مشارق الأنوار
- معالم الشخصية الإسلامية : ٢٨٤ / أ
- مكانة المساجد في الإسلام : محاضرة بمسجد الدعوة الموالم ، صفر ، ١٤١٩ هـ
- منهج إصلاح المجتمع : ١٠٤ / ج
- موقف الإباضية من الخليفين عثمان وعلي ، ١٣٠ / أ
- وقفات حول الزواج المعاصر ، مكتبة مشارق الأنوار

ثالثاً: اللقاءات

- لقاء الشيخ خليل الخليلي بالشيخ القاضي علي بن ناصر المرجمي
- لقاء خليل الخليلي بالشيخ خلف بن زاهر الشرياني
- لقاء الشيخ عبد الله بن عامر العيسري بالشيخ أحمد الخليلي
- لقاء المنفلوطي بالشيخ أحمد بن حمد الخليلي
- لقاء برنامج "واحة المستمعين" بالإذاعة العمانية مع الشيخ أحمد الخليلي
- لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن حمد الخليلي
- لقاء مع والدة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي.
- لقاء المؤلف بالشيخ سعيد بن حمد الحارثي مدير معهد القضاء الشرعي سابقا
- لقاء المؤلف بالشيخ يحيى بن سفيان الراشدي ، مدير دائرة التربية الإسلامية بوزارة التربية والتعليم
- لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن سيف الخليلي ، ابن عم سماحة الشيخ الخليلي
- لقاء المؤلف بالشيخ أبي الحسن شحاتة ، مدرس بمعهد القضاء الشرعي سابقا
- لقاء المؤلف بالشيخ أحمد بن سعود السيابي ، أمين عام مكتب الإفتاء
- لقاء المؤلف بالشيخ زياد بن طالب المعولي : المدير العام لمعهد العلوم الشرعية
- لقاء المؤلف بالشيخ صالح بن سليم الربخني ، مدير إدارة الجوامع والمساجد بمركز السلطان قابوس للثقافة الإسلامية بديوان البلاط السلطاني
- لقاء المؤلف بالشيخ عاشور بن يوسف ، المدرس بمعهد العلوم الشرعية
- لقاء المؤلف بالشيخ عيسى بن يوسف البوسعيدي ، مستشار وزير الأوقاف والشؤون الدينية لمعهد العلوم الشرعية

- لقاء المؤلف بالشيخ بدر بن هلال اليحمدي ، مدير مكتب تطوير المناهج بمركز

السلطان قابوس للثقافة الإسلامية بديوان البلاط السلطاني

- لقاء المؤلف بالشيخ خالد بن سالم الخوالدي ، المدرس بمعهد العلوم الشرعية

- لقاء المؤلف بالشيخ ناصر بن سليمان السابعي ، المدرس بمعهد العلوم

الشرعية

- لقاء المؤلف بالشيخ خميس بن راشد العدوي ، مدير دائرة الفتوى بمكتب

الإفتاء

- لقاء المؤلف بالشيخ سيف بن حمود البهلاني ، خال سماحة الشيخ الخليلي

- لقاء المؤلف بالشيخ حميد بن محمد اليحمدي ، مدير دائرة التنسيق والمتابعة

بمكتب الإفتاء

- لقاء المؤلف بالشيخ أسعد بن حمود المقيمي : الباحث بمكتب الإفتاء

- لقاء المؤلف بالشيخ سليمان بن أحمد الخليلي ، المدرس بمعهد العلوم الشرعية

، وهو ابن سماحة الشيخ أحمد الخليلي

- لقاء المؤلف بالشيخ خليل بن أحمد الخليلي ، مدير شؤون الطلاب بكلية

الشريعة والقانون ، وهو ابن سماحة الشيخ أحمد الخليلي

- لقاء المؤلف بالشيخ أفلح بن أحمد الخليلي ، ابن سماحة الشيخ أحمد الخليلي

- لقاء المؤلف بالشيخ عبد الرحمن بن أحمد الخليلي ، ابن سماحة الشيخ أحمد

الخليلي

- لقاء المؤلف بمحمد بن مسعود الرشيدني سائق مركبة الشيخ الخليلي

المحتويات

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٧	المقدمة
٧	دافع التأليف
٩	منهجية التأليف
الفصل الأول	
١٥	حياة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي
١٩	نسبه وأسرته
٢٤	مولده
٢٥	حياته
٢٥	الحياة الأفريقية
٢٦	أ- حياة الطفولة حتى الخامسة عشرة
٣٦	ب- من الخامسة عشرة حتى الثانية والعشرين
٤٨	الحياة العمانية
٧٠	كيف يقضي سماحته سحابة يومه
٧٣	سماته وأخلاقه
٧٣	- حفظه ونباهته
٨٠	- مكانته العلمية

٨٩	- أخلاقه
٩٠	- الحلم والأناة
٩٤	- الغضب لله
١٠٠	- تواضعه
١١٢	- مجلس الشيخ
١١٦	- السخاء
١١٩	- الوفاء
١٢١	- خشيته من الله
١٢٩	جهوده الإصلاحية
١٣٠	أ- جهوده في الإصلاح الداخلي
١٤٤	ب- جهوده في الإصلاح العالمي
١٥٧	تفاؤله
١٥٨	الشيخ في بيته
١٦١	مناصبه
١٦٢	مؤلفاته

الفصل الثاني

١٦٩	مدخل إلى الفكر التربوي
١٧١	مفهوم التربية
١٧٧	ضرورة التربية

١٧٨	أهداف التربية
١٨١	مصادر التربية
١٨٢	أ - القرآن الكريم
١٨٧	ب - السنة النبوية
١٩١	ج - السلف الصالح
٢٠٦	د - العلم الحديث
٢٠٨	محتوى التربية
٢٠٩	أساليب التربية
٢١١	- القدوة
٢١٥	- الصحة
٢١٦	- الموعظة الحسنة
٢٢٥	- القصة
٢٢٩	- ضرب الأمثال
٢٣١	- المحاضرات والخطب
٣٣٧	- الحوار
٢٤١	- الثواب والعقاب
٢٤٦	- الإعلام
٢٥٠	- اعتقاد السؤال
٢٥١	بيئات التربية
٢٥٢	١- الأسرة

- ٢٥٣ - اختيار الزوج
٢٥٩ - الأعراس
٢٦١ - تربية الأولاد
٢٦٢ - منهجية تربية الأولاد حتى سن البلوغ
٢٧٧ - المربيات الأجنيات
٢٧٩ - الزواج المبكر
٢٨٢ - تزويج الكفاء
٢٨٣ - حقوق الأبناء في اختيار أزواجهم
٢٨٥ - الصداق للفتاة وحدها
٢٨٧ - عنوس الفتيات
٢٨٨ - العنوس وجشع الآباء
٢٩١ - العنوس والترف
٢٩٥ - العنوس وولائم الأعراس
٢٩٦ - العنوس وتأمين المستقبل
٣٠٢ - العنوس والحملات الإعلامية
٣٠٣ - العنوس ورفض التعدد
٣٠٥ ٢- المسجد
٣٠٧ ٤- المدرسة
٣٠٨ ٥- المرافق العامة

٣١١	ملحق (١) رسالة الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري
٣١٢	ملحق (٢) مقال نشر بمجلة الشرطة بسلطنة عمان
٣١٨	ملحق صور تذكارية لسماحة الشيخ الخليلي
٣٣٧	المراجع
٣٤٣	المحتويات

رقم الإيداع : ٢٢ / ٢٠٠٤ م

طبع بمطابع النهضة ش.م.م ت : ٥٦٣١٠٤

عُمان التي لم تُنصف في الكشف عن
كنوز فكرها الخلاق تحتاج في عصر
العولمة الألفية الجديدة من يسلط
الضوء على مبدعيها، ويأتي على
رأسهم سماحة الشيخ الخليلي الحُجة
الفكرية العربية والتأريخية
الإسلامية الذي تجاوزت أعماله
حدود وطنه عُمان إلى العالمية؛
ليأخذ على عاتقه الدفاع عن الإسلام
وشرح أصوله ومنهجه، وفكره وفلسفته
... مبتعداً عن العواطف الهوجاء التي
تبعده الحقيقة عن ذاتها، وتستسلم إلى
رقة الكلام المنمق .

لقد لخص سماحته صفحات
التأريخ العربي عبر عصوره، بأراء
وأقوال واجتهادات بلغ بها الذرى،
أفلا يحق للمؤمنين أن يعطوه صفة
(مفتي العروبة والإسلام) ويسلطون
الضوء على قدراته الخلاقة، وأفكاره
النيرة، وأقواله الماثورة التي عجزت
عن النطق بها مؤسسات علمية، ومراكز
بحثية .

أ.د. مصطفى عبد القادر النجار

المستشار الأكاديمي بوزارة التعليم العالي

من مقال بمجلة الشرطة

سلطنة عُمان